

جون غريشام
JOHN GRISHAM

جزيرة كامينو

CAMINO ISLAND

مكتبة الكندي
العمارة العربية

رواية

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

جزيرة كامينو

CAMINO ISLAND

جزيرة كامينو

CAMINO ISLAND

رواية

جون غريشام

JOHN GRISHAM

ترجمة غيلدا عساف



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

ISLAND CAMINO

حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانونياً من الناشر

House Random Penguin of division a ,Doubleday

York New ,LLC

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون،

ش.م.ل.

.Belfry Holdings, Inc 2017 © Copyright

reserved rights All

Scientific Arab by 2018 © Copyright Arabic

L.A.S .Inc ,Publishers

الطبعة الأولى: أيار/مايو 2018 م - 1439 هـ.

ردمك 4-3501-02-614-978

جميع الحقوق محفوظة للناشر

توزيع

facebook.com/ASPARabic
twitter.com/ASPARabic
www.aspbooks.com
asparabic

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc. s.l

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 785108 - 786233 - (+961-1) 785107

ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان

فاكس: 786230 (+961-1) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو
الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو
أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها،
من دون إذن خطي من الناشر.



إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي

تصميم الغلاف: علي القهوجي

التنضيد وفرز الألوان: أب-ج-د غرافيكس، بيروت - هاتف (+961-

785107 (1

الطباع-ة: مط-ابع ال-دار الع-ربية للع-ل-وم، بيروت - هاتف (+961-1

786233

الفصل الأول

السرقة

1

انتحل المحتال اسم نيفيل مانشين وهو في الحقيقة اسم أستاذ مساعد في الأدب الأمريكي في جامعة بورتلاند ستيت، وسيلتحق قريباً بجامعة ستانفورد لدراسة الدكتوراه. في رسالته التي أرسلها والتي تحمل شعار الكلية المزور بشكل متقن، ادّعى «الأستاذ مانشين» أنه باحث في أعمال أف. سكوت فيتزجيرالد وأنه مُهتم بالاطلاع على «أوراق ومخطوطات» الكاتب الكبير خلال زيارة مُرتقبة له إلى الساحل الشرقي. كانت الرسالة مُوجّهة إلى الدكتور جيفري براون، مدير قسم المخطوطات في دائرة الكتب النادرة والمجموعات الخاصة لمكتبة فايرستون التابعة لجامعة برينستون. وصلت الرسالة مع بضع رسائل أخرى، وحطّت رحالها عند مكتب إد فولك، وهو أمين المكتبة، الذي يتولى، من بين مهام كثيرة، التحقق من مؤهلات الشخص الذي كتب الرسالة.

أسبوعياً، يتلقّى إد العديد من الرسائل، التي تتشابه من نواحٍ عدة، ويدّعي مرسلوها أنهم باحثون في أعمال فيتزجيرالد، كما أن بعض هذه الرسائل تأتي

أحياناً من قبل باحثين حقيقيين. ففي السنة الماضية، سجّل إد وتحقق من دخول 1 شخصاً من أولئك الناس إلى المكتبة. لقد أتوا من جميع أنحاء العالم وأظهروا تواضعهم أمام عظمة أعمال فيتزجيرالد، وبدأت عيونهم وكأنها على وشك التهام مخطوطاته النادرة. خلال السنوات الأربع والثلاثين التي قضاها في مكتبه، تعامل إد مع جميع طلباتهم واستمروا بالمجيء إليه، فقد ظل أف. سكوت فيتزجيرالد يذهلهم. والإقبال كان كثيفاً كما كان منذ ثلاثة عقود. لكن في هذه الأيام، يتساءل إد هل هناك نواحٍ لم يتطرق إليها الباحثون بالدراسة والتفحص والتمحيص والكتابة. فمنذ فترة قصيرة، أخبره أحد الباحثين الحقيقيين أنه يوجد الآن على الأقل مائة كتاب وأكثر من عشرة آلاف مقالة أكاديمية منشورة عن فيتزجيرالد، الرجل والكاتب، وعن أعماله وعن زوجته المجنونة.

لكن حقيقة موت فيتزجيرالد عن عمر لم يتجاوز الرابعة والأربعين نتيجة الإفراط في الشرب، تجعل إد يطرح سؤالاً وجيهاً. ماذا لو عاش لفترة أطول واستمر بالكتابة؟ لربما وقتها كان إد سيحتاج إلى مساعد أو اثنين، ولربما إلى فريق كامل. لكن من ناحية أخرى أدرك إد أنّ الموت المبكر كان على الأغلب مفتاح الشهرة التي أصابها لاحقاً، (ناهيك عن ذكر العائدات المالية الكبيرة).

بعد عدة أيام، تمكّن إد من التعامل مع الأستاذ مانشين المزيف. فبعد اطلاع سريع على سجل المكتبة، اكتشف أنه طالب جديد. لقد أتى بعض الخبراء إلى برينستون مرات كثيرة، فهم ببساطة يتصلون به ويقولون: «مرحباً إد، سأتي إلى المكتبة الثلاثاء القادم». وهذا كان مقبولاً بالنسبة إلى إد، لكن لم يكن الأمر كذلك مع مانشين المزيف، فقد دخل إد إلى موقع بورتلاند ستيت على الشبكة العنكبوتية ووجد ضالته. إنه في المرحلة الجامعية الأولى في الأدب الأمريكي

في جامعة أوريغون، ويحمل ماجستير من جامعة كاليفورنيا، وهو يعمل أستاذاً مساعداً منذ ثلاث سنوات. كما تكشف صورته عن شخصية شاب عادي يبلغ الخامسة والثلاثين من العمر تقريباً، وله لحية، ويضع نظارة بلا إطار.

طلب الأستاذ مانشين في رسالته من الشخص الذي يرّد عليه كائناً من كان، أن يُبَيّ طلبه عن طريق البريد الإلكتروني كما أعطاه عنوانه الإلكتروني الخاص على الجي ميل، وقال إنه نادراً ما يفتح بريده الإلكتروني الخاص بالجامعة. قال إد في سره ساخراً: «لأنك مجرد أستاذ مساعد وضع وربما لا تملك مكتباً حتى». لطالما تخطر أفكار كهذه في باله، لكن بالطبع، كان مهنيّاً بما يكفي كي لا يُفصح عنها لأي شخص آخر. بدافع من الحرص، بعث برد في اليوم التالي عبر مُخدّم بورتلاند ستيت. وشكر الأستاذ مانشين على رسالته ودعاه إلى مقر جامعة برينستون. كما طلب منه تحديد فترة وصوله، وقدم له بعض القواعد الأساسية المتعلقة بمجموعة فيتزجيرالد. كان هناك كثير منها، فاقترح على الأستاذ مانشين الاطلاع عليها من موقع المكتبة على الشبكة العنكبوتية.

أتاه رد تلقائي بأنه يتعذر الوصول إلى الأستاذ مانشين لعدة أيام. فقد اخترق أحد شركاء مانشين موقع بورتلاند ستيت، وعبث بمخدّم إيميل قسم اللغة الإنكليزية، وهذا عمل بسيط بالنسبة إلى هاكر محترف. عندها علم الهاكر المحتمل على الفور أنّ إد بعث برده.

اعتقد إد أن لا مشكلة في ذلك، فأرسل في اليوم التالي الرسالة نفسها إلى الأستاذ مانشين على الجي ميل الخاص به. وخلال ساعة، ردّ مانشين وشكره بحماسة ثم قال إنه لا يطيق صبراً كي يصل إلى هناك وغير ذلك من الكلام المنمق. كما استفاز في الكلام عن مدى دراسته لموقع المكتبة على الشبكة

العنكبوتية وعن قضاء ساعات في دراسة أرشيف فيتزجيرالد الرقمي، وأنه امتلك لسنوات السلسلة الضخمة التي تحوي نسخ فاكسات مخطوطات الكاتب العظيم المكتوبة بخط يده، وأنّ لديه اهتماماً خاصاً في الآراء النقدية لروايته الأولى، هذا الجانب من الجنة.

قال إد، هذا رائع. لقد مرّ عليه كل هذا من قبل، فالرجل يحاول إثارة إعجابه حتى قبل أن يصل إلى هنا، وهذا لم يكن مستغرباً على الإطلاق.

2

في خريف 1913، انتسب أف. سكوت فيتزجيرالد إلى جامعة برينستون وكان وقتها في السادسة عشرة، ويحلم بكتابة رواية أمريكية عظيمة، وابتدأ العمل بالفعل على النسخة المبكرة من رواية هذا الجانب من الجنة. لكن، بعد مُضيّ أربع سنوات، انقطع عن الدراسة، والتحق بالجيش، وذهب إلى الحرب، لكنها انتهت قبل أن يشارك فيها. صدرت روايته الكلاسيكية غاتسبي العظيم في العام 1925 لكنها لم تشتهر إلا بعد وفاته. لقد عانى كثيراً من الناحية المالية في مهنته. في العام 1940 قدّم بعض النصوص الضعيفة لهوليوود، قبل أن توافيه المنية في الحادي والعشرين من كانون الأول بسبب ذبحة قلبية حادة سببتها سنوات من الإفراط في معاقرة الخمر.

في العام 1950، قامت ابنته الوحيدة سكوتي بتقديم مخطوطاته الأصلية وملحوظاته ورسائله – أي أوراقه – إلى مكتبة فايرستون في برينستون. كانت رواياته الخمس مكتوبة على ورق رديء حتى أنها اهترأت بشكل كبير. أدركت المكتبة على الفور أن من غير الحكمة السماح للباحثين بالتعامل مع هذه الأوراق بشكل يدوي، فحضّرت نسخ عالية الجودة عنها، وأودعت الأصلية في قبو مؤمن داخل القبو حيث يتم التحكم بعناية بهوائه وضوئه ودرجة حرارته.

وعلى مرّ السنين أُخْرِجت تلك الأوراق لعدد قليل من المرات.

3

وصل مُنتحل شخصية الأستاذ نيفيل مانشين إلى برينستون في تشرين الأول، وكان الطقس خريفياً جميلاً، حيث أُرشد إلى مكان الكتب النادرة والمجموعات الخاصة، والتقى إد فولك الذي وجّهه بدوره إلى مساعد أمين مكتبة آخر، تفحص ونسخ صورة عن رخصة قيادته الصادرة من أوريغون. كانت مزورة بالطبع، لكن تزويرها كان متقناً. المُزوّر الذي هو الهاكر أيضاً، كان قد دُرّب في وكالة الاستخبارات الأمريكية، وله باع طويل في العالم الخفي لأعمال التجسس الخاصة. لذلك لم يُشكل له اختراق النظام الأمني للجامعة تحدياً يُذكر.

النُقطة صورة للأستاذ مانشين وأُصدرت له بطاقة أمنية يجدر به إبرازها على الدوام. لحق الأستاذ مانشين بمساعد أمين المكتبة إلى الطابق الثاني ومنه إلى غرفة كبيرة فيها طاولتان كبيرتان وعلى جدرانها جوارير معدنية قابلة للسحب جميعها مزودة بالأقفال. انتبه مانشين لوجود أربع كاميرات مراقبة على الأقل في أعلى الزوايا والتي افترض أن واضعيها تعمدوا إظهارها، وشكّ بوجود كاميرات أخرى مخفية بشكل جيد. لقد حاول التحدث مع مساعد أمين المكتبة قليلاً، لكنه لم يلقَ تجاوباً كبيراً، فسأله مماًزحاً إذا كان بإمكانه الاطلاع على المخطوطات الأصلية لرواية هذا الجانب من الجنة، فابتسم مساعد أمين المكتبة بتعجرف قائلاً: «إنّ ذلك مستحيل».

فسأله مانشين: «هل سبق لك أن رأيتها؟».

«مرة واحدة فقط».

صمت بينما كان مانشين ينتظر قول المزيد ثم سأله: «بأي مناسبة؟».

«حسناً، لقد تمنى أحد الباحثين المشهورين رؤيتها، فاصطحبناه إلى القبو الذي في الأسفل، وجعلناه يلقي عليها نظرة. لكنه لم يلمسها، فأمين مكتبتنا وحده المخوّل لمسها بعد أن يضع قفازات خاصة».

«بالطبع، حسناً، دعنا نبدأ العمل».

فتح المساعد اثنتين من الجوارير الضخمة وكلاهما معنون بـ «هذا الجانب من الجنة»، ثم سحب كراريس ضخمة للغاية وقال: «هذه تحوي مراجعات الكتاب عندما نُشر للمرة الأولى، ولدينا عينات أخرى كثيرة لمراجعات لاحقة».

ابتسم مانشين وقال: «هذا رائع». فتح حقيبته، وأخرج منها دفتر ملاحظاته، وبدا أنه مستعد للانقضاء على كل ما هو موجود فوق الطاولة. وبعد مُضي نصف ساعة، بينما كان مانشين مستغرقاً في عمله، استأذن مساعد أمين المكتبة وذهب. لم ينظر مانشين باتجاه الكاميرات أبداً، وفي النهاية، جال في الأرجاء باحثاً عن حمام الذكور، وعندما تَوّه نفسه، أخذ يجول بين مجموعات الكتب متجنباً الالتقاء بأي شخص، فهناك كاميرات مراقبة في كل مكان. لم يظن أن هناك من يراقب صور الكاميرات في هذه الأثناء، لكن من المؤكد أنه يمكن الاطلاع عليها عند الحاجة. وجد مصعداً فتجنبه ونزل عبر السلالم المجاورة. كان الطابق الأسفل شبيهاً بالطابق الأرضي، وأسفله انتهت السلالم بمكان يُسمى (القبو الثاني) حيث وجد باباً كبيراً كُتب عليه بأحرف كبيرة «مخرج طوارئ» بجانبه لوحة أرقام ولوحة تحذيرية أخرى كتب عليها: إن صفارات الإنذار ستُطلق عند محاولة فتح الباب من دون «تصريح مناسب». وكان الباب والمنطقة المحيطة به بحراسة حارس خفي لم يظهر منه سوى

عينيه اللتين كانتا كاميرتين. ابتعد مانشين وعاد أدراجه، وعندما وصل إلى غرفة العمل كان المساعد بالانتظار فسأله: «هل كل شيء على ما يرام أستاذ مانشين؟».

«نعم، فقط بعض المغص في المعدة على ما أظن، آمل أن يكون عرضياً».

غادر مساعد أمين المكتبة على الفور، وبقي مانشين طوال اليوم يبحث في المواد الموجودة في الجوارير المعدنية، ويقراً المراجعات القديمة التي لم يكن يهتم بها على الإطلاق. لقد تجول في الأرجاء عدة مرات متفحصاً المكان مسجلاً أبعاده في ذاكرته.

4

بعد أسبوعين، عاد مانشين المزيف ولم يدّع أنه الأستاذ. فقد بدا مظهره مختلفاً بعد أن حلق لحيته، وصبغ شعر رأسه باللون الأشقر، وأطر عينيه بنظارة حمراء اللون، مزوداً ببطاقة طالب مزورة تحمل صورته. في حال سأله أحدهم، وذلك شيء لم يكن يتوقعه، سيقول إنه طالب دراسات عليا من جامعة أيوا. كان اسمه مارك. ومهنته إذا ما أمكن تسميتها كذلك، هي السرقة الاحترافية التي تتمثل بأعمال تحطيم وسطو مُخططة بعناية لأشياء نفيسة وغالية الثمن لا سيما في مجال الأعمال الأدبية والتحف الفنية النادرة التي يمكن إعادتها لمن سرقت منهم مقابل فدية. كانت عصابته مؤلفة من خمسة أشخاص يقودها شخص اسمه ديني، وهو عنصر سابق في القوات الخاصة للجيش الأمريكي تحوّل إلى الجريمة بعد طرده من الخدمة العسكرية. حتى الآن، لم يُقبض على ديني وليس له سجل إجرامي، والأمر عينه ينطبق على مارك، لكن قبض على اثنين من البقية، فتري الذي أُدين مرتين وحُكم عليه. وفر، أخيراً من سجن فيدرالي في أوهايو السنة الماضية، حيث التقى بسارق

التحف الفنية جيري والذي هو الآن في حالة إطلاق سراح مشروط. لقد أخبر أحد زملاء جيري في الزنزانة، والذي كان يمضي فترة سجن طويلة، عن مخطوطات فيتزجيرالد.

كانت الخطة محكمة، فهناك خمس مخطوطات فقط وجميعها مكتوبة بخط اليد وموجودة في مكان واحد، وهي لا تُقدّر بثمن بالنسبة إلى جامعة برينستون.

يفضّل العضو الخامس في الفريق العمل من المنزل. كان اسمه أحمد وهو الهاكر والمُزوّر ومُبدع كل الخدع، لكنه لم يكن يجروّ على حمل السلاح وما شابه. إنه يعمل من قبوه في بوفالو وليس لديه أي سجل إجرامي، فهو لا يترك أثراً له. سيتقاضى ما نسبته خمسة بالمئة من حاصل العملية النقدي بينما سيتقاسم الآخرون الباقي بالتساوي.

بحلول الساعة التاسعة من مساء الثلاثاء، دخل ديني ومارك وجيري إلى مكتبة فايرستون بهيئة طلاب دراسات عليا ولم يثيروا أي شكوك. وجد ديني مخبأه في الطابق الثالث داخل حمام النساء حيث رفع أحد ألواح السقف فوق المرحاض وألقى بحقيبته الطلابية التي توضع على الظهر وبقي جاثماً هناك لبضع ساعات. أما مارك ففتح قفل غرفة الميكانيك في القبو الأول وانتظر انطلاق صافرات الإنذار، فلم يسمع أي شيء وكذلك أحمد، الذي اخترق أنظمة الجامعة الأمنية بسهولة. تمثل دور مارك بتعطيل حواقي مولد الكهرباء الاحتياطي للمكتبة. ووجد جيري مكاناً في غرفة القراءة الواقعة بين رفوف الكتب المقدسة التي لم تُلمس منذ عقود من الزمن.

جال تري حول حرم الجامعة مرتدياً زي الطلاب واستطلع أماكن زرع

قنابله.

عند منتصف الليل، أُغلقت أبواب المكتبة، وكان أعضاء الفريق الأربعة بالإضافة إلى أحمد القابع في قبوه في بوفالو على تواصل عن طريق شبكة اتصال لاسلكية. عند الساعة 12:15 أعلن القائد ديني أنّ كل شيء يجري حسب الخطة، وفي الساعة 12:20، دخل تري الذي يرتدي زي الطلاب ويتجوّل بحقيبة الظهر الضخمة مساكن مكارين الواقعة في قلب الحرم الجامعي، ورأى كاميرات المراقبة نفسها التي رآها في الأسبوع الماضي. استقلّ السلالم غير المراقبة التي تُفضي إلى الطابق الثاني، ثم دخل إلى حمام مُختلط، وأقفل الباب على نفسه في أحد المراحيض. عند الساعة 12:40، مدّ يده إلى حقيبة الظهر، وأخرج منها علبة معدنية بحجم علبة صودا سعة عشرين أونصة، وحدّد زمن صاعق التفجير، وخبّأه وراء المراحاض. غادر الحمام وذهب إلى الطابق الثالث، حيث وضع قنبلة أخرى داخل حجرة استحمام فارغة. وعند الساعة 12:45، رمى مجموعة من القنابل الدخانية في رواق شبه مظلم في الطابق الثاني للمساكن. جثم تحت بيت الدرج حتى دوت الانفجارات، وبعد مُضي ثانية، انفجرت القنابل الدخانية باعثة بضباب داخل الممرات. في الوقت الذي خرج فيه تري من المبنى سمع الموجة الأولى من الأصوات، فخطأ خلف بعض الشجيرات بجوار المهجع، وأخرج هاتفاً من جيبه واتصل بالرقم 911 الخاص بجامعة برينستون، قائلاً: «هناك شخص يحمل سلاحاً في الطابق الثاني من مبنى مكارين، إنه يطلق أعيرة نارية».

كان الدخان ينبعث من نوافذ الطابق الثاني. بدوره أجرى جيري القابع في غرفة القراءة داخل المكتبة، اتصالاً مماثلاً من هاتفه المسبق الدفع. وسرعان ما انهمرت الاتصالات عندما خيم الرعب داخل الحرم الجامعي.

هناك خطط محكمة في كل جامعة أمريكية للتعامل مع الظرف الذي يتضمن وجود «رجل مسلح نشط»، لكن ليس هناك من يريد تنفيذها. لقد تطلب الأمر لحظات من الذهول قبل أن تتمكن الضابطة المسؤولة من ضغط الأزرار الصحيحة، لكن عندما فعلت، بدأت صفارات الإنذار بالدوي، وتلقى كل طالب وأستاذ وإداري وعامل في جامعة برينستون رسالة تحذير هاتفية وعلى البريد الإلكتروني. كان يجب قفل كل الأبواب بالإضافة إلى تأمين كامل المبنى.

أجرى جيرى اتصالاً آخر بالرقم 911 زاعماً أن طالبين أصيبا بطلق ناري. لقد غمر الدخان مبنى مكارين. فقد ألقوا ثلاث قنابل دخانية أخرى داخل سلال المهملات. ركض بعض الطلاب عبر الدخان وهم يذهبون من مبنى لآخر غير عارفين بالضبط الأماكن الأكثر أماناً. وأسرع أمن الحرم الجامعي بالإضافة لشرطة مدينة برينستون إلى مكان الحدث، يتبعهم نصف دزينة من عربات الإطفاء ومن ثم عربات الإسعاف. كما وصلت أولى سيارات الدوريات من شرطة ولاية نيوجيرسي.

ترك تري حقيبة الظهر أمام باب مبنى المكاتب، واتصل بالرقم 911 ليبلغ عن حقيبة مشكوك بأمرها. كان جهاز توقيت آخر قنبلة دخانية موجوداً داخل حقيبة الظهر مُجهّز للانفجار خلال عشر دقائق، أي في الوقت الذي يبدأ فيه خبراء المتفجرات بالتحديق إليها عن بعد.

عند الساعة 1:05 اتصل تري بالعصابة وقال: «هناك رعب كبير هنا، والدخان في كل مكان بالإضافة لآلاف من عناصر الشرطة. ابدأوا العمل».

أجاب ديني: «أطفئ الأنوار».

أحمد الذي يشرب الشاي الثقيل في بوفالو وهو على أهبة الاستعداد، تنقل

بسرعة عبر لوحات الجامعة الأمنية، ودخل إلى الشبكة الكهربائية، وفصل الكهرباء ليس عن مكتبة فايرستون وحسب، بل عن نصف دزينة من المباني المجاورة أيضاً. كخطوة إضافية لتأمين نجاح المهمة، رفع مارك الذي يضع نظارة رؤية ليلية القاطع الرئيسي في غرفة الميكانيك، وانتظر حابساً أنفاسه، ثم أطلقها بارتياح عندما لم يشتغل مولد الكهرباء الاحتياطي.

أطلق انقطاع الكهرباء صافرات الإنذار في محطة المراقبة الرئيسية داخل مجمّع الأمن في الحرم الجامعي، لكن لم يُعر أحد بالآلاً لذلك، فهناك مسلح نشط طليق، وليس هناك وقت للقلق بشأن الإنذارات الأخرى.

في الأسبوع الماضي، أمضى جيرى ليلتين داخل مكتبة فايرستون، وكان واثقاً من عدم وجود حرس داخل المبنى عند إغلاقه. فخلال الليل، هناك ضابط بزي رسمي يتجول حول المبنى مرة أو اثنتين، وهو يوجّه ضوءه الكشاف على الأبواب ويستمر بالمشي. وهناك سيارة دورية شرطة تجول أيضاً، لكنها تُركّز بشكل أساسي على الطلاب السكارى. بشكل عام، كان الحرم الجامعي – مثل أي مكان آخر – لا حياة فيه بين الساعة الواحدة بعد منتصف الليل والثامنة صباحاً.

لكن هذه الليلة، كانت برينستون في خضم حالة طارئة مسعورة، حيث يتعرض أفضل مكان في أمريكا لهجوم مسلح. أبلغ تري عصابته عن الفوضى العارمة في المكان حيث رجال الشرطة وفرقة التدخل السريع وأصوات صافرات الإنذار وأجهزة الاتصال اللاسلكية بالإضافة إلى أضواء الطوارئ الحمراء والزرقاء الواضحة. خيم الدخان على الأشجار مثل الضباب، وأمكن سماع المروحية وهي تحوم في مكان قريب. لقد عمّت الفوضى.

أسرع ديني وجيري ومارك عبر الظلام ونزلوا السلالم المؤدية إلى القبو تحت مكان المجموعات الخاصة. وضع كل واحد منهم نظارة رؤية ليلية، وثبتت كاشفاً ضوئياً مثل الذي يضعه عمال المناجم، وحمل حقيبة ظهر ثقيلة، أما جيري فقد جرّ أيضاً حقيبة عسكرية صغيرة كان قد خبأها في المكتبة قبل ليلتين. توقفوا عند مستوى القبو الثالث أمام باب معدني ضخم، وانتظروا أحمد وأعماله السحرية. لقد شقّ طريقه بهدوء عبر نظام إنذار المكتبة، وحرّر حساسات الأبواب الأربعة. كان هناك صوت طقطقة عالٍ. ضغط ديني على مقبض الباب وفتحه. وفي الداخل، وجدوا فسحة ضيقة مربعة الشكل لها بابان إضافيان، وباستخدام مصباح يدويّ، تفحص مارك السقف ووجد كاميرا للمراقبة ثم قال: «هناك، واحدة فقط». أخرج جيري، وهو أطولهم والذي يبلغ طوله 180 سنتم، بخاخة طلاء أسود ورشّ عدسة الكاميرا.

نظر ديني إلى البابين وقال: «هل تريدون إجراء قرعة؟».

سأل أحمد من بوفالو: «ماذا ترون؟».

أجاب ديني: «نرى بابين معدنيين متماثلين».

قال أحمد: «لا أرى شيئاً هناك يا رفاق، فلا يوجد شيء آخر في النظام سوى الباب الأول. ابدأوا بالقص».

أخرج جيري أسطوانتي غاز بطول ثمانية عشر إنشاً من حقيبته، إحداها مليئة بالأوكسيجين والأخرى بالإستيلين. تمركز ديني أمام الباب لجهة اليسار، وأشعل شعلة القطع بمولّد شرارة، وبدأ بتسخين بقعة على بعد ستة إنشات فوق قفل الباب. وخلال ثوانٍ بدأت الشرارات بالتطاير.

في هذه الأثناء، ابتعد تري عن الفوضى المحيطة بمبنى مساكن مكارين

وتوارى في الظلمة في الشارع المقابل للمكتبة. كانت صافرات الإنذار تزعق واستجابت سيارة شرطة أخرى للنداء. حوّمت المروحيات في أجواء الحرم الجامعي رغم أنّ تري لم يستطع رؤيتها. فحتى أضواء الشوارع كانت مُطفأة. لم يكن هناك أي شخص آخر قرب المكتبة، فالحاجة لكل الدعم كانت في مكان آخر.

قال: «كل شيء هادئ خارج المكتبة، هل تحرزون تقدماً؟».

جاء الرد المُقتضب من مارك: «نحن نقص الباب الآن». يعلم كل الأعضاء الخمسة أنّ المحادثة يجب أن تكون مقتضبة. استطاع ديني ببطء ومهارة أن يخرق المعدن بطرف الشعلة التي تشع حرارة بمقدار ثمانمائة درجة مئوية. مضت دقائق قبل أن يبدأ المعدن المُذاب ينزلق على الأرض والشرارات الحمراء والصفراء تتطاير من الباب. قال ديني: «إنه بسماكة إنش واحد». سار العمل ببطء وبدأت الدقائق ثقيلة فخيم التوتر عليهم لكنهم حافظوا على رباطة جأشهم. جثم جيرى ومارك خلف ديني يراقبان كل خطوة من خطواته، وعندما انتهى القص في الجانب السفلي، حرّك ديني المزلاج، فبدأ مرتخياً لكنّ شيئاً ما كان عالقاً فقال: «إنه مسمار، سأقصه». بعد خمس دقائق، فُتح الباب. لم يلحظ أحمد الذي يحدّق إلى كومبيوتره المحمول وجود أي شيء غير عادي عبر نظام المكتبة الأمني فقال: «لا شيء هنا». دخل ديني ومارك وجيري الغرفة على الفور. هناك طاولة بعرض قدمين على الأكثر وطول عشر أقدام تقريباً بالإضافة إلى أربعة جوارير خشبية كبيرة تغطي جانباً من الغرفة وأربعة على الجانب الآخر. أبعد مارك المختص بخلع الأقفال نظارته الليلية وثبت ضوءه الكشاف، وبدأ بتفحص أحد الأقفال. هزّ رأسه وقال: «لا شيء مفاجئ. إنها أقفال بأرقام سرية، ربما برموز كومبيوترية تتغير كل يوم، ليس هناك من سبيل لفكّها. لدينا

مثقاب». قال ديني: «ابدأ العمل عليها بينما أقص الباب الآخر». أحضر جيري مثقاباً ذا قضبان مساندة يعمل على البطارية وثبته على القفل ثم ضغط هو ومارك بكل ما أوتيا من قوة، فانزلق المثقاب عن النحاس وبدأ أول الأمر وكأنه غير قابل للاختراق. لكن بعد عدة محاولات بدأت ريشة المثقاب تحفر داخل القفل، وعندما انتهى منه لم يفتح الجارور. تمكن مارك من إدخال عتلة رقيقة في الفتحة فوق القفل، وضغط بشدة نحو الأسفل، فتشقق الإطار الخشبي وفتح الجارور. كان في داخله صندوق تخزين للمحفوظات ذو جوانب معدنية سوداء اللون، بعرض سبعة عشر إنشاً وطول اثنين وعشرين إنشاً وعمق ثلاثة إنشات. «كن على حذر»، قال جيري بينما كان مارك يفتح الصندوق ويرفع أحد المجلدات. قرأ مارك ببطء: «مجموعة قصائد دولف ماكينزي. هذا ما أردته دوماً».

«من هذا بحق الجحيم». «لست أدري لكننا لسنا هنا من أجل القصائد». دخل ديني خلفهما وقال: «حسناً، تابعا العمل، هناك سبعة جوارير أخرى هنا. أنا على وشك الدخول إلى الغرفة الأخرى». عادا إلى عملهما في الوقت الذي كان فيه تري يدخن سيجارة وهو جالس على أحد كراسي الحديقة في الشارع المقابل وينظر بشكل متكرر إلى ساعة يده. لم يهدأ الهيجان داخل الحرم الجامعي، لكنه لن يستمر للأبد. كشف الجاروران الثاني والثالث في الغرفة الأولى كثيراً من الكتب النادرة لمؤلفين غير معروفين بالنسبة إلى العصابة. عندما أنهى ديني عمله في الدخول إلى الغرفة الثانية أخبر جيري ومارك كي يجلبا المثقاب. فهذه الغرفة تحتوي أيضاً على ثمانية جوارير ضخمة وعلى ما يبدو أنها مشابهة للغرفة الأولى تماماً. عند الساعة 2:15، أبلغهم تري أنّ الحرم الجامعي لا يزال مغلقاً بالكامل، لكن بعض الطلاب الفضوليين بدأوا

بالتجمع على المرج أمام مبنى مكارين ليشاهدوا ما يجري. أمرتهم الشرطة عبر مكبرات الصوت بالعودة إلى غرفهم، لكن كان هناك كثير منهم. وكانت مروحيتان على الأقل تابعتان لمحطتي أخبار تحومان وتعرفلان عمل الشرطة. كان يشاهد محطة سي أن أن عبر هاتفه الذكي، التي كانت تقدم تغطية مباشرة لما يجري في برينستون. تقرير محموم «من أرض الحدث» يشير بشكل متكرر إلى «وجود ضحايا بشكل غير مؤكد» ويحاول نقل الانطباع بأنّ عدة طلاب قد أصيبوا بأعيرة نارية «أطلقها أحد المسلحين على الأقل». تتم تري قائلاً: «يا للمكر، يقولون إن أحد المسلحين قد أطلق النار!! ليصح ما يقولونه يجب أن يكون الرجال مسلحين وأحدهم أطلق النار وهذا كذب وافتراء». ناقش ديني ومارك وجيري فكرة قصّ الجوارير بشعلة الأوكسجين، لكنهم قرروا عدم فعل ذلك على الأقل في الوقت الحالي. فاحتمال نشوب حريق جراء ذلك مرتفع، وما هي الفائدة المرجوة من المخطوطات في حال تضرّرها. بدلاً من ذلك، أخرج ديني مثقاباً صغيراً وبدأ الحفر. أما مارك وجيري فتابعا الحفر بالمثقاب الكبير. كان في الجارور الأول للغرفة الثانية أكوام من الأوراق الرقيقة المكتوبة بخط يد شاعر آخر منسي منذ وقت طويل، واحد لم يسمعوا به من قبل لكنهم كرهوه رغم ذلك.

عند الساعة 2:30، أكدت محطة السي أن أن مقتل طالبين وجرح آخرين على الأقل. لقد استخدمت كلمة «مجزرة».

عندما تمّ تأمين الطابق الثاني من مبنى مكارين، لاحظت الشرطة وجود بقايا ما تبين أنها مفرقات. كما تمّ إيجاد عبوة القنبلة الدخانية في الحمام. وكذلك قام فريق المتفجرات بفتح حقيبة الظهر التي تركها تري خلفه. عند

الساعة 3:10، ذكر قائد العملية كلمة «خدعة» للمرة الأولى، لكنّ الأدرينالين كان في أعلى مستوياته لدرجة أن أحداً لم يفكر بكلمة «تمويه».

تمّ تأمين بقية مبنى مكارين بسرعة، ولكن الحرم الجامعي كان مقفلاً، فهو سيبقى مقفلاً لساعات بينما يتم تفتيش المباني الأخرى.

6

عند الساعة 3:30 قال تري: «يبدو أنّ الأمور تهدأ هنا، وأنتم موجودون هناك منذ ثلاث ساعات أيها الرفاق، كيف تجري أمور الحفر؟».

جاء الرد بكلمة واحدة من ديني: «بطيئة».

كان الحفر بطيئاً حقاً داخل القبو بالرغم من عدم توانيهم في بذل الجهد. أظهرت الجوارير الأربعة الأولى كثيراً من المخطوطات القديمة، بعضها مكتوب بخط اليد والآخر مطبوع، وجميعها لكتاب مهمين لكن أحداً لم يعد يسمع بهم الآن. أخيراً، عثروا على ضالتهم في الجارور الخامس عندما قام ديني بإخراج صندوق محفوظات مماثل للصناديق الأخرى. ففتحه بحرص. هناك صفحة مرجعية أدخلتها المكتبة تقول: «مخطوطة أصلية مكتوبة بخط اليد لرواية الجميلة والملعون – أف. سكوت فيتزجيرالد».

قال ديني بهدوء: «نجحنا». وأخرج صندوقين متماثلين من الجارور الخامس ووضعهما بلطف على الطاولة الصغيرة ثم فتحهما. كانا يحتويان على المخطوطات الأصلية لروايتي الليلة الناعمة وحب التاجر الأخير.

أحمد الذي كان ملتصقاً بكمبيوتره المحمول وهو يشرب الآن مشروب طاقة مترع بالكافيين، سمع الكلمات الجميلة: «حسناً يا شباب لدينا ثلاث روايات من أصل خمس. رواية غاتسبي هنا في مكان ما إلى جانب رواية هذا الجانب من

الجنة».

سأل تري: «كم من الوقت بعد؟».

أجاب ديني: «عشرون دقيقة، أحضر سيارة الفان إلى المكان المُحدّد».

تمشى تري بشكل عفوي عبر الحرم الجامعي واختلط بحشد من الفضوليين وراقب رجال الشرطة المحتشدين هناك. لقد توقفوا عن عمليات الدهم والاستكشاف والركض والاندفاع خلف السيارات بأسلحتهم. من الواضح أن الخطر قد زال بالرغم من أن الأضواء الزرقاء والحمراء الوامضة لا تزال تثير المنطقة. ابتعد تري ومشى لمسافة نصف ميل، وغادر الحرم الجامعي، ثم توقف في شارع جون ستريت حيث دخل سيارة فان بيضاء كتب على بابيها الأماميين «مطبوعات جامعة برينستون» وكانت شديدة الشبه بسيارة فان التقط تري صورة لها قبل أسبوع. قادها عائداً إلى الحرم الجامعي، وتجنّب الضوضاء الحاصلة حول مبنى مكارين، ثم ركنها بجانب أحد أرصفة التحميل في الجهة الخلفية للمكتبة وقال: «الفان في المكان المطلوب».

أجاب ديني: «نحن على وشك فتح الجارور السادس».

بينما كان جيري ومارك ينزعان نظارتي الرؤية الليلية ويوجهان أضواءهما نحو الطاولة، فتح ديني بلطف صندوق المحفوظات. وعلى الصفحة المرجعية لها مكتوب: «مخطوطة أصلية بخط اليد لرواية غاتسبي العظيم – أف. سكوت فيتزجيرالد».

قال بهدوء: «نجحنا، أصبح غاتسبي بحوزتنا، ابن اللعينة هذا».

قال مارك معبراً عن فرحه: «ووبيي»، رغم أنّ حماسهم كانت منضبطة بشكل كبير. رفع جيري الصندوق الأخير الباقي في الجارور، إنها مخطوطة

رواية هذا الجانب من الجنة، أول رواية لفيتزجيرالد، صدرت في العام 1920. قال ديني بهدوء: «لقد أصبحت الروايات الخمس بحوزتنا، دعونا نخرج من هنا».

أعاد جيري توضيب المثاقب ومشعل القص وأسطوانات الأوكسجين والإستيلين والعتلات. وبينما كان ينحني لرفع الحقيبة جرحته إحدى شظايا الخشب من الجارور الثالث فوق معصمه الأيسر. وبسبب الحماس، بالكاد انتبه لذلك، بينما كان يرفع حقيبة الظهر. وضع ديني ومارك المخطوطات الأصلية الخمس بعناية داخل حقائبهم الطلابية التي توضع على الظهر. أسرع اللصوص في الخروج من القبو وهم مثقلون بعدتهم ومسروقاتهم، ثم صعدوا السلالم باتجاه الطابق الأول. غادروا المكتبة عبر مدخل الخدمات بجانب رصيف التحميل المحجوب عن الرؤية بسياج طويل وكثيف من الشجيرات. قفزوا عبر باب الفان الخلفي وانطلق تري بعيداً عن الرصيف، وبينما هم في الطريق مرّت بجانبهم سيارة دورية داخلها اثنان من حرس الجامعة فلّوح بيديه لهما بشكل عفوي لكنهما لم يردّا التحية.

انتبه تري إلى الوقت الذي كان 3:42 بعد منتصف الليل فقال: «الطريق آمن، نحن نغادر الحرم الجامعي الآن مع السيد غاتسبي والأصدقاء».

لقد تسبب انقطاع الكهرباء بإطلاق عدة إنذارات في المباني المتأثرة، وبحلول الساعة الرابعة، شقّ أحد المهندسين الكهربائيين طريقه داخل شبكة الجامعة عبر الكومبيوتر ووجد المشكلة. استعيدت الكهرباء في كل المباني ماعدا المكتبة، فأرسل رئيس مكتب الأمن ثلاثة عناصر إليها، واستغرق الأمر

منهم عشر دقائق لمعرفة سبب المشكلة.

في تلك الأثناء، توقفت العصابة في نزل على الطريق السريع رقم 295 قرب فيلادلفيا، وركن تري الفان بجانب شاحنة كبيرة بعيداً عن مدى رؤية الكاميرا الوحيدة التي تراقب المرأب. أخرج مارك بخاخة طلاء سوداء اللون وغطى كلمات «مطبوعات جامعة برينستون» المرسومة على كلا بابي الفان. وفي الغرفة التي أمضى فيها هو وتري الليلة السابقة، بدّل الرجال ملابسهم بملابس صيد ووضعوا كل ما ارتدوه من أجل تنفيذ العمل – جينزات وأحذية رياضية وقمصان وقفازات سوداء – في حقيبة أخرى. وفي الحمام، لاحظ جيري الجرح الصغير على معصمه الأيسر. لقد أبقى إبهامه عليه خلال الرحلة بالفان وانتبه لوجود دم أكثر من المتوقع. فقام بتنظيفه بمنشفة حمام، وفكّر إن كان عليه إخبار الباقيين بأنه جرح.. أخرج تري بهدوء كل أشياءه من الغرفة وأطفأ الأضواء ثم غادر. ركب مارك وجيري في شاحنة بيك أب – وهي سيارة مُستأجرة يقودها ديني – ثم لحقا بتري والفان إلى خارج المرأب باتجاه الشارع، وعادا إلى الطريق السريع. لقد تجنبوا الطرف الشمالي لضواحي فيلادلفيا وبسلوكهم الطرق السريعة، اختفوا داخل ريف بنسلفانيا. وبالقرب من كويكرتون، وجدوا الطريق الريفي الذي اختاروه وملكوه لمسافة ميل إلى أن أصبح مرصوفاً بالحصى. لم يكن هناك منازل في المنطقة، فركن تري الفان في وادٍ غير عميق وبدّل لوحات السيارة المسروقة، قبل أن يسكب جالوناً من البنزين فوق حقائبهم التي تحتوي العدة والهواتف الخلوية وأجهزة الاتصال اللاسلكي والألبسة وأشعل عود ثقاب. اندلعت أسنة اللهب بسرعة، وفي الوقت الذي رحلوا فيه بسيارة البيك أب، كانوا واثقين من أنهم أتلّفوا كل الأدلة المُحتملة.

كانت المخطوطات مُخبّأة بأمان بين تري ومارك في المقعد الخلفي للبيك أب. وعندما بدأ ضوء النهار يزحف ببطء فوق التلال، جالوا بالسيارة بصمت وكل واحد من الأربعة يراقب كل ما حولهم، وهو قليل جداً. هناك عربة تمرّ بشكل عرضي في الاتجاه الآخر، إنه مزارع يتوجه نحو حظيرته وهو لا ينظر إلى الطريق السريع، وهناك امرأة عجوز تحاول إخراج قطة من الشرفة الأمامية لمنزلها. وبالقرب من مدينة بيت لحم، سلكوا الطريق السريع رقم 78 نحو الغرب. بقي ديني محافظاً حدود السرعة المسموحة ولم يشاهدوا أي سيارة شرطة منذ أن غادروا حرم جامعة برينستون. توقفوا في استراحة القهوة ثم توجهوا شمالاً نحو الطريق السريع رقم 81 الذي يؤدي إلى منطقة سكرانتون.

8

عند الساعة 7:00 صباحاً، وصل أول ثنائي من مكتب التحقيقات الفيدرالي إلى مكتبة فايرستون واطلعا بشكل موجز من أمن الجامعة وشرطة مدينة برينستون على ما حصل. ألقيا نظرة على مسرح الجريمة، وأوصيا ببقاء المكتبة مغلقة لمدة غير محددة. كما هرع المحققون والفنيون من مكتب ترينتون إلى الجامعة.

لدى سماع رئيس الجامعة بخبر فقدان بعض الأشياء الثمينة في الليلة السابقة، عاد إلى منزله في الحرم الجامعي، وأسرع نحو المكتبة حيث التقى برئيس أمناء المكتبة، وثنائي التحقيقات الفيدرالي والشرطة المحلية. اتفقوا معاً على إبقاء الأمر طيّ الكتمان لأطول وقت ممكن. كان رئيس وحدة استعادة الممتلكات النادرة التابعة لمكتب التحقيقات الفيدرالي في واشنطن في طريقه إلى هناك، ورأى أنّ اللصوص ربما سيتصلون بالجامعة لعقد صفقة ما.

فالحديث عن الأمر، لن يكون مفيداً سوى في تعقيد الأمر أكثر.

9

أجل الاحتفال بإنجاز المهمة لحين وصول الصيادين الأربعة إلى الكوخ في عمق منطقة بوكونوس. لقد استأجر ديني كوخاً صغيراً هناك، وسكن فيه منذ شهرين. لم يكن للصوص الأربعة أماكن إقامة ثابتة باستثناء ديني الذي كان يقيم في شقة صغيرة مستأجرة مع صديقه في روشيستر، نيويورك. أما تري الفار من وجه العدالة، فقد عاش معظم سني عمره الراشدة في حالة هروب مستمر، بدوره عاش مارك لفترة قبل طلاقه مع زوجته بالقرب من بالتيمور، لكن لم يكن هناك سجلات تثبت ذلك.

إلا أن القاسم المشترك بينهم كان امتلاكهم للعديد من الأوراق الثبوتية المزورة بينها جوازات سفر قد تخدع أعتى رجال الجمارك.

في الثلاثية، كان هناك ثلاث زجاجات من الشمبانيا الرخيصة. فتح ديني إحداها وسكب أربعة أكواب مختلفة الشكل وقال: «نخبكم يا شباب، وهنيئاً لكم، لقد أنجزنا المهمة!». في غضون نصف ساعة أجهز الرجال على الزجاجات الثلاث قبل أن يأخذوا قيلولة. كانت صناديق المخطوطات مكدسة مثل سبائك الذهب في خزانة السلاح ضمن غرفة تخزين حيث ستبقى بعهدة ديني وتري خلال الأيام القليلة القادمة. ففي الغد، سيغادر جيري ومارك المنزل بعد أن أمضيا – حسبما يفترض – أسبوعاً طويلاً منهكاً وهما يصطادان الغزلان.

10

بينما كان جيري نائماً، تحوّل اهتمام الحكومة الفيدرالية عليه، فقد لاحظت إحدى فنيات مكتب التحقيقات الفيدرالي بقعة صغيرة على الدرجة الأولى

للسلام المؤدية إلى قبو المكتبة، فاعتقدت بشكل صحيح أنها نقطة دم، وأنها لم تكن هناك منذ فترة طويلة فلونها لم يكن قد تحول بعد إلى الأحمر الداكن أو الأسود تقريباً. أزالتها من مكانها، وأخبرت مديرها بذلك، ونُقلت العينة بسرعة إلى أحد مختبرات مكتب التحقيقات الفيدرالي في فيلادلفيا. وفوراً أُجري فحص الذي إن إيه، وأدخلت النتيجة بنك المعلومات الوطني، وفي أقل من ساعة تطابقت العينة مع معلومات شخص من ماساشوستس: إنه جيرالد آ. ستينجاردن، وهو أحد المجرمين المُطلق سراحهم والذي سبق أن أُدين بالحبس لسبع سنوات لسرقة لوحات من تاجر تحف أثرية في بوسطن. عمل فريق من المُحللين بشكل حثيث لإيجاد أي أثر للسيد ستينجاردن. هناك خمسة أشخاص في الولايات المتحدة بالاسم ذاته، استُبعد أربعة منهم على الفور، وتمّ الحصول على مذكرة تفتيش للشقة ولسجلات الهاتف النقال والبطاقات الائتمانية للشخص الخامس. عندما استيقظ جيري من قيلولته الطويلة في بوكونوس، كان مكتب التحقيقات الفيدرالي قد بدأ بمراقبة شقته في روشيستر، واتُخذ القرار، ليس بالذهاب بمذكرة التفتيش إلى الشقة، بل بالمراقبة والانتظار.

ربما، قد يقودهم السيد ستينجاردن إلى الآخرين.

بالعودة إلى برينستون، حُدّدت قوائم بأسماء جميع الطلاب الذين استخدموا المكتبة في الأسبوع الماضي. فبطاقات هوياتهم سجّلت كل زيارة لأي من المكتبات في الحرم الجامعي، واستُبعدت الهويات المزيفة لأنّ القاصرين في الكلية يستخدمونها من أجل شراء الكحول وليس للتسلل إلى داخل المكتبة. حُدّدت أوقات استخدامهم لها بالضبط وقورنت بفيديوهات كاميرات نظام المراقبة الأمني في المكتبة. وبحلول الظهر أصبح لدى مكتب التحقيقات الفيدرالي صور واضحة عن ديني وجيري ومارك رغم أنها ستكون قليلة

الأهمية في الوقت الحالي. فقد كانوا متكررين بشكل جيد.

أصبح إد فولك العجوز في قسم الكتب النادرة والمجموعات الخاصة على أهبة الاستعداد للمرة الأولى خلال عقود، فكونه محاطاً بعملاء مكتب التحقيقات الفيدرالي، أسرع في البحث ضمن سجلات الدخول والصور الأمنية لزواره السابقين. استدعي الجميع للتحقيق، وعندما تم التحقيق مع الأستاذ المساعد نيفيل مانشين في جامعة بورتلاند ستيت من قبل مكتب التحقيقات الفيدرالي، أكد أنه لم يذهب أبداً إلى أي مكان قريب من حرم جامعة برينستون. بحلول هذا الوقت أصبح لدى مكتب التحقيقات صورة واضحة لمارك رغم أنهم لم يعرفوا اسمه الحقيقي.

بعد أقل من اثنتي عشرة ساعة من إتمام السرقة بنجاح، توزّع أكثر من أربعين عميلاً لمكتب التحقيقات الفيدرالي للبحث في الفيديوهات وتحليل المعطيات.

11

اجتمع الصيادون الأربعة في وقت متأخر من فترة بعد الظهر حول طاولة ورق لعب، وفتحوا زجاجات الجعة. تحدث ديني في الموضوع الذي تناقشوا فيه عشرات المرات، كانت عملية ناجحة، لكن في أي جريمة هناك دلائل تُترك في الخلف. الأخطاء تحدث دائماً، وإذا أمكنك تلافياً نصفها، فأنت عبقرى. ستكتشف الهويات المزيفة قريباً، وستعرف الشرطة أنهم زاروا المكتبة لعدة أيام قبل حصول السرقة. من الذي يعرف كمية أشرطة الفيديو اللعينة الموجودة؟ يمكن أن يكون هناك خيوط من ملابسهم وآثار لأحذيتهم الرياضية وما شابه ذلك. كانوا واثقين من عدم ترك بصمات وراءهم، لكن ذلك الاحتمال موجود دائماً. فالأربعة هم لصوص متمرسون ويعرفون كل هذه الأمور.

لم ينتبهوا للضمادة الصغيرة الموجودة على معصم جيرى الأيسر، وهو قرّر تجاهلها أيضاً. فقد أقنع نفسه أنها ليست بذات أهمية.

وضع مارك على الطاولة أربعة أجهزة مشابهة للهاتف المحمول آبل 5 مع شعار الشركة، لكنها لم تكن هواتف، بل سات – تراكس، وهي أجهزة تواصل مربوطة بنظام القمر الصناعي ذي التغطية الفورية في أي مكان في العالم. لم يكن فيها خطوط هاتفية نقالة، وليس هناك من وسيلة كي تتمكن الشرطة من تعقبها أو التنصّت عليها. شرح مارك مرة أخرى، أنه من الضروري أن يبقوا جميعاً خلال الأسابيع القليلة القادمة على اتصال دائم. لقد حصل أحمد على هذه الأجهزة من أحد مصادره المتعددة، ولم يكن هناك زر تشغيل وإطفاء، لكن بدلاً من ذلك، هناك رمز من ثلاثة أرقام لتشغيل أجهزة سات – تراكس. ما إن يتم تشغيل الجهاز، يقوم كل مُستخدم بإدخال رقمه السري المؤلف من خمسة أرقام ليتمكن من الولوج مرتين في اليوم، عند الساعة الثامنة صباحاً وعند الساعة الثامنة مساءً بالضبط، وسيصل الجميع عبر الأجهزة برسالة بسيطة هي «آمن». التأخير غير مسموح به وربما يكون كارثياً، فقد يعني ذلك أن سات – تراكس، ومُستخدمه على الأخص قد كُشف بطريقة ما. والتأخير لمدة خمس عشرة دقيقة يعني تفعيل الخطة ب، وهذا يستدعي من ديني وتري أخذ المخطوطات ونقلها إلى منزل آمن ثانٍ. وفي حال فشل أي من ديني أو تري بالاتصال، فيجب التخلي عن العملية بأكملها أو ما تبقى منها. ويجب على جيرى ومارك وأحمد مغادرة البلاد على الفور.

تُنقل الأخبار السيئة عبر رسالة بسيطة وهي كلمة «أحمر». «أحمر» تعني، دون أسئلة وبلا وقت للتأخير، أنّ (1) حدث شيء ما، و(2) تُنقل المخطوطات إلى منزل آمن ثالث إن كان ذلك ممكناً و(3) مغادرة البلاد بأي

طريقة وبأسرع ما يمكن.

في حال اعتقلت الشرطة أي واحد، فيتوقع منه عدم الإدلاء بأي معلومات، فقد حفظ كل من الخمسة أسماء أفراد عائلات بعضهم وأماكن إقامتهم. وبهذا يعرف الجميع أن من يتكلم سيكون الثأر من أحبته مضموناً.

بقدر ما أذرت هذه التحضيرات بالشؤم إلا أنّ الشعور العام بقي مُنتشياً لا بل أكثر كان احتفالياً. لقد نفذوا عملية السرقة ببراعة ونجحوا بالفرار بشكل رائع.

استمتع تري صاحب الهروب المتكرر برواية قصصه. كان ناجحاً لأنّ لديه خطة بعد كل هروب، بينما معظم الأشخاص يقضون أوقاتهم بالتفكير بالهروب فقط. ينطبق الشيء نفسه على الجريمة، فأنت تقضي أياماً وأسابيع تخطط وتفكر، وعندما ينتهي الأمر لا تكون واثقاً مما يجب فعله لاحقاً. كانوا بحاجة إلى خطة.

لكنهم لم يستطيعوا الاتفاق على خطة. فديني ومارك يحبذان ضربة سريعة تتمثل بالاتصال بجامعة برينستون خلال أسبوع وطلب فدية. وبذلك يتمكنون من التخلص من المخطوطات، ولا يقلقون بشأن نقلها أو حمايتها، ويحصلون على أموالهم.

أما جيري وتري الأكثر خبرة، فيحبذان مقاربة أكثر صبراً. فمن الأفضل ترك الأمور تهدأ، وانتشار الخبر، فلا يجدر بهم التحرك قبل انقضاء بعض الوقت وتأكدهم أنهم خارج دائرة الشبهات. فجامعة برينستون ليست الشاري الوحيد المحتمل، فمن المؤكد أنه سيكون هناك آخرون يرغبون بالشراء.

طال النقاش وغلب عليه التوتر. لكن، بالرغم من ذلك فقد ظل الجو العام

مرحاً في ظل كثير من النكات والضحك وزجاجات الجعة. أخيراً، اتفقوا على خطة مؤقتة، ففي صباح الغد سيغادر جيرى ومارك: جيرى إلى روشيستر ومارك إلى بالتيمور. وسيبقيان متوارين عن الأنظار ويراقبان الأخبار طوال الأسبوع القادم وبالطبع سيتصلان بالفريق مرتين في اليوم. وسيهتم ديني وتري بالمخطوطات وسينقلانها خلال أسبوع أو نحوه إلى المنزل الآمن الثاني، وهو شقة في القسم القدر من ألينتاون، بنسلفانيا. وخلال عشرة أيام سيجتمعان مع جيرى ومارك في المنزل الآمن ويتباحثون بشأن الخطة النهائية. في الوقت الحالي، سيتصل مارك بوسيط مُحتمل يعرفه منذ سنوات طويلة، وهو أحد الأطراف الفاعلين في العالم المشبوه للأعمال والتحف الفنية المسروقة، وخلال الحديث معه سيلمح له أنه يعرف شيئاً بخصوص مخطوطات فيتزجيرالد. لكنه لن يكشف أي شيء آخر إلى أن يجتمعوا مرة أخرى.

12

غادرت كارول، المرأة التي تعيش في شقة جيرى عند الساعة 4:30 لوحدها ولوحقت إلى إحدى البقاليات على بعد عدة أحياء. لقد كان القرار متخذاً بعدم اقتحام الشقة على الأقل في الوقت الحالي، فهناك كثير من الجيران في الجوار، وأي كلمة من أي واحد منهم، يمكنها فضح أمر المراقبة. لم تكن كارول تعلم كم كانت مُراقبة عن قرب. بينما كانت تتسوّق، وضع العملاء جهازي تعقب داخل صدامي سيارتها. وقام عميلان آخران – وهما فتاتان ترتديان زياً رياضياً – بمراقبة ما اشترته (لا شيء مهم). وعندما أرسلت رسالة نصية لأمها، قرئت الرسالة وسُجّلت. وعندما اتصلت بصديقها، استمع العملاء لكل كلمة، وعندما توقفت في إحدى الحانات، عرض عليها أحد العملاء تقديم مشروب لها، وعندما عادت إلى منزلها بعد الساعة التاسعة بقليل، كانت

كل حركاتها وسكناتها مراقبة ومُصَوِّرة ومُسجَّلة.

13

في هذه الأثناء، كان حبيبها يرتشف الجعة ويقراً رواية غاتسبي العظيم وهو جالس على أرجوحة شبكية في الشرفة الخلفية، والبحيرة الرائعة على بعد عدة أقدام منه، أما مارك وتري فكانا في قارب يصطادان بهدوء سمك البريم بينما ديني يهتم بشرائح اللحم على الشواية. هبت عند المغيب رياح باردة فاجتمع الصيادون الأربعة في الكوخ حول النار. وعند الساعة الثامنة مساءً بالضبط، أخرجوا أجهزة سات – تراكس الجديدة وأدخلوا رموزهم السرية وكتب الجميع كلمة «آمن» ومن ضمنهم أحمد في بوفالو، لقد كانت الحياة آمنة.

الحياة الآمنة، هذا ما كانت تظهره قمة جبل الجليد. فقبل أقل من أربع وعشرين ساعة، كانوا في الحرم الجامعي مُختبئين في الظلام وهم في أعلى درجات التوتر، لكنهم يحبون متعة المطاردة أيضاً. لقد نجحت خطتهم بشكل منقطع النظير، وهم يمتلكون المخطوطات النفيسة وقريباً سيحصلون على النقود. لن يكون هذا التحول سهلاً، لكنهم سيتعاملون معه لاحقاً.

14

الشراب عامل مساعد، لكنّ النوم كان صعباً بالنسبة إليهم. في وقت مبكر من الصباح التالي، بينما كان ديني يحضّر البيض مع اللحم المقدد ويشرب القهوة، جلس مارك إلى الطاولة وبحوزته كمبيوتر محمول يتفحص عناوين الأخبار في طول الساحل الشرقي. قال: «ما من شيء مهم، كُتب الكثير عما حصل في الحرم الجامعي، والجميع يتحدثون عن خدعة، لكن أياً من الصحف لم تذكر شيئاً عن المخطوطات».

قال ديني: «أنا على ثقة أنهم يحاولون إبقاء الأمر طي الكتمان». «نعم، لكن إلى متى؟». «ليس لوقت طويل أبداً. فلا يمكنك إبقاء الصحافة بعيدة عن قصة مثل هذه. سيتسرب الخبر اليوم أو غداً». «لا يمكنك تحديد إن كان هذا جيداً أو سيئاً». «لا هذا ولا ذلك». دخل تري المطبخ بعد أن أنهى للتو حلقة رأسه، ففركه بفخر وقال: «ما رأيكم؟». أجاب مارك: «رائع». قال ديني: «كل شيء يساعد». لا أحد من الأربعة بدا مثل ما كان عليه قبل أربع وعشرين ساعة. فقد حلق تري ومارك كل شيء؛ اللحية والشعر والحاجبين. أما ديني وجيري فقد اكتفيا بحلاقة لحيتيهما وغيرا لون شعرهما. فقد تحوّل شعر ديني من اللون الأشقر إلى البني الداكن وشعر جيري إلى اللون الأحمر الفاتح. سيعتمر الجميع قبعات ويضعون نظارات وسيغيرونها يومياً، فهم يعلمون بأن صورهم موجودة في الفيديو وكذلك يعلمون بتقنية التعرف إلى الوجوه الموجودة لدى مكتب التحقيقات الفيدرالي وقدراتها. من المؤكد أنهم ارتكبوا أخطاء ولكنهم لا يستطيعون معرفتها، لذلك آن الأوان للمضي قدماً في المرحلة التالية، وهم مزهوون بجريمتهم التي تبدو لهم أنها كاملة. فقد التقوا للمرة الأولى قبل سنة عندما تعرف الأكثر خبرة بينهم – جيري وتري – إلى ديني الذي كان على معرفة بمارك والذي بدوره يعرف أحمد. أمضوا ساعات وهم يخططون ويتشاورون ويتناقشون حول من سيفعل ماذا، ومتى كان الوقت الأفضل، وأين سيذهبون بعد تنفيذ العملية. لقد ناقشوا مئات من التفاصيل الكبيرة والصغيرة المهمة. ولكن الآن وبعدها نفذت أصبح كل ذلك من الماضي. لم يعد ينقصهم سوى الحصول على المال والافتراق ريثما تجمعهم عملية أخرى، هذا إن جمعهم.

عند الساعة الثامنة من صباح يوم الخميس، راقبوا بعضهم وهم يقومون

بطقس الاتصال عبر الأقمار الصناعية. كان أحمد بخير وجميعهم موجودون. ألقى جيري ومارك تحية الوداع، ثم ركبا السيارة وغادرا بعيداً عن بوكونوس، وبعد مضي أربع ساعات كانا عند مشارف روشيستر. لم يكن بوسعهما أن يعلما عدد رجال مكتب التحقيقات الفدرالي الذين ينتظرون ويترقبون بفارغ الصبر وصول سيارة تويوتا بيك أب موديل 2010 والمُستأجرة منذ ثلاثة أشهر. عندما ركن جيري التويوتا بيك أب قرب شقته، ركزت الكاميرات الخفية عليه وعلى مارك عن قرب وهما يمشيان بلا مبالاة في المرأب ويصعدان السلالم إلى الطابق الثالث. لقد بُثت الصور الرقمية على الفور إلى مختبر مكتب التحقيقات الفيدرالي في ترينتون. وفي الوقت الذي كان فيه جيري يُقبَل كارول كانت الصورة تُقارن مع الصور الثابتة المأخوذة من فيديوهات نظام مراقبة مكتبة برينستون. لقد استطاعت تقنية تصوير مكتب التحقيقات الفيدرالي النيل من جيري، أو السيد جيرالد أ. ستينجاردن، كما تحققت من هوية مارك بصفته منتحل اسم الأستاذ المساعد نيفيل مانشين. وبما أن لا سجل إجرامي لمارك، فليس هناك من معلومات عنه في شبكة الجرائم الوطنية. لقد علم مكتب التحقيقات الفيدرالي أنه كان موجوداً في المكتبة، لكنهم لم يعرفوا اسمه. وهذا لن يأخذ وقتاً طويلاً. كان القرار الانتظار والمراقبة، فقد قادهم جيري إلى مارك وربما يقودهم إلى شخص آخر. بعد الغداء، غادر الاثنان الشقة وعادا إلى سيارة التويوتا. كان مارك يحمل حقيبة رياضية حمراء داكنة أما جيري فكان خالي الوفاض. توجهوا إلى الأسفل وتحرك جيري بالسيارة على مهل حريصاً على التقيد بقوانين السير والابتعاد قدر الإمكان عن أي احتكاك غير ضروري بأي شرطي.

راقبا كل شيء، كل سيارة وكل وجه وكل رجل عجوز يجلس على كرسي حديقة ويختبئ خلف جريدة. كانا على ثقة أنّ أحداً لا يتبعهما لكن في مجال عملهما لا مجال لراحة البال. لم يكن بإمكانهما رؤية أو سماع المروحية التي تحوم في البعيد وهي تتتبعهما على بعد ارتفاع ثلاثة آلاف قدم في الجو فوق محطة أمتراك. ترجل مارك من السيارة، ولم ينبس ببنت شفة، ثم أخذ حقيبته من الخلف، وأسرع الخطى على الرصيف نحو المدخل. وهناك اشترى بطاقة درجة سياحية لقطار الساعة 2:13 المتجه إلى محطة بن في مانهاتن. وبينما هو في الانتظار، قرأ نسخة ورقية قديمة لرواية آخر الأثرياء المُتنفذين. لم يكن من هواة القراءة لكنه فجأة أصبح مهووساً بفيتزجيرالد. كتم ضحكة عندما فُكر بالمخطوطة المكتوبة بخط اليد وأين هي الآن. توقف جيرى عند متجر مشروبات كحولية واشترى زجاجة فودكا، وعندما غادر المتجر توجه إليه ثلاثة شبان ضخام يرتدون بذلات سود وحيّوه وأظهروا شاراتهم ثم قالوا إنهم يودون التحدث إليه. شكرهم جيرى وقال إنّ لديه عملاً لينجزه. عندها أخرج أحدهم قيلاً وأخذ آخر زجاجة الفودكا، وقام الثالث بتفتيش جيوبه، وأخرج محفظته، ومفاتيحه وجهاز سات – تراكس. اصطحب جيرى إلى سيارة شيفرولية رباعية الدفع سوداء واقتيد إلى سجن المدينة على بعد أربعة أحياء. وخلال الرحلة القصيرة لم يتفوه أحد بكلمة. وُضع في زنزانه انفرادية وأيضاً لم يتفوه أحد بكلمة، فهو لم يسأل وهم لم يقولوا شيئاً. عندما توقف السجناء لإلقاء التحية قال جيرى: «قل لي يا رجل، هل لديك فكرة عما يحدث هنا؟». نظر السجناء في أرجاء القاعة ثم اقترب من القضبان وقال: «لست أدري يا صديقي، لكن لا بدّ وأنك أثرت غضب الفتية الكبار». بينما استلقى جيرى على السرير في الزنزانة المعتمدة، حدّق إلى السقف القذر وتساءل كيف قبض عليه؟

ما الخطأ الذي حصل. في هذه الأثناء، فتحت كارول باب المنزل الرئيسي فحياها رهط من رجال مكتب التحقيقات الفيدرالي. أبرز أحدهم مذكرة تفتيش، وطلب منها آخر أن تغادر الشقة وتذهب للجلوس في سيارتها دون أن تشغل المحرك.

عند الساعة 2:00 استقل مارك القطار وجلس في مقعده. وعند الساعة 2:13 أُغلقت الأبواب لكن القطار لم يتحرك. وعند الساعة 2:30، فُتحت الأبواب ودخل رجلان يرتديان معطفين أزرق اللون ونظرا إليه بصرامة. في تلك اللحظة أدرك مارك أنّ الأمور تنهار. قاما بالتعريف عن نفسيهما بهدوء، وطلبا منه مرافقتهما إلى خارج القطار. قاده أحدهما من مرفقه بينما جلب الآخر الحقيبة الموجودة على الرف العلوي. لم ينبس أي من الرجلين بكلمة أثناء الرحلة إلى السجن. ولشعوره بالملل من الصمت، سأل مارك: «هل أنا رهن الاعتقال يا صديقي؟». ومن دون الالتفات إليه قال السائق: «نحن عادةً لا نعيد المدنيين بشكل عشوائي». «حسناً، وما سبب اعتقالني؟». «سيشرحون لك في السجن». «أظن أنه يجب عليكما يا صديقي تسمية التهم عندما تقرأ أن حقوقي علي». «أنت لست مجرماً في الحقيقة، أليس كذلك؟ ولا يتوجب علينا قراءة حقوقك قبل أن نبدأ بطرح الأسئلة. أما الآن فدعنا نمضي بهدوء وسلام». هداً مارك، وبدأ بمراقبة حركة المرور. لقد افترض أنه قبض على جيرري وإلا لم أمكنهم التعرف إليه، وربما أدلى بما لديه في محاولة منه لعقد صفقة، ولكنه سرعان ما أبعدهم هذه الفكرة عن رأسه. فقد كان واثقاً أن جيرري لن يتفوه بكلمة. عند الساعة 5:15، أُخرج جيرري من السجن، وأُخذ إلى مكتب الألف بي آي الموجود على بعد عدة أحياء. اقتيد إلى إحدى غرف التحقيق، وأجلس إلى طاولة، ثم نُزع قيده، وقُدّم له كوب قهوة. دخل عميل اسمه مكريجور، فخلع سترته وجلس ثم بدأ الحديث. كان من النوع الودود وفي نهاية المطاف قرأ

حقوقه عليه. سأل مكريجور: «هل فُبض عليك من قبل؟». وبما أن لدى جيرى خبرة بمثل هذه الأمور كان متيقناً أن مكريجور لديه نسخة عن سجله الجنائي ويعلم مسبقاً ويعرف ما يسأل عنه فأجابه: «نعم». «كم مرة؟».

«انظر أيها السيد العميل، لقد أخبرتني للتو أنه لي الحق بالبقاء صامتاً. لن أقول أي كلمة وأنا أريد محامياً في الحال. أتفهم ذلك؟».

قال مكريجور: «بالتأكيد»، ثم غادر الغرفة.

كان مارك موجوداً في غرفة أخرى في الجوار، فدخل مكريجور، وكرر ما فعله مع جيرى. ارتشفا القهوة لبعض الوقت، ثم تحدثا عن حقوق المتهم. وبالاستناد إلى مذكرة التفتيش فُتشت حقيبتة، وعُثرا فيها على أشياء مثيرة للاهتمام. فتح مكريجور مغلفاً كبيراً، وأخرج بعض البطاقات البلاستيكية، وبدأ بترتيبها على الطاولة، ثم قال: «حصلت على هذه الأشياء من محفظتك يا سيد مارك دريسكول. رخصة قيادة من ميريلاند، صورة شخصية سيئة لكن مع كثير من الشعر وحتى الحاجبين، وبطاقتي ائتمان صالحتين، ورخصة صيد مؤقتة صادرة عن بنسلفانيا». ثم عرض بطاقات أخرى وقال: «لقد حصلنا على هذه الأشياء من حقيبتك. رخصة قيادة مزورة صادرة من كنتاكي باسم أرنولد سوير، الذي يمتلك كثيراً من الشعر. وبطاقة ائتمانية مزورة». ثم عرض ببطء مزيداً من البطاقات: «رخصة قيادة مزورة من فلوريدا، حيث بدا بالصورة واضحاً نظارة ومطلقاً لحيته، السيد لوثر باناهان، وجواز السفر هذا ذو الجودة العالية الصادر في هيوستن ل- كلايد د. مازي، بالإضافة إلى رخصة قيادة وثلاث بطاقات ائتمان مزورة».

كانت الطاولة مغطاة بالبطاقات. أراد مارك أن يتقيأ، لكنه أمسك بفكيه

بإحكام محاولاً كبح نفسه. ماذا إذا؟

قال مكريجور: «هذا في غاية الروعة. لقد تحققنا من كل هذا، ونحن نعرف أنك السيد دريسكول حقاً، كما أنّ العنوان غير مؤكد لأنك تنتقل دائماً».

«هل هذا سؤال؟».

«كلا، لم أبدأ بطرح الأسئلة بعد».

«هذا جيد، لأنني لن أقول شيئاً. لديّ حق بالحصول على محامٍ، لذا من الأفضل أن تجد لي واحداً».

«حسناً. من الغريب أنه في كل هذه الصور لديك شعر، وحتى بعض السوالف، والحاجبان موجودان دائماً. الآن اختفى كل شيء. هل تخبئ من شيء ما يا مارك؟».

«أريد محامياً».

«بالتأكيد. لنقل يا مارك أننا لم نجد أي أوراق للأستاذ المساعد نيفيل مانشين، من جامعة بورتلاند ستيت. هل يقرع هذا الاسم جرساً في ذاكرتك؟».

جرس؟! من قال إن مثل هذا الاسم يقرع جرساً فقط؟ لقد بدا وقع الاسم عليه وكأن مطرقة ثقيلة سقطت على رأسه.

من خلال زجاج يتيح الرؤية من جهة واحدة وكاميرا شديدة الدقة موجهة نحو مارك، راقب خبيراً استجواب بؤبؤي عيني مارك، وشفته العليا وعضلات فكه ووضعية الرأس، كلاهما كان مُدرباً على قراءة ردات فعل الشهود والمتهمين ومعرف الصادق والكاذب بينهم، لقد صدم ذكر اسم نيفيل مانشين المشتبه به. عندما أجاب مارك بتردد «لن أتكلم، وأنا أريد محامياً»، أوماً كلا

الخبيرين برأسهما وابتسما. لقد أوقعنا به.

غادر مكريجور الغرفة، وتحادث مع زملائه ثم دخل غرفة جيري. جلس وابتسم، وانتظر لوقت طويل قبل أن يقول: «حسناً، يا جيري، لا تزال غير راغب في التحدّث؟».

«أريد محامياً».

«بالتأكيد. نحن نحاول إيجاد واحد لك. أنت لست كثير الكلام، أليس كذلك؟».

«أريد محامياً».

«صديقك مارك أكثر تعاوناً منك بكثير».

ازدرد جيري لعابه بصعوبة. فقد أمل أن يتمكن مارك من مغادرة المدينة من محطة أمتراك. لكن يبدو أنه لم يغادر، ما الذي حصل بحق الجحيم؟ كيف قبض عليهما بهذه السرعة؟ ففي مثل هذا الوقت البارحة كانوا يلعبون الورق ويحتسون الجعة ويتباهون بجريمتهم الكاملة.

أشار مكريجور إلى يد جيري اليسرى وسأله: «لديك ضمادة هنا. هل جرحت نفسك؟».

«أريد محامياً».

«هل تحتاج طبيباً؟».

«أحتاج محامياً».

«حسناً، حسناً. سأذهب لأجد لك محامياً».

غادر الغرفة وأغلق الباب خلفه بقوة. نظر جيري إلى معصمه. وفكّر مستبعداً الفكرة التي خطرت بباله.

خيمت الظلال على البحيرة، فسحب ديني صنابير الصيد وجذف باتجاه الكوخ. وبينما اخترقت برودة المياه سترته الخفيفة، أخذ يفكر بتري وكيف أنه لا يثق به. كان تري بعمر الواحد والأربعين وقد قبض عليه مرتين مع بضاعته المسروقة، وسجن لسنوات عدة في المرة الأولى قبل هربه، وأمضى في المرة الثانية سنتين خلف القضبان قبل أن يتمكن من الفرار. ما كان مقلقاً بشأن تري هو أنه انقلب ووشى بزملائه من أجل الحصول على حكم أخف. وبالنسبة إلى المحترفين كان مثل هذا الأمر خطيئة لا تغتفر.

لم يشك ديني للحظة أن تري هو الحلقة الأضعف بينهم. وبما أنه عنصر سابق في القوات الخاصة، شارك ديني في حروب ومعارك عديدة ونجا. لقد خسر أصدقاء وقتل كثيرين، لذلك فهو يدرك معنى الخوف، ولكن أكثر ما يكرهه هو الضعف.

عند الساعة الثامنة من مساء الخميس، كان ديني وتري يشربان الجعة ويلعبان الورق. توقفا عن اللعب وأخرجا أجهزتهما الفضائية وأدخلا أرقامهما وانتظرا. خلال ثوانٍ، أرسل أحمد كلمة «آمن» من بوفالو. لم يأت شيء من مارك أو جيرري. من المفترض أن يكون مارك على متن قطار في رحلة لمدة ست ساعات من روشيستر إلى محطة بن. ومن المفترض أن يكون جيرري في شقته.

مرّت الدقائق الخمسة التالية ببطء شديد، وربما بسرعة فائقة. لم تكن الأمور واضحة. كانت الأجهزة تعمل، أليس كذلك؟ فهي بجودة الأجهزة التي تستخدمها الاستخبارات الأمريكية، وقد كلف الحصول عليها مبلغاً كبيراً. وأن

يكون الاثنان صامتين في الوقت نفسه فهذا يعني... حسناً، ماذا يعني هذا؟ عند الساعة 8:06، وقف ديني وقال: «دعنا نقوم بالخطوات الأولى. نوضب حقائبنا بالأساسيات الضرورية وبسرعة، مفهوم؟».

أجاب تري الذي بدا قلقاً بجلاء: «مفهوم». أسرعاً إلى غرفتيهما وبدأا برمي الملابس داخل الحقائب القماشية. وبعد دقائق عدة قال ديني: «إنها الساعة الثامنة وإحدى عشرة دقيقة. عند الثامنة وعشرين دقيقة يجب أن نكون قد غادرنا. اتفقتنا؟».

أجاب تري: «اتفقتنا»، بينما توقف لينظر إلى جهازه الفضائي. لا شيء. عند الساعة 8:20، فتح ديني باب المخزن ثم فتح الخزانة. حشياً المخطوطات الخمس داخل حقائب قماشية ذات لون أخضر عسكري مليئة بالملابس وحملها إلى داخل شاحنة ديني. عادا مجدداً وأطفأ الأنوار، وبتوتر تفحصا المكان للمرة الأخيرة.

سأل تري: «هل يتوجب علينا حرقه؟».

انتفض ديني منزعجاً من غبائه وقال: «بالتأكيد لا، فهذا سيجذب الانتباه، وهكذا يثبتون أننا كنا هنا. ولكن إن مضينا بهدوء سنكون قد ابتعدنا والمخطوطات كثيراً قبل أن ينتبه أي كان أننا كنا هنا».

أغلقا البابين، وبينما كانا يخرجان من الشرفة تردد ديني لبرهة وبذلك تقدمه تري بخطوة. عندئذٍ انقض بكلتا يديه وضغط على عنقه، وسبابتيه على شرايينه السباتية. لم يكن تري – الأكبر سناً، والأضعف بنيةً، والذي أخذ على حين غرة – نداءً لقبضة الموت التي طبقها عنصر القوات الخاصة السابق حول عنقه. تلوّى لثوانٍ، ثم ارتخى. رماه ديني أرضاً وفك حزامه.

توقف لتناول القهوة وتعبئة البنزين قرب سكرانتون قبل أن يتوجه غرباً على الطريق السريع رقم 80. كانت حدود السرعة سبعين ميلاً في الساعة ومُثبتت السرعة لديه على ثمانية وستين. لقد تناول عدة زجاجات جعة في المساء لكن كل شيء كان واضحاً الآن. وضع جهاز سات – تراكس بالقرب منه وأخذ يلقي نظرة إليه كلما قطع ميلاً أو أكثر. أدرك الآن أنّ الشاشة ستظل قائمة، وأنّ أحداً لن يتصل. افترض أنه قبض على مارك وجيري معاً وأنّ جهازيهما قد أخذتا منهما من قبل أشخاص أذكياء جداً. أما تري فكان إلى جانب جهازه أسفل البحيرة وكلاهما مغموران بالمياه وسيتحلان ببطء.

إذا استطاع ديني النجاة بحياته خلال الأربع والعشرين ساعة القادمة والخروج من البلاد ستكون الثروة له، وله وحده.

ركن سيارته قرب الباب الأمامي لمحل فطائر يفتح على مدار الساعة، وجلس إلى طاولة وسيارته تحت أنظاره. طلب قهوة، وفتح كمبيوتره المحمول، ثم سأل عن شبكة الواي فاي، فاستجابت النادلة لطلبه وأعطته كلمة المرور. قرّر الجلوس لبرهة من الوقت، وطلب بعض الفطائر واللحم المقدد. أخذ يبحث عن رحلات الطيران المغادرة من بيتسبورغ ثم حجز بطاقة إلى شيكاغو ومنها إلى مكسيكو سيتي دون توقف. كما بحث عن وحدات تخزين ذات إمكانية للتحكم بالحرارة وحدد قائمة بها. تناول طعامه ببطء، وطلب مزيداً من القهوة، وأمضى وقتاً أكثر مما خطط لتمضيته. دخل موقع جريدة نيويورك تايمز، ودُهِش من المقالة التي نشرها أحدهم قبل أربع ساعات، كانت بعنوان، «جامعة برينستون تؤكد سرقة مخطوطات فيتزجيرالد».

بعد يوم، من التكتّم، وإنكار مريب لما حدث. أخيراً، أصدر مسؤولون في

الجامعة بياناً يؤكد الشائعات. فيوم الثلاثاء الماضي، اقتحم لصوص مكتبة فايرستون بينما كان حرم الجامعة يستجيب لاتصالات على الرقم 911 تُبلغ عن رجل مسلح نشط. من الواضح، أنها كانت عملية تمويه وقد أدت عرضها. لن تُفصح الجامعة عن عدد المخطوطات المسروقة لفيتزجيرالد واكتفت بالقول إن عددها ليس بالقليل، يقوم مكتب التحقيقات الفيدرالي بالتحقيق في الأمر والمعلومات شحيحة.

لم يكن هناك ذكر لمارك وجيري. بدا ديني قلقاً بشكل فجائي وأراد الانطلاق بسيارته. فدفع فاتورته وما إن غادر محل الفطائر حتى رمى جهاز اتصاله في إحدى سلال المهملات بجانب الباب الأمامي. لقد قطع كل صلة له برفاق الأمس، فقد كان لوحده وهو حر ومُتحمّس جراء تحوّل مجرى الأحداث، لكنه الآن قلق أيضاً لأنّ الأخبار عاجلة والخروج من البلاد أصبح أمراً حتمياً. لم يكن هذا ما خطط له، لكن ما من أمر يجري تماماً وفقاً لما خطط له، والناجون يجب عليهم التكيف على الفور.

بالنسبة إلى ديني، لقد اعتبر تيري مشكلة وعبئاً ومصدراً للإزعاج، لكنه الآن تحرر منه ولم يبقَ منه إلا ذكراه، ومع الهزيع الأخير لليل، واقترابه من بيتسبورغ، أغلق الباب على ذكراه، فقد كان التخلص منه جريمة أخرى كاملة.

عند الساعة 9:00 صباحاً، وصل إلى مكتب إيست ميلز للتخزين الآمن في ضاحية أوكمونت، بيتسبورغ. فشرح للموظف أنه يريد تخزين بعض النبيذ الفاخر لبضعة أشهر، وأنه يبحث عن مكان صغير حيث الحرارة والرطوبة مراقبة ومُتحمّك بها، فأرشدته الموظف إلى وحدة تخزين في الطابق الأرضي. كان البدل الشهري 250 دولار لفترة أقلها سنة. لم يوافق ديني لأنه لا يريد حجز المكان لهذه المدة. فاتفقا على مبلغ 300 دولار شهرياً لمدة ستة أشهر.

أبرز له رخصة سير صادرة من نيوجيرسي ووقع العقد باسم بول رافيرتي ودفع نقداً. أخذ مفتاح وحدة التخزين وفتحها، ثم ثبت الحرارة على درجة خمسة وخمسين فهرنهايت والرطوبة على 40 بالمئة ثم أطفأ الضوء. خرج من الرواق وانتبه لكاميرات المراقبة، ثم غادر من دون أن يراه الموظف.

عند الساعة 10:00 صباحاً، فُتح متجر النبيذ، وكان ديني أول زبون لذلك اليوم، فدفع نقداً ثمن أربعة صناديق شاردونيه رخيصة، وأقنع الموظف بإعطائه صندوقي كرتون فارغين ثم غادر المتجر. جال في السيارة لمدة نصف ساعة باحثاً عن مكان للاختباء بعيداً عن حركة المرور وكاميرات المراقبة، فأدخل سيارته إلى مغسل سيارات، وركنها قرب الفراشي الكهربائية. إنَّ روايتي هذا الجانب من الجنة والجميلة والملعون يمكن وضعهما بشكل مناسب في أحد صناديق النبيذ الفارغة. ويمكن وضع روايتي لطيف هو الليل وآخر الأثرياء المُتنفذين في الصندوق الآخر. أما رواية غاتسبي فلها صندوق خاص بها ما إن يُفقع زجاجات النبيذ الاثنتي عشرة التي اشتراها ويضعها في المقعد الخلفي.

بحلول الساعة الحادية عشرة، أدخل ديني الصناديق وحدة التخزين التابعة لشركة إيست ميلز. وما إن غادر صادف الموظف وقال إنه سيعود غداً بالمزيد من النبيذ. حسناً، أياً يكن الأمر، لم يهتم الموظف على الإطلاق. عندما ابتعد عن المكان مرّ بصفوف كثيرة من وحدات التخزين وتساءل ما هي البضائع المسروقة التي يمكن أن تكون مخفية وراء تلك الأبواب. ربما هناك الكثير، لكن ليس هناك من شيء نفيس مثل الذي لديه.

دخل وسط مدينة بيتسبورغ، وركن سيارته أمام صيدلية. أنزل نوافذ سيارته، وترك المفتاح في مكانه وكذلك زجاجات النبيذ الرخيص الاثنتي عشرة

في الخلف، ثم أمسك حقيبته وخرج. كانت الظهيرة تقريباً والسماء صافية في يوم خريفي فشعر بالأمان بشكل نسبي. وجد هاتفاً عمومياً واتصل بسيارة أجرة، وانتظر بجانب أحد المقاهي. وبعد خمس وأربعين دقيقة أوصلته السيارة أمام رصيف الرحلات المغادرة في مطار بيتسبورغ الدولي. حمل بطاقته ومرّ بسهولة عبر الأمن دون أي عقبات، ثم دخل مقهى قريب من المخرج المؤدي إلى طائرته. ومن كشك بيع الصحف، اشترى صحيفتي نيويورك تايمز وواشنطن بوست. في الصفحة الأولى لجريدة واشنطن بوست، وجد عنواناً أذهله، «القبض على اثنين من سارقي مكتبة برينستون». لم يكن هناك أي صور أو أسماء وكان واضحاً أنّ جامعة برينستون ومكتب التحقيقات الفيدرالي يحاولان التحكم بالقصة. ووفقاً لما ذكرته المقالة المقتضبة، قُبض بالأمس على الرجلين في روشيستر.

البحث جارٍ عن البقية «المتورطين في السرقة المذهلة».

19

بينما كان ديني ينتظر رحلته إلى شيكاغو، استقلّ أحمد طائرة من بوفالو إلى تورنتو، حيث حجز لرحلة ذهاب إلى أمستردام. وبما أن الطائرة لن تقلع قبل أربع ساعات، دخل الحانة التي في صالة المطار وأخفى وجهه خلف لائحة الطعام وبدأ بالشرب.

20

اقتيد مارك دريسكول وجيرالد ستينجاردن يوم الاثنين التالي إلى ترينتون، نيوجيرسي. ومثلاً أمام قاضٍ فيدرالي وأقرأ كتاباً بعدم وجود أي ممتلكات لديهما وعين لكل منهما محامٍ. وبسبب ارتكابهما لجرائم تزوير وثائق رسمية، لم يمنحاً إطلاق سراح بكفالة، باعتبار أن احتمال فرارهما كان عالياً.

مرّ أسبوع آخر ومن ثم شهر، وبدأ التحقيق يفقد زخمه. فما ظهر بدايةً أنه تحقيق واعد بدأ يظهر بشكل تدريجي أنه ميؤوس منه. فعدا نقطة الدم وصور اللصوص المتكررين وفقدان المخطوطات لم يكن هناك أي حقائق أخرى. لقد عُثِر على الفان المحروقة التي استخدموها في الهروب، لكن لم يعرف أحد من أين أتت. كما أنّ سيارة ديني المُستأجرة سُرقت وفُكِّت في متجر بيع لقطع السيارات. لقد ذهب من مكسيكو سيتي إلى بنما حيث يعرف أشخاصاً هناك يُحسنون التّخفي.

كان الدليل واضحاً أنّ جيرري ومارك استخدمتا بطاقات طلاب مزيفة لزيارة المكتبة عدة مرات. كما أنّ مارك قدّم نفسه كباحث في أدب فيتزجيرالد. كان من الواضح في ليلة السرقة أنّ الاثنين دخلا المكتبة مع شريك ثالث، لكن لم يكن هناك من إشارة إلى متى وكيف غادرا المكان.

من دون المسروقات أجلّ النائب العام الأمريكي الإدانة، وتحرك محاميا جيرري ومارك لإسقاط التهم، لكنّ القاضي رفض. فبقيا في السجن ولم يتفوها بأي كلمة ولم يكن إطلاق سراحهما بكفالة متاحاً. وبعد مضي ثلاثة أشهر على السرقة، عرض النائب العام على مارك صفقة العمر: أفرغ ما في جعبتك وامض في طريقك. لم يعثر على دي أن إيه له في مسرح الجريمة ولم يكن له سجل إجرامي، كان مارك هو الخيار الأمثل للتعامل معه. فكل ما كان مطلوباً منه هو التكلم ويصبح رجلاً حراً.

لقد رفض الصفقة لسببين، الأول، لأنّ محاميه أكد له بأنّ المدعي العام سيجد صعوبة بإثبات القضية أمام المحكمة، ولذلك من المرجح ألا يُدان. والثاني والأكثر أهمية، أنّ ديني وتري طليقان، وهذا يعني أنّ المخطوطات في مكان آمن تماماً، وهذا يعني أيضاً أنّ الانتقام محتمل. وأكثر من ذلك، حتى لو

أنّ مارك أعطاهم اسمي ديني وتري الكاملين فإنّ مكتب التحقيقات الفيدرالي سيصعب عليه العثور عليهما. من الواضح أنّ مارك ليس لديه فكرة عن مكان وجود المخطوطات. إنه يعرف مكان المنزلين الآمنين الثاني والثالث، لكنه يعلم أيضاً أنّهما لن يستخدمهما بعد إلقاء القبض عليه وعلى جيرى.

21

كل سبب التحقيق كانت مسدودة. والمعلومات التي بدت واعدة في البداية أصبحت الآن عديمة الجدوى. والآن، بدأت لعبة الانتظار القاتل، فمن يملك المخطوطات، سيطلب بالأموال، قبل إعادتها، ولكن متى وأين سيحصل ذلك؟ وما هو مقدار المال الذي سيطلب لقاء المخطوطات؟

الفصل الثاني السمسار

1

عندما كان بروس كابل في الثالثة والعشرين من العمر، ولا يزال طالباً في جامعة أوبرن، توفي والده فجأة. لقد تناحر الاثنان بشأن تأخر بروس في التحصيل الدراسي، وساعات الأمور كثيراً إلى درجة أنّ السيد كابل هدّد أكثر من مرة بحرمان بروس الشاب من وصيته. لكنه توفي قبل أن يبلغ المحامي بضرورة تعديل الوصية، وهكذا استيقظ بروس ذات يوم وقد ورث مبلغ ثلاثمئة ألف دولار، كان مبلغاً كبيراً، ولكنه لم يكن يكفيه كي لا يعمل ويبدأ تقاعداً مبكراً. فكّر باستثماره، بوسائل استثمار آمنة، والتي يمكنها أن تعود عليه بفوائد سنوية تُقدّر بـ 5 إلى 10 بالمئة، وهذا بالكاد يمكنه أن يغطي تكاليف الحياة التي بدأ فجأة يخطط لها. كما أنّ الاستثمار بطريقة أكثر جرأة قد يكون أكثر خطورة بكثير، ولم يكن بروس يرغب بخسارة ما ورثه. لذلك، أخذ بروس يفكر بأمور غريبة ليس أقلها ترك الدراسة في جامعة أوبرن بعد أن أمضى فيها خمس سنوات.

لقد أغرته فتاة لعوب بالذهاب إلى شاطئ فلوريدا في جزيرة كامينو، وهو

شريط ساحلي بطول عشرة أميال يقع شمال جاكسونفيل تماماً. وفي شقة كانت تدفع إيجارها، أمضى شهراً وهو يعاشر ويشرب الجعة ويركب الأمواج ويتأمل المحيط الأطلسي لساعات ويقراً رواية الحرب والسلام. كان مختصاً بالأدب الإنكليزي ولكن عدم قراءته للكثير من الكتب كان يثير سخطه.

ولكي يحمي نقوده، وبأمل رؤيتها تزداد، فكّر بعدد من المغامرات وهو يتجول على الشاطئ. لقد كان حكيماً بكتمان خبر الثروة التي هبطت عليه – المال في النهاية، كان مدفوناً منذ عقود – وبذلك كان خلي البال، وتجنب أن يزعجه الأصدقاء بنصائح بشأن كيفية استثمار ماله، وتجنب الإحراج الذي قد يشعر به لرفضه إقراضهم إن طلبوا ذلك منه. حتى إن الفتاة اللعوب كانت تجهل أي شيء عن أحواله المادية. وبعد قضاء أسبوع معاً، أدرك أنها سرعان ما ستكون ذكرى قابلة للنسيان. لقد فكّر بالاستثمار بشراء رخصة لبيع منتجات ساندويش الدجاج، وفي شراء أراضٍ في فلوريدا، وفي مجمع شقق في أرض قريبة ذات سعر مرتفع، وفي شراء حصص في شركات الإنترنت الناشئة في سيليكون فالي، وفي شراء مركز تجاري في أحد شوارع ناشفيل المزدهمة، وأشياء من هذا القبيل. لقد قرأ عشرات المجلات المالية، وكلما قرأ أكثر كلما أدرك أن لا صبر له على الاستثمار. وربما كان هذا السبب هو الذي قاده لدراسة الأدب بدلاً من دراسة الاقتصاد.

لقد تجول مع الفتاة بشكل يومي في سانتا روزا الوداعة كي يتناول الغداء في المطاعم أو يشرب في الحانات الموجودة في الشارع الرئيسي. كان هناك مكتبة محترمة وبجوارها مقهى وقد اعتادا الوجود فيهما لتناول مشروب اللاتيه في فترة بعد الظهر وقراءة جريدة نيويورك تايمز. لقد عمل مالك المكتبة والمقهى – ويدعى تيم – نادلاً، وكان ثرثاراً، وذات يوم زل لسانه وقال إنه

يفكر ببيع المكان والانتقال إلى كي ويست. وفي اليوم التالي تمكّن بروس من التملص من الفتاة والذهاب بمفرده للاستمتاع بكأس من اللاتيه، فجلس على مقعد بجانب المشرب، وأخذ يتداول مع تيم خططه بشأن المكتبة.

وضّح تيم أنّ بيع الكتب عمل صعب، فالمكتبات الكبرى تعرض حسومات كبيرة على الكتب الأكثر مبيعاً، وبعضها يقدم حسومات تصل إلى 50 بالمئة، والآن بوجود الإنترنت وشركة أمازون فالتسوق يتم من المنزل. خلال السنوات الخمس السابقة، أغلقت أكثر من 700 مكتبة مستقلة، أما المكتبات الباقية فلا يحقق إلا القليل منها أرباحاً. وكلما تكلم أكثر أصبح أكثر تشاؤماً. «البيع بالتجزئة أمر قاس»، قالها ثلاث مرات على الأقل. «ومهما فعلت اليوم، عليك أن تبدأ من جديد مرة أخرى غداً».

لقد أعجب بروس بصراحته، لكنه شكّ بذكائه. هل كان يحاول إغراء أحد بالشراء؟

قال تيم إنه حقق أرباحاً وفيرة من المتجر، فالجزيرة تحوي جماعة تحبذ الأدب، وفيها بعض الكُتاب الفاعلين، وتقيم مهرجاناً للقراءة. ولا يزال المتقاعدون يستمتعون بالقراءة وينفقون المال على الكتب. هناك حوالي أربعين ألف مقيم بالإضافة إلى مليون سائح يزورون الجزيرة كل عام. لذا، هناك حركة لا بأس بها. أخيراً سأله بروس عن السعر الذي يطلبه في المكتبة والمقهى. قال تيم أنه يريد البيع بمئة وخمسين ألف دولار نقداً دون وجود رهن على العقار بالإضافة إلى عقد إيجار المبنى. تساءل بروس بخجل إن كان باستطاعته الاطلاع على حساباته، أي الميزانية الأساسية والربح والخسارة. لم يحبذ تيم الفكرة. فهو لم يكن يعرف بروس واعتقد أنّ الفتى مجرد شخص آخر في العشرينات من العمر يتسكع على الشاطئ وينفق أموال أبيه. قال تيم:

«حسناً، أرني حساباتك المالية لأريك حساباتي المالية».

أجاب بروس: «هذا منصف بما فيه الكفاية». غادر المكان مع وعد بالعودة. بعد ثلاثة أيام، ودّع الفتاة وذهب إلى جاكسونفيل من أجل شراء سيارة جديدة. طمع بشراء سيارة بورش 911 كاريرا جديدة كلياً، وحقيقة أنه يستطيع شرائها نقداً جعل من عدم الشراء مؤلماً، وبعد يوم طويل من المجادلة فضّل الإبقاء على سيارته الجيب شيروكي المستعملة، فبإمكان البورش أن تنتظر، ربما إلى أن يكسب النقود اللازمة لشرائها.

غادر بروس فلوريدا بعد أن استبدل إطارات الشيروكي واحتفظ بنقوده في البنك من أجل مجازفة أدبية زاد توقعه لها مع كل ميل يقطعه. لم يكن لديه خط سير للرحلة. فتوجه نحو الغرب وخطط لقضاء يوم شمالاً قرب المحيط الهادئ ثم العودة باتجاه الشرق ومن ثم التوجه جنوباً. لم يكن الوقت يعني شيئاً، فليس هناك مواعيد محددة نهائية. كان يبحث عن مكتبات مستقلة وعندما يجد واحدة يتجوّل ليوم أو اثنين، ويشرب القهوة ويقرأ، وربما يتناول الغداء إذا وُجد في المكان مقهى. يجلس عادةً مع المالك على انفراد ويسأل بلطف عن بعض المعلومات. كان يقول لهم إنه يفكر بشراء مكتبة وإنه يحتاج إلى نصيحتهم الصادقة. لقد تنوعت ردود الأفعال، فمعظمهم يبدو أنهم يستمتعون بعملهم وحتى أولئك الذين يقلقون بشأن المستقبل. هناك الكثير من عدم الاستقرار في العمل، حيث الشركات الكبرى تتوسع والإنترنت مليء بالمجهولين. وهناك قصص مرعبة عن مكتبات خرجت من السوق بسبب التخفيضات الكبيرة التي تقوم بها سلاسل المكتبات الكبرى. وقيل له إن المكتبات المستقلة تشهد أعمالها ازدهاراً خصوصاً في المدن التي تحتضن أرضها جامعات فالمدن الصغيرة لم تكن أسواقها تجتذب الشركات الكبرى. بينما كانت المكتبات

المستقلة في المدن الكبرى مهجورة عملياً. كان القليل منها جديد ويخالف بشكل حماسي التوجه السائد. النصائح متناقضة ومتنوعة، تبدأ من المقولة الأساسية «البيع بالتجزئة أمر قاس» إلى «عليك بها، أنت في الثالثة والعشرين من العمر فقط». لكنّ الثابت هو أنّ أولئك الذين يعطون النصيحة يستمتعون بما يفعلون. فهم يحبون الكتب والأدب والكتّاب وكل مشهد النشر، وهم مستعدون لبذل الساعات الطوال والتعامل مع الزبائن لأنهم يعتبرون عملهم قضية نبيلة.

تنقّل بروس لمدة شهرين في أرجاء البلاد، وهو يبحث على غير هدى عن المكتبة المستقلة التالية. فربما يعرف المالك في إحدى المدن ثلاثة آخرين في أرجاء الولاية وهلمّ جراً. لقد استهلك بروس جالونات من القهوة المُركّزة، وتسكّع مع مؤلفي الكتب في حفلات ترويج كتبهم، واشترى عشرات الكتب المُوقّعة، ونام في موتيلات رخيصة، وأحياناً مع قارئ كتب آخر التقى به للتو، وأمضى ساعات مع بائعي الكتب المستعدين لمشاركة معارفهم ونصائحهم، وارتشف الكثير من النبيذ الرخيص عند توقيع الكتب حيث يوجد القليل من الزبائن، والتقط المئات من الصور في الداخل والخارج، وملاً صفحات من الملاحظات، واحتفظ بسجل لكل ذلك.

في الوقت الذي انتهت فيه مغامرته، وأصبح تعباً وسقماً من القيادة، كان قد قطع ثمانية آلاف ميل تقريباً خلال أربعة وسبعين يوماً، وزار إحدى وستين مكتبة مستقلة، لم تكن إحداها تشبه الأخرى ولا حتى من بعيد. لقد اعتقد أنّ لديه خطة.

عاد إلى جزيرة كامينو ووجد تيم حيث تركه، في المقهى يحتسي الإسبريسو ويقرأ جريدة، ويبدو أكثر تعباً من قبل. لم يتذكره تيم في البداية، لكن حينها قال بروس: «كنتُ أفكر بشراء المكتبة منذ شهرين. وأنت طلبت

مائة وخمسين».

قال تيم وقد بدا صاحياً بعض الشيء: «بالتأكيد، هل وجدت النقود؟».

«بعضها. سأحرر لك شيكاً اليوم بقيمة مائة ألف، وخمسة وعشرين ألف بعد سنة من الآن».

«جيد، لكن المبلغ أقل بخمسة وعشرين ألفاً، كما أظن».

«هذا كل ما لديّ يا تيم. اقبل العرض أو ارفضه. لقد وجدت مكتبة أخرى في السوق».

فكر تيم لبرهة من الوقت، قبل أن يمد يده اليمنى مصافحاً. لقد اتفقا على الصفقة. اتصل تيم بمحاميه، وطلب منه إنجاز الأمور بسرعة. وبعد ثلاثة أيام وُقعت الأوراق، وسُلّمت النقود. أغلق بروس المكتبة لمدة شهر من أجل أعمال الترميم، واستخدم فترة التوقف لأخذ دورة مكثفة في بيع الكتب. سعد تيم بالبقاء في المكان ومشاركة خبرته في كل نواحي العمل، بالإضافة إلى تبادل الأقاويل عن الزبائن ومعظم تجار المدينة. كان لديه الكثير من الآراء حول معظم الأمور، وبعد أسبوعين لم يعد لدى بروس مشكلة إن غادر تيم بعد أن أطلعه على كل ما يريد معرفته.

أعيد افتتاح المتجر في الأول من آب 1996. احتسى الحشد الرائع الشمبانيا والجمعة واستمعوا إلى موسيقى الريجي والجاز واستمتع بروس باللحظة فقد انطلقت مغامرته الكبرى، وبدأ متجر باي بوكس – للكتب الجديدة والنادرة بممارسة نشاطه التجاري.

كان اهتمامه بالكتب النادرة صدفة بحتة. فلدى سماعه بخبر وفاة أبيه جراء

نوبة قلبية، ذهب بروس إلى منزله في أتلانتا. لم يكن منزله حقاً – لم يقض الكثير من الوقت هناك أبداً – لكنه المنزل الحالي والأخير لوالده، الذي كان كثير التنقل وعادة برفقة إناث مريعات. لقد تزوج السيد كابل مرتين وفي المرتين كانت التجربة مريعة، فنفر من مؤسسة الزواج، لكن يبدو أنه لم يتمكن من العيش دون وجود امرأة بئسة تعقد عليه حياته المعقدة أصلاً. كنّ ينجذبن إليه بسبب ثرائه الظاهر، لكن مع الوقت أدركت كل منهن أنه كان متضرراً في الصميم جراء طلاقين ذاق خلالهما العلقم. من حسن حظ بروس أن آخر صديقات والده كانت قد هجرته منذ وقت قريب، وهذا ما جعل المكان خالياً من الأيادي والعيون المتطفلة.

كان المنزل، حين وصل بروس، عبارة عن كومة غريبة من الفولاذ والزجاج تنتصب أعلى تلة تتوسط المدينة، وفيه استوديو كبير في الطابق الثالث حيث يحب السيد كابل أن يرسم عندما لا يكون مشغولاً بالاستثمار. لم يكن لديه مهنة حقيقية، وبما أنه عاش من ميراثه فكان دائماً يدعو نفسه «مستثمر». فيما بعد، تحوّل إلى الرسم، لكن لوحاته الزيتية كانت شنيعة لدرجة أنه استبعد من كل المعارض الفنية في أتلانتا. كان أحد جدران الاستوديو مغطى بالكتب، المئات منها، وبالكاد انتبه بروس للمجموعة بداية الأمر. لقد افترض أنها للزينة، وهي جزء آخر من التمثيلية، ومسعى سخي آخر لأبيه كي يبدو عميقاً ومعقداً ومثقفاً كبيراً. لكن عندما نظر عن كثب، أدرك بروس أنّ هناك رفّين يحملان بعض الكتب القديمة ذات العناوين المألوفة. فبدأ بسحبها عن الرف العلوي وتفحصها واحداً تلو الآخر. تحول فضوله العابري سريعاً إلى شيء آخر.

كانت الكتب كلها من طبعات أولى وبعضها موقّع من قبل المؤلفين. مثل

رواية جوزيف هيلر اللغز – 22 الصادرة عام 1961، ورواية نورمان مايلر العاري والميت (1948)، ورواية جون أبدايك اهرب يا أرنب (1960)، ورواية رالف إليسون الرجل الخفي (1952)، ورواية ووكر بيرسي الذهاب إلى السينما (1961)، ورواية فيليب روث وداعاً كولومبوس (1959)، ورواية ويليام ستايرون حيرة نات تيرنر (1967)، ورواية دايشيل هاميت الصقر المالطي (1929)، ورواية ترومان كابوت بدم بارد (1965)، ورواية ج. د. سالينجر الحارس في حقل الشوفان (1951).

بدأ بروس بعد دزينة الكتب الأولى بوضعها على طاولة بدل أن يعيدها إلى الرفوف. لقد طغت حماسته ومن ثم طمعه على فضوله الأولي. مرّ على كتب ومؤلفين موجودين في الرف السفلي لم يكن قد سمع بهم أبداً إلى أن اكتشف أمراً مذهلاً. كان هناك أربعة كتب مخفية وراء سيرة ذاتية مؤلفة من ثلاثة مجلدات سمكة لتشرشل: رواية ويليام فولكنر الصخب والغضب (1929)، ورواية ستاينبيك كأس من ذهب (1929)، ورواية أف. سكوت فيتزجيرالد هذا الجانب من الفردوس (1920)، ورواية إيرنست هيمنجواي وداعاً للسلاح (1929). كانت جميعها طبعة أولى بحالة ممتازة ومُوقَّعة من قِبل المؤلفين.

بحث بروس أكثر فلم يجد شيئاً آخر ذا أهمية، ثم جلس على كرسي أبيه القديم، وأخذ يحدّق إلى جدار الكتب. جالساً هناك في منزل لم يعرفه بشكل حقيقي أبداً، ينظر إلى اللوحات الزيتية الرديئة التي رسمها فنان من الواضح افتقاده للموهبة، ويتساءل من أين أتت الكتب، ويفكر بما سيفعله عندما تصل أخته مولي إذ من المُتوقَّع أن يُخططاً لمراسم الجنازة، لقد صُدم بروس لقلّة معرفته بوالده الراحل. ولماذا ينبغي له أن يعرف أكثر؟ فلم يقض والده وقتاً معه أبداً. لقد أبعده السيد كابل بروس إلى مدرسة داخلية عندما كان في الرابعة

عشرة من عمره. وخلال العطلات الصيفية، كان يُرسل الفتى إلى مخيم إبحار لمدة ستة أسابيع وإلى مزرعة لأحد الأصدقاء لستة أسابيع أخرى، أي شيء لإبقائه بعيداً عن المنزل. لم يكن لبروس علم بأي شيء يستمتع والده بجمعه، سوى سلسلة من النساء البائسات. كان السيد كابل من محبي الغولف وكرة المضرب والسفر، لكن ليس مع بروس وأخته أبداً، بل دائماً مع آخر صديقة له. من أين أتت الكتب؟ ومنذ متى كان يجمعها؟ وأين فواتيرها، وهل هناك من وثيقة تثبت وجودها؟ هل سيطلب من مُنقذ وصية والده ضمها إلى الأصول الأخرى وإعطائها إلى جامعة إيموري؟

كان التخلي عن مجمل الأملاك لجامعة إيموري شيء آخر يغيظ بروس. فقد تكلم والده عن هذا الأمر بشكل عابر من دون ذكر تفاصيل. فقد رأى أنه يجب استثمار أمواله في التعليم وليس تركها لولديه كي يبذراها. هناك مناسبات عديدة أغرت بروس بتذكير والده الذي أمضى حياته بأكملها وهو يبذر أموالاً كسبها شخص آخر، لكن التفكير في ذلك لن يفيد بروس.

في ذلك الحين رغب بروس بالاستحواذ على هذه الكتب، فقرر الاحتفاظ بثمانية عشر من أفضلها وترك البقية خلفه. قام بترتيبها بعناية في صندوق كرتون كان يُستخدم كصندوق نبيذ. لقد تعارك والده مع زجاجة الخمر لعدد من السنين وتوصل أخيراً إلى هدنة سمحت له ببضع كؤوس من النبيذ الأحمر كل ليلة. لقد أمضى بروس ساعات في ترتيب الرفوف كي يعطي انطباعاً بعدم فقدان أي شيء. ومن سيعرف؟ حسب علمه، لم تقرأ مولي أي كتاب والأكثر أهمية، أنها تجنبت والدهما لأنها كانت تكره صديقاته. وكما يعرف بروس، لم تقض مولي ليلة واحدة في المنزل، وهي لن تعرف أي شيء عن أغراضه الشخصية. (لكن بعد مضي شهرين، سألته عبر الهاتف إذا كان يعلم أي شيء

عن «كتب أبيهما القديمة». أكد بروس لها أنه لا يعرف أي شيء).

انتظر حلول الظلام، وأخذ الصندوق إلى سيارته. كان هناك ثلاث كاميرات مراقبة على الأقل تراقب الشرفة والممر والمراب، وفي حال سأل أحدهم أي سؤال، سيجيب ببساطة أنه يأخذ بعضاً من أغراضه الشخصية. فيديوهات وأقراص مدمجة، لا يهم. وفي حال سأل منفذ الوصية فيما بعد عن فقدان الطبعات الأولى، لن يعترف أن له يداً في فقدانها، بل سيقول له اذهب واسأل مدبرة المنزل.

بمرور الوقت، تبين أنها جريمة كاملة، هذا إن كانت تُعتبر جريمة أساساً. في الواقع لم يعتقد بروس أنها جريمة. فبرأيه، يحق له أن يأخذ أكثر من ذلك بكثير.

لقد تأجل دخول بروس كابل غير المقصود إلى عالم الكتب النادرة إلى حين البدء بشكل صحيح. إذ أنه زجّ نفسه في دراسة الصفقة، وأدرك أنّ قيمة مجموعته الأولى، الثمانية عشر كتاب التي أخذت من منزل والده، تُقدّر بمئتي ألف دولار تقريباً. لكنه كان خائفاً من بيع الكتب، وخشي من أنّ شخصاً ما في مكان ما ربما يتعرف إلى واحد منها وي طرح أسئلة. بما أنه لم يكن يعرف كيف امتلك والده هذه الكتب، كان من الأفضل الانتظار. دغ بعض الوقت يمر، كي تتلاشى الذكريات. ولن يمضي وقت طويل قبل أن يتعلم أنّ الصبر أمر حتمي في هذا المجال من العمل.

يقع المبنى عند ناصية الشارع الثالث والشارع الرئيس في وسط سانتا روزا. كان عمره مائة عام وقد بُني في الأصل كي يضم أشهر بنك في المدينة،

ذلك الذي انهار أيام الكساد. ومن ثم أصبح صيدلية، وبعدها بنك آخر ومن ثم مكتبة. يضم الطابق الثاني صناديق وحاويات وخزائن ملفات، جميعها مليئة بالغبار ولا قيمة لها على الإطلاق. تمكن بروس هناك من تخصيص أحد الأماكن وتنظيفه وهدم حائطين، ثم وضع سرير، وأطلق عليه اسم شقة. لقد أقام بروس هناك طيلة العقد الماضي الذي مارس فيه باي بوكس نشاطه، وعندما لم يكن يبيع الكتب في الطابق السفلي، كان يرمم وينظف ويطلّي الديكور في الطابق العلوي.

أول شهر للمكتبة هو آب 1996. وبعد الافتتاح كان المكان مشغولاً لعدة أيام، لكن بدأ الفضول يتلاشى وتباطأت الحركة بشكل كبير. وبعد ثلاثة أسابيع من بدء العمل، بدأ بروس يتساءل إن كان ارتكب خطأ فادحاً. في شهر آب حقق المتجر أرباحاً صافية بلغت ألفي دولار، وهذا ما جعل القلق يزحف نحوه. ففي النهاية، كان شهر الذروة السياحية بالنسبة إلى جزيرة كامينو. فقرر البدء بالتخفيضات، وهو شيء لا ينصح به معظم مُلاك المكتبات المستقلين. أجرى حسومات على الكتب الجديدة والأكثر مبيعاً وصلت حتى 25 بالمئة. ومدد ساعات العمل من السابعة حتى التاسعة، رافعاً ساعات العمل حتى خمس عشرة ساعة يومياً. لقد استقبل الزبائن كما لو أنه أحد السياسيين الذين يبذون اهتماماً بناخبيهم، فقد حفظ معظم أسماء الزبائن الدائمين، وأصبح يتقن تحضير الإسبرسو للزبائن ويسرع بالترحيب والاهتمام بزبون آخر، ولم يلبث أن أزال رفوف الكتب القديمة التي لا تستهوي الزبائن، واستحدث مكانها ما يشبه المقهى الصغير، ومدد ساعات العمل مجدداً إلى العاشرة مساءً، وأرسل عشرات الرسائل للزبائن بالإضافة للكتاب وبائعي الكتب الذين سبق له أن التقاهم في مغامراته على ساحلي المحيط الهادئ والأطلسي.

عند منتصف الليل، غالباً ما كان يقضي وقته على الكمبيوتر يُحدّث أخبار متجر باي بوكس. وأخذ يفكر جدياً بفتح المتجر نهار الأحد، وهو شيء يفعله معظم المستقلين. في الحقيقة، لم تستهوه الفكرة لأنه كان يرغب بيوم راحة، وخشية من رد فعل الأصوليين المسيحيين في جزيرة كامينو خاصة وأن كنائس كثيرة موجودة بجوار مكتبته. لكن من جهة أخرى، الجزيرة مقصد سياحي، ومعظم السياح لا يهتمون بزيارة الكنيسة صباح الأحد. في النهاية، حازت فكرة فتح المتجر يوم الأحد قصب السبق، فقد أصبح المتجر يفتح عند التاسعة من صباح الأحد وأعلن عن ذلك نيويورك تايمز وواشنطن بوس وبوسطن جلوب وشيكاغو تريبيون وبحلول ثالث أحد، أصبح المكان مزدحماً.

ازدادت عائدات المتجر إلى أربعة آلاف دولار في شهري أيلول وتشرين الأول ثم تضاعف الرقم بعد ستة أشهر. ولم يعد بروس يشعر بالقلق، فخلال سنة أصبح متجر باي بوكس محط أنظار وسط المدينة وأكثر المحلات ازدحاماً. كما خضع الناشر ومندوبو المبيعات لإلحاحه الدائم وبدأوا بوضع جزيرة كامينو على خارطة الجولات الترويجية للمؤلفين. وانضم بروس إلى جمعية بائعي الكتب الأمريكيين وانخرط في قضاياها وأمورها ولجانها. وفي شتاء العام 1997، في أحد مؤتمرات جمعية بائعي الكتب الأمريكيين، التقى بستيفن كينغ وأقنعه بزيارة متجره وتوقيع أحد إصدارته فيه. يوم حضور ستيفن كينغ إلى متجر باي بوكس كان الإقبال منقطع النظير وظل يوقع لتسع ساعات وكان طابور المعجبين طويلاً. يومها باع المتجر ألفين ومئتي كتاب وبلغ إجمالي المبيعات سبعين ألف دولار. كان يوماً مجيداً وضع متجر باي بوكس على الخارطة. وبعد ثلاث سنوات اختير كأفضل مكتبة مستقلة في فلوريدا، وفي العام 2004 اختارته صحيفة ببلشرز ويكلي مكتبة العام. في العام 2005،

وبعد تسع سنوات عصيبة انتُخب بروس كابل عضواً في مجلس إدارة جمعية بائعي الكتب الأمريكيين.

4

في ذلك الوقت، أصبح بروس شخصية مشهورة في المدينة. وامتلك عشرات البذلات القطنية بألوان وأشكال مختلفة، كان يرتدي واحدة كل يوم مع قميص أبيض مُنشىً بياقة عريضة وربطة عنق على شكل فراشة عادةً ما تكون إما حمراء أو صفراء. ويكتمل زيه بزوج من الأحذية المصنوعة من جلد الغزال دون جوارب. لم يكن يرتدي الجوارب أبداً، ولا حتى في كانون الثاني عندما تنخفض الحرارة إلى أربعين درجة فهرنهايت. ووصل شعره الأسود المموج والطويل إلى حدود كتفيه، ولم يكن يحلق لحيته سوى مرة واحدة في الأسبوع وذلك صبيحة يوم الأحد. وعندما بلغ الثلاثين بدأ الشيب يغزو مفرقه، فقد بدأت بيضاء الدهر تظهر وحدان وخصلات في شعره الطويل الذي كان يوماً مدلهماً.

في كل يوم، وعندما تنخفض الحركة في المتجر، كان بروس يغادر متجره ويغازل موظفات مكتب البريد، قبل أن يتجه إلى المصرف ويعبث مع أمينات الصندوق. وفي كل مرة يفتتح متجر جديد في وسط المدينة، يحضر بروس حفل الافتتاح، ليصبح بعد ذلك زائراً دائماً لذلك المتجر بغية العبث مع البائعات. وكان بروس ينفق الكثير على طعامه فهو كان يواظب على تناول الطعام في الخارج ستة أيام في الأسبوع ودائماً ما يكون بصحبة آخرين، وكان يدون مصاريف الطعام كمصاريف عمل. وعندما يُفتتح مقهى جديد، يقف بروس في الصف الأول ويأخذ عينات من كل شيء في قائمة الطعام ويغازل النادل. أما في الأيام العادية فكان يشرب زجاجة نبيذ مع الغداء، قبل أن يأخذ سنة من النوم في الطابق العلوي.

كان الخط الفاصل بين الغزل والتحرش لدى بروس رفيعاً. فهو ينظر للسيدات وهنّ ينظرن إليه، ويلعب هذه اللعبة بشكل بارع. لقد اكتشف أشياء قيمة عندما أصبح متجر باي بوكس مكاناً مشهوراً بالنسبة إلى المؤلفين. فنصف الذين كانوا يأتون إلى المدينة كنّ نساء، معظمهن تحت سن الأربعين، ومن الواضح أنّ كلهن بعيدات عن منازلهن، ومعظمهن عازبات ويسافرن لوحدهن بحثاً عن بعض المتعة. وهذا ما جعل منهن أهدافاً سهلة المنال عندما يصلن إلى متجره ويدخلن عالمه. فبعد جلسة قراءة وتوقيع، ومن ثمّ عشاء طويل، غالباً ما يعدن مع بروس إلى شقة الطابق العلوي من أجل «بحث عميق عن عاطفة إنسانية». كان لديه نساء مفضلات، وخاصة سيدتين شابتين تكتبان القصص الغامضة المثيرة جنسياً بشكل جيد. وكانتا تنشران كل سنة.

وبالرغم من جهوده للاهتمام بصورته بعناية كزير نساء مثقف واسع الاطلاع، فقد كان بروس في مجال عمله رجل أعمال طموحاً. لقد آمن المتجر دخلاً جيداً، لكن لم يكن ذلك بالصدفة. فبغض النظر عن طول سهراته، كان يظهر في المتجر قبل الساعة السابعة صباحاً مرتدياً سروالاً قصيراً وتي شيرت، ويبدأ بإفراغ صناديق الكتب وترتيبها على الرفوف ويقوم بالجرد، وبسبب شغفه بعمله لم يكن يتوانى عن مسح الأرضيات. لقد أحب رائحة الكتب الجديدة عندما تخرج من صناديقها وما تبعثه في نفسه من شعور. ووجد المكان المثالي لكل طبعة كتب جديدة. لقد كره عملية إعادة الكتب، ونظر إليها كفشل وكفرصة ضائعة. كما طهر المخزون من الأشياء التي لا تُباع، وبعد عدة سنوات استقر على اثني عشر ألف عنوان كتاب تقريباً. كانت أقسام المتجر عبارة عن مساحات من الرفوف والأرضيات المزدهمة والمكدسة بالكتب، لكنّ بروس كان يعرف أين يجد كل شيء. ففي النهاية، هو من وضعها كلها بعناية.

وفي الساعة 8:45 من كل صباح، يسرع إلى شفته ويستحم ويرتدي السترة القطنية التي يختارها لذلك اليوم وعند التاسعة تماماً يفتح الأبواب ويستقبل زبائنه.

نادراً ما أخذ يوم عطلة. فالعطلة بالنسبة إليه كانت تعني رحلة إلى نيو إنجلاند للقاء سماسرة بيع الكتب الأثرية في محلاتهم القديمة والمليئة بالغبار والتحدث عن حال السوق. لقد أحبّ الكتب النادرة، وخاصةً تلك التي كتبها مؤلفون أمريكيون في مطلع القرن العشرين، وكان شغوفاً بجمعها. كانت مجموعته من الكتب القديمة تنمو باطراد لأنه دائماً ما اغتبط بشرائها، وشعر بالألم لدى بيعها. صحيح أنه كان يتاجر بهذه النوعية من الكتب، ولكنه في الغالب كان يشتري بسهولة ويسر ويصعب الأمر قدر استطاعته عندما يبيع. لقد أصبحت الثمانية عشر كتاباً التي سرقها من أبيه مؤسسة رائعة، وفي الوقت الذي أصبح فيه بروس في الأربعين من عمره، قدر قيمة مجموعته النادرة بمليوني دولار.

5

عندما كان عضواً في مجلس إدارة بائعي الكتب الأمريكيين، توفي مالك مبناه. فاشترى بروس وبدأ بتوسيع المتجر. فقلّص مساحة شفته، ونقل المقهى إلى الطابق الثاني. وهدم أحد الجدران وضاعف مساحة القسم المخصص لكتب الأطفال. وصباح كل سبت كان المتجر يزدحم بالأولاد الذين يشترون الكتب ويستمعون إلى القصص بينما أمهاتهم الشابات يحتسين اللاتيه في الطابق العلوي تحت رقابة عيون المالك الودود. لقد استرعى قسم الكتب النادرة كثيراً من اهتمامه. فقد هدم جداراً آخر في الطابق الأرضي وبنى غرفة خاصة بالطبعات الأولى للكتب ذات رفوف جميلة مصنوعة من خشب السنديان

وخزائن وسجادات ثمينة. كما بنى سرداباً في القبو لحماية أنفس كتب لديه.

بعد عشر سنوات من المعيشة في شقة، أصبح بروس مستعداً لشيء أكبر. فقد أبقى ناظريه على عدة أبنية من الطراز الفيكتوري وسط سانتا روزا التجاري، وقدم عرضين لشراء اثنين منها، ولكن عرضيه لم يناسب المالكين، اللذين باعاهما لمشتريين آخرين. لقد كانت المنازل الفيكتورية في وسط سانتا روزا جميلة ومصانة بشكل جيد، تلك المنازل التي بناها في القرن التاسع عشر أصحاب شركات الخطوط الحديدية ووكلاء الشحن البحري والأطباء والسياسيون. كانت منازل تشمخ فوق شوارع مُظللة بأشجار السنديان المعمرة. عندما توفيت السيدة مارشبانكس عن عمر يناهز 103 سنوات، تقرب بروس من ابنتها البالغة 81 من العمر والتي تعيش في تكساس. لقد قدم هذه المرة عرضاً سخياً لشراء المنزل، وكان مصمماً على أن لا يخسر للمرة الثالثة.

شُيد منزل مارشبانكس عام 1890 بناء لطلب طبيب كهدية لزوجته الجميلة الجديدة وبقي من أملاك العائلة منذ ذلك الوقت، كان ضخماً، إذ تبلغ مساحته أكثر من ثمانية آلاف قدم مربعة وبارتفاع أربع طبقات، مع برج شاهق في الجهة الجنوبية وآخر صغير في الشمال، وشرفة واسعة تلف الطابق الأرضي. بالإضافة لسور أبيض خشبي وبعض أشجار السنديان.

وجد بروس أنّ الجزء الداخلي من المنزل كان كئيباً بأرضياته الخشبية الداكنة وجدرانه الأكثر دكنة وسجاداته المهترئة وستائره المهلهلة والمليئة بالغبار، وكثرة مواقده المكسوة بالآجر البني. لقد تضمنت الصفقة الكثير من الأثاث، فبدأ ببيعه على الفور. كما نقل السجادات التي لم تكن رثة كثيراً إلى المكتبة حيث أضافت عقوداً من الزمن إلى أجوائها. أما الستائر عديمة القيمة فرماها. وعندما أصبح المنزل فارغاً، استخدم طاقماً من الدهانين أمضوا

شهرين لجعل الجدران الداخلية أكثر تألقاً. وعندما انتهوا من عملهم، استخدم أحد الحرفيين المحليين وأمضى شهرين آخرين في تلميع كل قدم مربعة من الأرضيات المصنوعة من خشب السنديان والصنوبر.

لقد اشترى المنزل لأنّ كل أنظمته تعمل جيداً؛ التمديدات الصحية، والكهربائية والماء والتدفئة بالإضافة لنظام التهوية. فهو لم يرغب ولم يمتلك الصبر على أعمال الترميم، فتلك أمور قد تسبب إفلاس أي شارٍ جديد. وفي السنة التالية، استمر بالعيش في شقته فوق المتجر بينما كان يفكر ملياً بتأثيث وتزيين المنزل. كان المنزل مثلاً فحماً عن الهندسة المعمارية الفيكتورية وغير مناسب بتاتاً للحد الأدنى من الديكور الذي يفضلُه.

ما الخطأ بامتلاك منزل قديم وكبير يبقى وفيّاً لأصوله، على الأقل من الخارج، بينما يُعاد ترتيب الداخل بأثاث عصري؟ لكن هناك شيئاً غير صحيح في ذلك، لقد أصبح مقيد الأفكار في ما يتعلق بالديكور. كان يدخل إلى المنزل كل يوم ويقف حائراً في كل غرفة. هل أصبح شراؤه واحداً من حماقاته، منزل فارغ وكبير للغاية وكثير التعقيد.

6

أتت النجدة مع نويل بونيت، وهي سمسارة أنتيكات من نيو أورليانز كانت في رحلة ترويجية لأحدث كتاب لها، وهو كتاب ضخّم ثمنه خمسون دولاراً مُصمّم كي يُعرض على طاولة قهوة. لقد رأى كاتالوج نويل قبل شهر وافتتن بصورتها. وبقيامه بعمله المعتاد في البحث والتقصي، علم أنها في السابعة والثلاثين من العمر، مُطلقة دون أطفال، وهي من سكان نيو أورليانز الأصليين رغم أنّ أمها فرنسية، كما أنها تُعتبر خبيرة بالأنتيكات البروفينسية. يقع متجرها في رويال ستريت، في الحي الفرنسي، وطبقاً لسيرتها الذاتية فقد

عاشت نصف سنواتها في جنوب و جنوب شرق فرنسا بحثاً عن الأثاث القديم. لقد نشرت كتابين من قبل عن هذا الموضوع، ولم يفوت بروس على نفسه فرصة التمحيص فيهما.

كانت هذه عادة إن لم تكن دعوة. فقد اعتاد متجره القيام بحفلي توقيع وأحياناً ثلاثة كل أسبوع، وبحلول الوقت الذي يصل فيه أحد الكُتاب، يكون بروس قد قرأ كل شيء نشره الكاتب. إنه يقرأ بنهم، ورغم أنه يفضل الروايات التي يكتبها المؤلفون الأحياء، الأشخاص الذين بإمكانه لقاءهم والترويج لهم ومصاحبتهم ومتابعتهم، إلا أنه كان يلتهم السير الذاتية وكتب الطبخ والتاريخ، أي شيء وكل شيء. كان ذلك أقل ما يمكن أن يفعله. كان معجباً بكل الكُتاب، وفي حال استغلّ أحدهم الوقت لزيارة متجره، وتناول العشاء والشراب وما شابه ذلك، عندئذٍ يصبح مصمماً على مناقشة أعماله أو أعمالها.

كان يقرأ حتى وقت متأخر في الليل وغالباً ما يغفو والكتاب مفتوح على سريريه. ويقرأ في الصباح لوحده مع كوب من القهوة المُركّزة، قبل وقت طويل من الافتتاح في حال لم يكن هناك عمل في تحميل وتنزيل الكتب. كان يقرأ باستمرار طوال النهار وبمرور الوقت طوّر هذا الروتين الفضولي بالوقوف في المكان نفسه بجانب النافذة الأمامية، قرب قسم السير الذاتية ويتكى بشكل عرضي على تمثال خشبي بالطول الكامل لزعيم هندي أحمر من قبيلة تيميوكوا، ويحتسي الإسبريسو دون توقف، حيث تكون إحدى عينيه على الصفحة وأخرى على الباب الرئيسي. كان يستقبل الزبائن، ويجد الكتب لهم، ويتبادل الحديث مع أي شخص يريد الكلام، ويساعد أحياناً في المقهى وعلى صندوق المحاسبة وقت الازدحام، لكنه يعود دائماً إلى مكانه بجانب تمثال الزعيم، حيث يلتقط كتابه ويتابع القراءة. لقد طالب موظفيه بقراءة ما معدله

أربعة كتب في الأسبوع، وفي حال لم يقرأ الموظف المحتمل كتابين على الأقل في الأسبوع، فلم يكن يحظى بتجديد عقد عمله.

أياً يكن الأمر، شكّلت زيارة نويل بونيت نجاحاً باهراً، إن لم يكن بسبب الإيرادات الناجمة، فبالتأكيد بسبب تأثيرها المُستدام على بروس ومتجر باي بوكس. كان الانجذاب مُتبادلاً ومباشراً وشديداً. فبعد عشاء سريع ومُقْتَضِب، عادا معاً إلى شقته العلوية واستمتعا بليلة حميمة جداً. وبادعائها المرض، ألغت ما تبقى من جولتها، وبقيت في المدينة لمدة أسبوع. وفي اليوم الثالث، اصطحبها بروس إلى منزل مارشبانكس واستعرض تحفته بفخر. كانت مرتبكة، فبالنسبة إلى سمسارة ومُصممة ديكور من الطراز الرفيع، كانت رؤية ثمانية آلاف قدم مربعة من الأرضيات الخالية والجدران التي تقع خلف تلك الواجهة الفيكتورية الضخمة، شيئاً يخطف الأنفاس. وبينما كانا ينتقلان بين الغرف، بدأت بتخيّل كيفية طلاء كل واحدة منها وتغطيتها بورق الجدران وتأثيثها.

عرض بروس بعض الاقتراحات المتواضعة مثل شاشة تليفزيون كبيرة وطاولة بلياردو هناك، لكنّ اقتراحاته لم تستقبلها آذان صاغية. كانت الفنانة التي داخلها تعمل. أمضت نويل النهار بمفردها في المنزل، تقيس وتُصوّر وتجلس ببساطة داخل ذلك الفضاء الواسع.

تملّقت، وتمكنت من إقناعه بمغادرة المتجر خلال عطلة نهاية الأسبوع حيث سافرا معاً بالطائرة إلى نيو أورليانز. تمشّت معه في أرجاء متجرها الأنيق والمزدحم بالأثاث في آن، حيث لم تكن كل طاولة ولمبة وسرير بأربعة أعمدة وخزانه ومقعد وصندوق وبساط وكومودينة وخزانة ثياب، غنية بأصولها المتحدرة من بعض قرى بروفينس وحسب، بل حددت لها المكان الذي يناسبها في منزل مارشبانكس. تجولا في الحي الفرنسي، وتناولوا العشاء في

الحانة المحلية المفضلة لديها، وتسكعاً مع أصدقائها وأمضياً كثيراً من الوقت في السرير، وبعد ثلاثة أيام سافر بروس لوحده بالطائرة عائداً إلى منزله، مُنهكاً، وكانت المرة الأولى التي يقع فيها بالحب، ولم يكن بوسعها إنكار ذلك. اللعنة على المصاريف. كانت نويل بونيت المرأة التي لن يستطيع العيش من دونها.

7

بعد مضي أسبوع، وصلت شاحنة كبيرة إلى سانتا روزا، وركنت أمام منزل مارشبانكس. وفي اليوم التالي، أتت نويل إلى هناك لإعطاء التوجيهات لعمال النقل. كان بروس يتنقل بين المتجر والمنزل يراقب باهتمام كبير وقليل من الخوف. كانت الفنانة ضائعة في عالمها الإبداعي الخاص تنتقل من غرفة إلى أخرى وتحرك كل قطعة على الأقل ثلاث مرات، وتدرك أنها تريد أكثر. بعد قليل من مغادرة الشاحنة، وصلت واحدة أخرى، وعندما رآها بروس تتمم قائلاً: «أظنها أفرغت متجرها الكائن في رويال ستريت».

مساءً، وأثناء تناولهما العشاء، أكدت له ما كان يفكر به ورجته السفر إلى فرنسا خلال بضعة أيام من أجل مغامرة تسوق أخرى. رفض قائلاً إن بعض المؤلفين المهمين في طريقهم إليه، وينبغي عليه الاهتمام بالمتجر. في تلك الليلة ناما في المنزل للمرة الأولى على الشيرير الحديدي الذي ابتاعته بالقرب من مدينة أفينيون الفرنسية، حيث تملك شقة صغيرة هناك. يوجد تاريخ خاص لكل قطعة أثاث وملحقاتها ولكل بساط ولوحة ووعاء، كما أن حبها لتلك الأشياء كان معدياً.

في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، احتسبها القهوة في الشرفة الخلفية، وتحديثاً عن المستقبل، الذي كان في الوقت الحالي غير مؤكد، فلديها حياتها في

نيو أورليانز ولديه حياته في الجزيرة. كان الوضع محرّجاً وسرعان ما غيرا الموضوع. اعترف بروس أنه لم يذهب إلى فرنسا أبداً من قبل وبدأ يخططان لقضاء عطلة هناك. بعد وقت قصير من مغادرة نويل المدينة، وصلت الفاتورة الأولى. أتت مع ملاحظة، مكتوبة بخط يدها الجميل وفيها شرحت أنها تتخلى عن أرباحها وتبيع الأغراض بسعر التكلفة. تتم قائلًا، شكراً لله على معجزاته الصغيرة. ثم ذهبت إلى فرنسا لجلب أغراض أخرى!

عادت إلى نيو أورليانز من أفينيون قبل ثلاثة أيام من إعصار كاترينا. لم يتضرر متجرها في الحي الفرنسي ولا شقتها في جاردن ديستريكت، لكنّ المدينة أصيبت بأضرار كبيرة. أغلقت أبواب متجرها وذهبت إلى جزيرة كامينو حيث كان بروس بالانتظار لتهدئتها وتطييب خاطرها. ولعدة أيام شاهدنا الرعب على التلفزيون؛ الشوارع المغمورة بالمياه، والجثث العائمة والنفط المراق في المياه، والهروب المسعور لنصف السكان وعمال الإنقاذ المذعورين، والسياسيين المتلعثمين.

لقد شكّنت نويل بقدرتها على العودة، وهي لم تكن واثقة من رغبتها بذلك.

بالتدريج، بدأت الحديث عن تغيير مكان الإقامة. كان نصف زبائنها من نيو أورليانز تقريباً، وبتهجير قسم منهم أصبحت قلقة على عملها. كانت شهرتها واسعة ومعروفة جيداً فهي تشحن القطع الأثرية إلى كل مكان. كما كان موقعها على الإنترنت يحقق نجاحاً كبيراً وكتبها مشهورة والكثير من معجبيها جامعي تحف جديين. نتيجة لحث بروس المتواصل، أقنعت نفسها بنقل عملها إلى الجزيرة حيث تستطيع أعمالها أن تزدهر.

بعد مضي ستة أسابيع على الإعصار، وقّعت نويل عقد إيجار محل صغير

في الشارع الرئيس في سانتا روزا، بالقرب من متجر باي بوكس. أغلقت متجرها في رويال ستريت، ونقلت ما تبقى من مخزونها إلى متجرها الجديد الذي دعتة، نويلز بروفينس. وعندما وصلت شحنة جديدة من فرنسا، فتحت الأبواب بحفل شمبانيا وكافيار، وساعدها بروس على الاهتمام بالناس.

في مرحلة من المراحل توقفت الفواتير عن الوصول، فتطرق للموضوع بخجل، وشرحت بكثير من الدراما أنه وإن كان مالك المنزل، لكن كل ما في داخله سيكون ملكية مشتركة.

8

في نيسان من العام 2006، أمضيا أسبوعين في جنوب فرنسا. ومن منزلها في أفينيون، تجولا من قرية إلى أخرى ومن سوق إلى آخر، وتناولوا طعاماً كان بروس يراه في الصور فقط، وشربا نبيذاً محلياً رائعاً لا يتوافر في الوطن، وأقاما في فنادق وديعة، يمتعان ناظريهما بالمشاهد الطبيعية ويلتقيان بأصدقائها وبالطبع، يتسوقان مزيداً من القطع لمتجرها. وبروس الباحث دائماً، أقحم نفسه في عالم الأثاث الريفي الفرنسي والقطع الفنية، وشعر أنه اكتسب خبرة ستمكنه قريباً من إبرام صفقة.

كانا في نيس عندما قررا الزواج، في ذلك الوقت وذلك المكان مباشرةً.

الفصل الثالث المجندة

1

في أحد أيام الربيع الرائعة نهاية نيسان، سارت ميرسر مان بشيء من القلق داخل حرم جامعة شمال كارولينا في مدينة تشابل هيل. كانت قد وافقت على لقاء إحدى النساء الغريبات لتناول غداء سريع، لكن فقط بسبب احتمال الحصول على عمل. فعملها الحالي أستاذة مساعدة في الأدب لطلاب السنوات الأولى سيتوقف خلال أسبوعين نتيجة خفض الميزانية الذي أقره المجلس التشريعي للولاية الذي يُسيطر عليه أولئك المسعورون بشأن الضرائب وخفض الإنفاق. لقد سعت بشدة للحصول على عقد جديد، لكنها لم تحصل عليه. وقريباً ستصبح عاطلة عن العمل، وهي لا تزال ترزح تحت الديون وبلا مأوى ولا رواية لديها قيد الطباعة. كانت بعمر الواحد والثلاثين عزباء وبصحة جيدة، ولكن حياتها لم تكن تسير كما هو مُخطَّط لها بالضبط.

وصل البريد الإلكتروني الأول من المرأة الغريبة التي تحمل اسم دونا واتسون البارحة، واكتنفه الغموض إلى حدّ كبير، إذ ادعت الأنسة واتسون أنها مستشارة استعانت بها إحدى الأكاديميات الخاصة لإيجاد أستاذة جديدة في مادة

الكتابة الإبداعية لطلاب السنة الأخيرة في المرحلة الثانوية. لقد كانت موجودة بالجوار وبإمكانها الحضور لتناول كوب من القهوة. الراتب بحدود خمسة وسبعين ألف دولار في السنة كحد أعلى، لكن مدير المدرسة يحبّ الأدب وهو مُصمم على تعيين أستاذ نشر رواية أو اثنتين فعلياً.

لقد أنجزت ميرسر رواية واحدة إلى جانب مجموعة قصصية. وكان الراتب رائعاً حقاً، وأكثر مما تحصل عليه في الوقت الراهن، ولم تُقدّم أي تفاصيل أخرى. ردّت ميرسر على البريد الإلكتروني بالموافقة، وسألت بضعة أسئلة عن المدرسة لا سيما عن اسمها وموقعها.

كان البريد الإلكتروني الثاني أقل غموضاً من الأول، وكشف أنّ المدرسة في نيو إنجلاند. كما تطوّر اللقاء من أجل تناول القهوة إلى «غداء سريع». هل بإمكان ميرسر اللقاء بها في مكان يُدعى سبانكيز، يقع بالقرب من حرم الجامعة تماماً في شارع فرانكلين؟

أُخرجت ميرسر إذ إنّ فكرة غداء لطيف في الوقت الحالي كانت أكثر إغراءً من فكرة تعليم مجموعة من طلاب المرحلة الثانوية المحظوظين. وبالرغم من الراتب العالي إلا أنّ الوظيفة كانت بالتأكيد خطوة إلى الوراء. لقد وصلت إلى مدينة تشابل هيل قبل ثلاث سنوات لتعمل في التعليم بينما تُنتهي روايتها الحالية وهو الأمر الأكثر أهمية. وبعد ثلاث سنوات، فُصلت عن العمل، ولم تكمل روايتها.

ما إن دخلت المطعم، حتى لوّحت لها امرأة أنيقة الملبس رشيقة القوام بعمر يناهز الخمسين ودعتها إلى طاولتها ثم مدّت يدها وقالت: «أنا دونا واتسون. أسعدني لقاءك». جلست ميرسر إلى الطاولة قبالة دونا وبادرتها

بالشكر على الدعوة. وضع أحد النادلين قائمتي طعام على الطاولة.

دون إهدار أي وقت، أصبحت دونا واتسون شخصاً آخر. قالت: «يجب أن أقول لك إنني هنا بناءً على ادعاءات كاذبة، مفهوم؟ فاسمي ليس دونا واتسون بل إيلين شيلبي. وأنا أعمل في شركة مقرها مدينة بيزيسدا».

نظرت ميرسر إليها بذهول، ثم أشاحت بوجهها، ونظرت إلى الخلف، وحاولت بشجاعة التفكير برديّ مناسب.

تابعت إيلين كلامها وقالت: «لقد اختلقت موضوع التدريس. أعتذر عن ذلك وأعدك أنني لن أكذب مرة أخرى، لكن أنا جادة بشأن الغداء وسأدفع الحساب، لكن أصغي إليّ بكل جوارحك».

أجابت ميرسر بتحفظ: «لا بد أن السبب الذي حملك على الكذب مهم».

«هذه إجابة جيدة للغاية، وفي حال تغاضيت عن هذه الإهانة وأصغيت إليّ، أعدك بأنني أستطيع التوضيح».

هزّت ميرسر كتفيها وقالت: «أنا جائعة. لذا، سأبقى أستمع إليك إلى أن أشعر بالشبع، وفي حال لم توضح الأمور حتى ذلك الحين سأغادر».

أظهرت إيلين ابتسامة لا يسع أي شخص سوى الوثوق بها. لديها عينان سوداوان وبشرة سمراء، واعتقدت ميرسر أنها ربما تتحدّر من بلد متوسطي كإيطاليا أو اليونان مثلاً، كما اعتقدت أنّ لكنتها من مناطق الغرب الأوسط العليا، إنها أمريكية قطعاً. كان شعرها الرمادي القصير مقصوفاً بطريقة جميلة للغاية لدرجة أنّ عدة رجال نظروا إليها أكثر من مرة. إنها امرأة جميلة بلباس رائع لا يتناسب بتاتاً مع الملابس العادية التي يرتديها العاملون في الكليات.

قالت: «لكني لم أكذب بشأن الوظيفة. ولهذا أنا هنا كي تقبلي بالعمل، وهو بمزايا وشروط أفضل من التي ذكرتها في البريد الإلكتروني».

«ما المطلوب مني؟».

«الكتابة، إنهاء روايتك».

«أي واحدة؟».

عاد النادل، وعلى الفور طلبتا سلطة دجاج مشوي مع مياه غازية. فرفع قائمتي الطعام واختفى، وبعد فترة من الصمت قالت ميرسر: «أنا أصغي إليك».

«إنها قصة طويلة».

«دعينا نبدأ بالمشكلة الواضحة؛ أنت».

«حسناً. إنني أعملُ في شركة مُتخصصة في مجال الأمن والتحريرات. إنها شركة قائمة لم تسمعي بها من قبل لأننا لا ننشر إعلانات، وليس لدينا موقع على شبكة الإنترنت».

«هذا لا يوضح لي شيئاً».

«انتظري رجاءً. سيتحسن الوضع. قبل ستة أشهر، سرقت عصابة مخطوطات فيتزجيرالد من مكتبة فايرستون في جامعة برينستون. قُبض على اثنين ولا يزالان في السجن. اختفى الباقيون، ولم يتم إيجاد المخطوطات».

أومأت ميرسر برأسها وقالت: «لقد حظيت السرقة بتغطية إعلامية واسعة».

«هذا صحيح. لقد أمّن عميلنا على المخطوطات الخمسة كلها، وهذا العميل هي شركة خاصة تقوم بالتأمين على الأعمال الفنية والكنوز والممتلكات

النادرة. أشك بأنك سمعتِ بها أيضاً».

«أنا لا أتتبع أخبار شركات التأمين».

«من حسن حظك. أياً يكن الأمر، نحن نبحث ونحقق منذ ستة أشهر، ونعمل عن قرب مع مكتب التحقيقات الفيدرالي ووحدة استعادة الممتلكات النادرة التابعة له. الضغط كبير، لأنه خلال ستة أشهر سيُجبر عميلنا على تحرير شيك لصالح جامعة برينستون بقيمة خمسة وعشرين مليون دولار. في الواقع، لا تسعى الجامعة وراء النقود، فهي تريد المخطوطات التي كما يمكن أن يتبادر إلى ذهنك، لا تُقدّر بثمن. توصلنا لبعض الخيوط لكنها حتى الآن ليست بذات أهمية. لحسن الحظ، ليس هناك كثير من اللاعبين في العالم المُظلم للكتب والمخطوطات المسروقة، ونحن نعتقد أننا ربما أمسكنا بطرف خيط يدل على سمسار بعينه».

وضع النادل زجاجة بيليغرينو بينهما مع كأسين فيهما ثلج وليمون. وعندما غادر، تابعت إيلين كلامها: «إنه شخص ربما تعرفينه».

حدّقت ميرسر إليها ثم هزّت كتفيها وقالت: «سيكون هذا صادماً».

«لديك تاريخ طويل يربطك بجزيرة كامينو. فقد قضيتِ عدة فصول صيف هناك وأنت طفلة مع جدتك في الشاليه على الشاطئ».

«كيف تعرفين هذا؟».

«لقد كتبتِ عنه».

تنهّدت ميرسر وأمسكت بالزجاجة. ملأت الكأسين ببطء بينما كانت تشرّد بعيداً في أفكارها ثم قالت: «دعيني أحزر. لقد قرأتِ كل شيء كتبتُه».

«كلا. فقط كل ما نشرته. إنه جزء من تحضيرنا لعملنا، وقد كان ممتعاً فعلاً».

«شكراً لك. للأسف ليس هناك المزيد منه».

«أنتِ شابة وموهوبة وقد بدأتِ للتو».

«دعينا نسمع ما لديك. دعينا نرى مدى قيامك بعملك».

«بكل سرور. لقد نُشرت أول رواية لك بعنوان مطر تشرين الأول في دار نيوكومب للطباعة عام 2008، عندما كنتِ في الرابعة والعشرين من عمرك. وكانت مبيعاتها مُحترمة – ثمانية آلاف نسخة ذات تجليد فني، وضعف الكمية بالنسخة ذات الغلاف الورقي، بالإضافة لبعض الكتب الإلكترونية – لم تكن الأكثر مبيعاً تماماً، لكنّ النقاد أحبوا».

«قبلة الموت».

«لقد رُشحت لنيل جائزة الكتاب الوطني ووصلت إلى المرحلة النهائية لنيل جائزة بن/فولكنر».

«ولم تربح أياً منهما».

«كلا، لكن القليل من الروايات الأولى تحظى بهذا القدر من الاحترام، وخاصةً إن كان الكاتب شاباً. لقد اختارتها صحيفة التايمز كواحدة من أفضل عشرة كتب في العام لديها. وقد أتبعتها بمجموعة قصصية بعنوان موسيقى الأمواج، أسبغ النقاد المديح عليها أيضاً، لكن كما تعلمين، المجموعات القصصية لا تحقق مبيعات مرتفعة».

«نعم، أعلم ذلك».

«بعد ذلك غيّرتِ الوكيل والناشر، وحسنأً، لا يزال العالم بانتظار الرواية التالية. في غضون ذلك، نشرت ثلاث قصص في مجلات أدبية، من ضمنها واحدة عن حماية بيوض السلاحف في الشاطئ مع جدتك تيسا».

«أذا أنتِ تعلمين بشأن تيسا؟».

«اصغي يا ميرسر، نحن نعلم كل ما يجب أن نعلمه، ومصدرنا هي سجلات عامة. نعم لقد قمنا بالكثير من التفتيش والتجسس، لكننا لم نبحث في حياتك الخاصة أكثر مما هو متوفر لأي شخص آخر. فبوجود الإنترنت هذه الأيام ليس هناك كثير من الخصوصية».

وصل طبقا السلطة، فأمسكتُ ميرسر بسكينها وشوكتها وأكلت بعض اللقعات بينما كانت إيلين ترتشف الماء وتراقبها. أخيراً، سألتُ ميرسر: «هل ستأكلين؟».

«بالتأكيد».

«إذاً، ما الذي تعرفينه عن تيسا؟».

«إنها والدة أمك. وقد بنت شاليه الشاطئ في جزيرة كامينو مع زوجها عام 19. إنها يتحدران من ممفيس، حيث وُلدت، وكانا يقضيان عطلهما هناك. مات جدك عام 1985، وغادرت تيسا ممفيس وانتقلت للعيش على الشاطئ. وقد أمضيت هناك فصول صيف طويلة معها عندما كنت طفلة ومراهقة، مرة أخرى، هذا ما كتبته».

«صحيح».

«ماتت تيسا في حادث إبحار، ووجد جثمانها على الشاطئ بعد يومين من العاصفة. كما لم يتم إيجاد رفيقها أو قاربه أبداً. هذا كله كان موجوداً في

الصحف، وبشكل رئيسي في صحيفة تايمز - يونيون. وبحسب السجلات العامة، فإنّ وصية تيسا تركت كل شيء ومن ضمنه الشاليه لأبنائها الثلاثة، إحداهم هي أمك. لاتزال من ضمن العائلة».

«إنها كذلك. وأنا أملك نصف الثلث، ولم أر الشاليه منذ أن ماتت. أود بيعه لكنّ العائلة لا تتفق على شيء».

«هل الشاليه مُستخدم بأي شكل من الأشكال؟».

«نعم. خالتي تُمضي فصل الشتاء هناك».

«خالتك جاين».

«هي بعينها. وأختي تقضي عطلتها الصيفية هناك. من باب الفضول، ما الذي تعرفينه عن أختي؟».

«تعيش كوني في ناشفيل مع زوجها وابنتيها المراهقتين. عمرها أربعون عاماً وهي تعمل في مجال عمل العائلة. زوجها يملك سلسلة من محلات اللبِن المجمّد وهو يبلي بلاءً حسناً. وهي حاصلة على شهادة في علم النفس من جامعة سانت مارتن. من الواضح أنها التقت بزوجها هناك».

«وأبي؟».

«هيربرت مان، امتلك أكبر وكالة بيع سيارات فورد في منطقة ممفيس. يبدو أنه كان هناك بعض النقود بما يكفي لتغطية كلفة دراسة كوني الخاصة في جامعة سانت مارتن، من دون أي قروض. ولسبب ما انتقل العمل إلى الجنوب، خسر هيربرت العمل، عمل في السنوات العشر الأخيرة كشافاً للمواهب بدوام جزئي لصالح فريق البيسبول بالتيمور أوريولز. وهو يعيش الآن في تكساس».

وضعت ميرسر سكينها وشوكتها على الطاولة، وتنهدت بعمق وقالت: «أنا آسفة، لكنّ هذا غير مُطمئن. لا أستطيع تجنب الشعور بأنّي مراقبة عن قرب. ما الذي تريدينه؟».

«أرجوك يا ميرسر، لقد جمعنا معلوماتنا بعملية تقصّ قديمة الطراز. فنحن لم نر أي شيء لم يكن من المفروض ألا نراه».

«هذا مخيف، هل تفهمين؟ هناك جواسيس محترفون يبحثون في ماضيي. ماذا بشأن الوقت الحاضر؟ ما مقدار ما تعرفينه حول وضعي الوظيفي؟».

«لقد ألغيت وظيفتك بسبب...».

«إذاً أنا بحاجة إلى عمل».

«أظن ذلك».

«هذا ليس سجلاً عاماً. كيف تعرفين من الذي استُخدم أو فُصل في جامعة شمال كارولاينا؟».

«لدينا مصادرنا».

«قطّبت ميرسر حاجبيها، ودفعت بطبق سلطتها بمقدار إنش أو اثنين، وكأنّها انتهت من طعامها. طوت ذراعيها على صدرها، وعبست وهي تنظر إلى السيدة شيلبي ثم قالت: «لا أستطيع تجنب الشعور بأنّ، حسناً، بأنّ حقوقي مُنتهكة».

«رجاءً يا ميرسر، أصغي لي. من المهم أن نحصل على أكبر قدر ممكن من المعلومات».

«من أجل ماذا؟».

«من أجل العمل الذي نقترحه عليكِ. في حال رفضت، سنرحل ببساطة ونرمي بالملف الخاص بك. ولن نُفصح عن أي من معلوماتنا».

«ما هو العمل؟».

تناولت إيلين لقمة صغيرة ومضغتها لفترة طويلة. وبعد رشفة من الماء قالت: «بالعودة إلى مخطوطات فيتزجيرالد. نحن نعتقد أنها مخفية في جزيرة كامينو».

«ومن هو الشخص الذي يمكن أن يخفيها؟».

«أريد منك أن تؤكد لي بأن ما ناقشه من الآن فصاعداً سيبقى طي الكتمان. فأي كلمة من هنا أو هناك قد تسبب ضرراً لا يمكن إصلاحه، ليس فقط بالنسبة إلى عميلنا، أو إلى جامعة برينستون، بل إلى المخطوطات نفسها».

«من ذا الذي قد أخبره عن هذا الأمر بحق الجحيم؟».

«رجاءً، عديني بذلك فقط».

«السرية تقتضي الثقة. ولماذا بحق السماء ينبغي لي أن أثق بك؟ فأنا أجدك وشركتك مريبين للغاية».

«أفهم ذلك. لكن رجاءً اسمعي بقية القصة».

«حسناً، أنا أصغي إليك، لكنني شبعت. من الأفضل لك أن تتكلمي بسرعة».

«هذا عادل بما يكفي. لقد ذهبت إلى متجر الكتب في وسط مدينة سانتا روزا، متجر باي بوكس. يملكه شخص اسمه بروس كابل».

هزت ميرسر كتفيها وقالت: «أظن ذلك. لقد ذهبت إلى هناك عدة مرات مع تيسا عندما كنت طفلة. مرة أخرى، أنا لم أعد إلى الجزيرة منذ أن ماتت وهذا

كان منذ أحد عشر عاماً».

«إنه متجر ناجح، واحد من أفضل المتاجر المستقلة في البلاد. كابل مشهور جداً في هذا المجال من العمل وهو محتال كبير. فله شبكة علاقات واسعة ويستقبل كثيراً من الكُتاب في رحلاتهم الترويجية».

«كان من المفترض بي أن أذهب إلى هناك مع كتابي مطر تشرين الأول، لكن هذه قصة أخرى». «صحيح، حسناً، كابل أيضاً جامع نشيط لطبعات الكتب الأولى المعاصرة. فهو يتاجر بالكثير منها، ونشك أنه يجني أموالاً كثيرة من هذا الجزء من العمل. ومعروف عنه أيضاً أنه يتعامل بالكتب المسروقة، وهو واحد من قلة في ذلك العمل القذر. لقد تتبعنا أثره قبل شهرين بعد ورود معلومة من مصدر قريب لجامع كتب آخر. نحن نعتقد أنّ كابل يملك مخطوطات فيتزجيرالد، وقد اشتراها نقداً من وسيط كان يتوق إلى التخلص منها».

«فعلاً، لقد اختفت شهيتي لتناول الطعام».

«لا نستطيع الاقتراب من الرجل. لدينا أشخاص في المتجر منذ شهر، يراقبون ويتقصون ويلتقطون صوراً وفيديوهات سراً، لكننا اصطدنا بجدار. لديه غرفة كبيرة وجميلة في الطابق الأرضي حيث يحتفظ برفوف من الكتب النادرة، بشكل رئيسي لكُتاب أمريكيين من القرن العشرين، وهو سيُريها بسعادة لأي شارٍ جدي. حتى أننا حاولنا بيعه أحد الكتب النادرة، وهو نسخة شخصية وموقّعة لرواية فولكنر الأولى، رواتب الجنود. لقد علم كابل على الفور أنّ هناك بضع نسخ فقط في العالم، من بينها ثلاث في مكتبة الكلية في ميسوري، وواحدة يملكها أحد الباحثين في أدب فولكنر، وواحدة لا تزال موجودة لدى أحفاد فولكنر. كان سعر السوق بحدود أربعين ألف دولار، ونحن

عرضناها على كابل بخمسة وعشرين ألف دولار. بدا مهتماً في البداية، لكنه طرح كثيراً من الأسئلة بشأن مصدر الكتاب. أسئلة جيدة فعلاً. وفي النهاية خاف ورفض. كان شديد الحرص في ذلك الوقت، وهذا أثار شكوكنا. لقد تقدمنا قليلاً ونجحنا بالدخول إلى عالمه ونحن نحتاج إلى شخص في الداخل». «أنا؟».

«نعم أنت. فكما تعلمين، غالباً ما يأخذ الكُتّاب فترات راحة ويسافرون بعيداً ليقوموا بعملهم. لديك الحجة المثالية. فأنت ترعرت في الجزيرة عملياً ولا يزال لديك حصة في الشاليه. ولديك سمعتك الأدبية. وقصتك مقنعة تماماً. ستعودين إلى الشاطئ لمدة ستة أشهر من أجل إنهاء روايتك التي ينتظرها الجميع».

«ربما أستطيع أن أفكر بثلاثة أشخاص يمكن أن يكونوا بانتظارها».

«سندفع مائة ألف دولار مقابل الأشهر الستة التي أتحدث عنها».

للهولة الأولى عقدت الصدمة لسان ميرسر هزت رأسها كعلامة على النفي، وأبعدت طبق السلطة أكثر، ثم أخذت رشفة من الماء وقالت: «أنا آسفة لكني لستُ جاسوسة».

«ونحن لا نطلب منك أن تتجسّسي، كل ما هو مطلوب منك هو المراقبة. أنتِ تفعلين شيئاً طبيعياً تماماً وقابلاً للتصديق. كابل يحب الكُتّاب. فهو يتناول العشاء والشراب معهم يشرب النبيذ ويتعشى معهم، ويدعمهم. ويقوم كثير من الكُتّاب في رحلاتهم الترويجية في منزله، وهو منزل رائع بالمناسبة. فهو وزوجته يستمتعان باستضافة حفلات عشاء طويلة مع أصدقائهم والكُتّاب الذين يعملون معهم».

«ومن المفترض بي أن أدخل إلى هناك مباشرة، وأحظى بثقته، ثم أسأله عن المكان الذي يخفي فيه مخطوطات فيتزجيرالد».

ابتسمت إيلين ومررت الموقف ثم قالت: «نحن نرزع تحت ضغط كبير، مفهوم؟ ليس لديّ فكرة عما يمكن أن تعرفيه، لكن في هذه المرحلة أي شيء يمكن أن يكون مفيداً. هناك فرصة جيدة بأن يتصل بك كابل وزوجته، ربما حتى يصادقناك، وشيئاً فشيئاً يمكنك أن تشقي طريقك إلى داخل حلقتة الضيقة. هو أيضاً يشرب كثيراً. وربما يزل لسانه بشيء ما، ربما سيذكر أحد أصدقائه السرداب الذي في القبو تحت المتجر».

«سرداب؟».

«مجرد إشاعة، هذا كل شيء. لكن لا يمكننا أن ندخل ونسأله عنه».

«كيف تعلمين أنه يشرب كثيراً؟».

«يزوره كثير من الكُتاب، ومن الواضح أن الكُتاب نامون فظيعون. الكلام ينتشر. وكما تعلمين، عالم نشر الكتب صغير جداً».

رفعت ميرسر كلتا يديها، وأظهرت راحتيها، ثم دفعت كرسيها للخلف وقالت: «أنا آسفة. هذا العمل لا يناسبني. لديّ أخطائي، لكنني لستُ شخصاً مخادعاً. لديّ مشكلة في الكذب وليس هناك من طريقة أتمكن فيها من القيام بشيء مثل هذا. لقد تحدثت مع الشخص الخطأ».

«رجاءً».

وقفت ميرسر وكانت على وشك المغادرة: «شكراً على الغداء».

«أرجوك يا ميرسر».

لكنها كانت قد غادرت.

2

في مرحلة ما خلال فترة الغداء المُقتضب، غابت الشمس واشتدت سرعة الرياح. كان هناك أمطار ربيعية في الطريق، وكالعادة مشيت ميرسر من دون مظلة إلى المنزل بأسرع ما يمكنها. كانت تقطن على بعد نصف ميل، في القسم التاريخي لمدينة تشابل هيل، قرب الحرم الجامعي، في منزل صغير مستأجر يقع في زقاق غير مرصوف خلف منزل قديم. كان مالك منزلها وهو مالك المنزل القديم أيضاً، يؤجر طلاب المرحلة الجامعية الأولى وأساتذة الجامعة غير المُتفرّغين.

وفي توقيت مثالي، خرجت إلى شرفة منزلها الأمامية الضيقة بينما كانت قطرات المطر الأولى تهطل بشدة فوق سقفها المصنوع من الصفيح. لم تستطع تجنب اختلاس بعض النظرات حول المكان كي تتأكد من أنّ أحداً لا يراقبها. من كان هؤلاء الناس؟ قالت في نفسها: دعك من ذلك. وفي الداخل، خلعت حذاءها وحضرت كوباً من الشاي، ثم جلست لوقت طويل على الأريكة، تأخذ أنفاساً عميقة وتستمع إلى لحن المطر المتساقط، وهي تستعيد شريط المحادثة التي جرت على الغداء.

بدأت الصدمة الأولى لكونها مُراقبة. كانت إيلين على حق - لا يوجد خصوصية حقيقةً هذه الأيام مع الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي والهاكرز في كل مكان وكل هذا الحديث عن الشفافية. لقد اضطرت ميرسر للاعتراف أنّ الخطة في غاية الذكاء. فهي المُجنّدة المثالي: كاتبة ذات تاريخ طويل في الجزيرة، وهي تملك حصّة إرثية في الشاليه، وهناك رواية غير مكتملة، وروح وحيدة تبحث عن أصدقاء جدد. لن يشك بروس كابل في أن

تكون مزروعة هناك لغرض التجسس.

لقد تذكرته بشكل جيد، ذلك الشخص الوسيم الذي يرتدي بذلات جميلة وربطات عنق على شكل فراشة والذي لا يرتدي جوارب، ذو الشعر الطويل المموج، والسُمرة الدائمة التي اكتسبها من إقامته في فلوريدا. كان بإمكانها رؤيته وهو يقف دائماً قرب الباب الرئيسي يحتسي القهوة ويديه كتاب، يراقب كل شيء بينما يقرأ. والسبب ما لم تحبه تيسا، ونادراً ما ذهبت إلى المتجر. هي أيضاً لم تشتري الكتب. ولماذا تشتري كتباً بينما بإمكانها الحصول عليها من المكتبة مجاناً؟

حفلات التوقيع على الكتب والرحلات الترويجية للكتاب. لا يسعها إلا أن تتمنى لو أنّ لديها رواية تروج لها.

عندما نُشرت رواية مطر تشرين الأول عام 2008، لم يكن لدار نيوكومب للنشر أي ميزانية من أجل الدعاية والسفر. أياً يكن الأمر، فقد أفلست الشركة بعد ثلاث سنوات. لكن بعد مراجعة نقدية إطنائية في جريدة التايمز، اتصلت بعض متاجر الكتب مستفسرةً عن إقامة جولة ترويجية لروايتها. تمّ تحضير جولة على عجل وحُدّدت المحطة التاسعة لميرسر كي تكون في متجر باي بوكس. لكنّ الجولة الترويجية خرجت تقريباً عن مسارها على الفور عندما حضر أحد عشر شخصاً في أول توقيع للرواية في العاصمة واشنطن، لم يشتر سوى خمسة منهم الرواية. وهذا كان أكبر جمهور لها! وفي حفل توقيعها الثاني، في فيلادلفيا، وقف أربعة معجبين في الصف كما أمضت ميرسر ساعتها الأخيرة تتبادل الأحاديث مع الطاقم. ثالث محطة لها وكما تبين أنها كانت آخر توقيع للكتاب، كان في متجر كبير في هارتفورد. ففي حانة في الجانب المقابل للشارع، تناولت كأسين من المارتيني بينما كانت تراقب وتنتظر حضور

الحشود. لكن أحداً لم يحضر. أخيراً، عبرت الشارع، ودخلت متأخرةً عشر دقائق عن موعدها، وكانت مُحببةً عندما أدركت أنه لم يكن ينتظرها سوى عامل الحانة. لم يحضر أي مُعجب.

لقد اكتمل شعورها بالإذلال. لن تعرّض نفسها مرة أخرى للإحراج بأن تجلس على طاولة وحيدة مع كدسة من الكتب الجميلة وتحاول تجنب تلاقي عينيها مع زبائن يحاولون عدم الاقتراب كثيراً. كانت تعرف كُتاباً آخرين، قلة منهم على أية حال، وقد سمعت قصصاً مرعبة بشأن الوجود في متجر كتب وأن تستقبلك الوجوه الودودة للموظفين والمتطوعين، وتتساءل كم واحداً منهم هو زبون ومُشتر للكتاب حقاً، وتراقبهم وهم يتلفتون بعصبية بحثاً عن مُعجب محتمل، وحينئذٍ تراهم يبتعدون للأبد عندما يبدو واضحاً بأن الكاتب المحبوب كان على وشك أن يضع بيضة. بيضة أوز كبيرة.

أيا يكن الأمر، لقد ألغت ما تبقى من رحلتها الترويجية، كما أنها لم تكن متحمسة جداً لفكرة العودة إلى جزيرة كامينو بكل الأحوال. لديها كثير من الذكريات الرائعة هناك، لكنّ هول ومأساة موت جدتها ستبقى دائماً طاغية عليها.

جعلها المطر تشعر بالنعاس فغطت في قيلولة طويلة.

أيقظها صوت وقع أقدام عند الساعة الثالثة ظهراً. كان ساعي البريد يمشي فوق أرضية شرفتها المتشقة ويترك لها بريداً في الصندوق الصغير بجانب الباب الرئيسي. انتظرت لبرهة من الوقت إلى أن غادر، ثم أخذت الرزمة اليومية، وهي دائماً مجموعة كئيبة من الأشياء غير المرغوب بها إضافة

للفواتير. رمتها على إحدى طاولات القهوة، وفتحت رسالة مُرسلة من جامعة شمال كارولاينا. كانت من مدير قسم اللغة الإنكليزية، وبالرغم من الكلمات اللطيفة، أبلغها رسمياً أنّ وظيفتها أُلغيت. لقد كانت «عنصراً قيماً» لطاقتهم العمل، و«معلمة موهوبة» وأنها «مُقدّرة من جانب جميع زملائها» و«أنّ طلابها يحبونها كثيراً»، وما إلى ذلك. وأنّ «القسم بأكمله» يريد أن تبقى ويعتبرونها «إضافة كبيرة»، لكن للأسف وببساطة، ليس هناك إمكانية في الميزانية. كما أعرب عن أفضل أمنياته لها، وترك الباب مفتوحاً لأمل ضعيف بـ «منصب آخر» في حال «عادت» الاعتمادات المالية في السنة القادمة» إلى «مستوياتها الطبيعية».

معظم فحوى الرسالة صحيح، فالمدیر حليف لها، حتى إنه في بعض الأحيان كان مرشداً، وقد تمكنت ميرسر من النجاة من حقل ألغام الوسط الأكاديمي بإبقاء فمها مغلقاً وتجنبها، قدر الإمكان، لأعضاء هيئة التدريس المُثبّتين.

لكنها كانت كاتبة، وليست معلمة، وقد حان الوقت للمضي قدماً. إلى أين، لم تكن متأكدة، لكن بعد قضاء ثلاث سنوات في التدريس، تاقّت إلى حرية مواجهة كل يوم بعدم القيام بأي شيء سوى كتابة رواياتها وقصصها.

احتوى المغلف الثاني على كشف حساب بطاقتها الائتمانية، الذي يُظهر أسلوب حياتها المُقتصد وجهودها اليومية لتوفير المال. وهذا مكنها من تسديد مصروفاتها كل شهر لتتجنّب معدلات الفائدة المرتفعة الذي يتوق البنك لتراكمها فوق المبالغ المُرحّلة. بالكاد غطى راتبها هذه المصاريف إلى جانب الإيجار وتأمين السيارة وإصلاحها وبوليصة تأمين صحي بأدنى درجاتها، كل شهر وبينما تحرر الشيك فكرت بالتخلص منها. ربما كانت في وضع مستقر

مالياً، مع بعض المال الإضافي لشراء خزانة ملابس أفضل، وربما الحصول على بعض المتعة، لولا محتوى المغلف الثالث.

كان المغلف من الهيئة الوطنية لقروض الطلاب التي طاردها على مدى السنوات الثماني الماضية. لقد تمكّن والدها من تغطية نفقات السنة الأولى لتعليمها الخاص في جامعة سيواني. لكنّ إفلاسه المفاجئ ومعاناته النفسية تركها بلا حول ولا قوة. تمكنت ميرسر من تسديد نفقات السنوات الثلاث الأخيرة من خلال قرض يمنح للطلاب والمنح والوظائف والميراث البسيط من أملاك تيسا. كما استخدمت الدفعات المقدمة الصغيرة عن مطر تشرين الأول وموسيقى الأمواج لدفع فوائد قرضها الطلابي لكن بالكاد لامست المبلغ الأساسي المقترض.

لقد تمكنت من إعادة تمويل وهيكله قروضها من خلال الوظائف التي شغلتها، ومع كل مخطط جديد كان القرض يزداد مع أنها عملت في أكثر من وظيفة. الحقيقة، التي لم تخبر أحداً بها، اكتشافها أنه من المستحيل التعبير عن نفسها بشكل إبداعي بينما ترزح تحت وطأة جبل من القروض. ففي كل صباح، وكل صفحة بيضاء، ليس هناك من أمل بفصل آخر لرواية عظيمة، وإنما هو جهد ضعيف لإنتاج شيء ما ربما يرضي مقرضيها.

لقد بلغ بها الأمر أن تكلمت مع صديق محامٍ لها بشأن إعلان عجزها عن السداد، لتعرف فقط أنّ البنوك والشركات التي تمنح قروضاً للطلاب أقنعت الكونجرس بوجوب إعطاء مثل هذه القروض حماية خاصة وأنه لا يجب الإعفاء منها. تتذكره يقول: «اللجنة، حتى المقامرين يستطيعون إعلان عجزهم عن السداد والإفلات من الدين».

هل يعلم من يراقبها ويترصده حركاتها بأمر هذا القرض؟ كان شأننا خاصاً، صحيح؟ لكن شيئاً ما أخبرها أنه يمكن للمحترفين الغوص عميقاً لاكتشاف أي شيء تقريباً. لقد قرأت قصصاً مرعبة عن تسريب أشد السجلات الطبية حساسيةً إلى الأشخاص الخطأ. كما أنّ شركات بطاقات الائتمان كانت مشهورة ببيع معلومات تخص عملاءها. هل هناك شيء مخبأ بأمان؟

أمسكت بالبريد غير المرغوب به، وألقت به في سلة المهملات، ثم احتفظت بالرسالة الأخيرة من جامعة شمال كارولاينا، ووضعت الفاتورتين في خزانة بجانب آلة تحميص الخبز. أعدت كوب شاي آخر، وكانت على وشك الانغماس في قراءة إحدى الروايات عندما رنّ هاتفها.
عادت إيلين.

4

بدأت حديثها قائلةً: «اسمعي، أنا آسفة جداً بشأن الغداء. لم أقصد الإيقاع بك، لكن لم يكن هناك من طريقة أخرى للبدء في الحديث. ما الذي كان يفترض بي فعله؟ هل أمسك بك في الحرم الجامعي وأخبرك بكل ما في قلبي؟».

أغمضت ميرسر عينيها، واتكأت على طاولة المطبخ ثم قالت: «لا بأس. أنا بخير. كل ما في الأمر أنه لم يكن متوقعاً وحسب. أنت تعرفين؟».

«أعرف، أعرف، وأنا آسفة جداً. اسمعي يا ميرسر، سأبقى هنا حتى الغد، قبل أن أتوجه إلى واشنطن. أود إنهاء حديثنا ونحن نتناول العشاء».

«لا شكراً. لقد وجدت الشخص الخطأ لهذا الأمر».

«ميرسر، لدينا الشخص المناسب تماماً، وبصراحة، ليس هناك من أحد آخر. أرجو أن تمنحيني الوقت كي أشرح كل شيء. نحن نحاول إنقاذ

المخطوطات قبل أن تتضرر أو الأسوأ من ذلك، أن تُباع بشكل جزئي لجامعي التحف الأجانب وتضيع للأبد. رجاءً، فرصة واحدة أخرى».

لم يكن لميرسر أن تنكر، على الأقل في سرّها، أن المال كان مشكلة. مشكلة كبيرة حقاً. تردّدت للحظة ثم قالت: «إذاً ما هي بقية القصة؟».

«سيستغرق ذلك بعض الوقت. لديّ سيارة وسائق وسأقلّك عند الساعة السابعة. أنا لا أعرف المنطقة جيداً لكني سمعتُ أنّ أفضل مطعم هو مكان يُدعى لانثيرن. هل ذهبتِ إليه؟».

تعرف ميرسر المكان لكن ليس بإمكانها تحمّل تكاليفه. فسألته وقد شعرت على الفور بالإحراج بسبب البراءة التي بدت عليها: «هل تعرفين أين أقطن؟».

«أوه بالتأكيد. أراك عند الساعة السابعة».

5

كانت السيارة، بالطبع، سيدان سوداء وبدت مريبة للغاية في الجزء الذي تقطن فيه. التقت بها عند المدخل، وصعدت بسرعة إلى المقعد الخلفي مع إيلين. عندما بدأت السيارة بالتحرك، لم تجد ميرسر الجالسة منخفضة الرأس وتتلفت حواليتها أحداً ينظر إليها. لم اهتمتُ للأمر؟ فعقد إيجار شقتها سينتهي في غضون ثلاثة أسابيع، وستغادر المكان إلى الأبد. كانت خطة هروبها الضعيفة تتضمن إقامة مؤقتة في شقة ضمن مرأب لصديقة قديمة لها تقطن في تشارلستون.

إيلين التي ترتدي الآن سروال جينز وسترة زرقاء وتنتعل حذاء باهظ الثمن، أغدقت عليها بابتسامة وقالت: «أحد زملائي ارتاد مدرسة هنا ولا يتحدث عن أي شيء آخر سواها، خصوصاً أثناء موسم كرة السلة».

«هم عنيفون حقاً، لكن هذا ليس شأني، وليست مدرستي».

«هل استمتعتِ بوقتك هنا؟».

كانتا في شارع فرانكلين، تتحركان ببطء عبر المنطقة التاريخية وتمران بالمنازل الجميلة ذات المروج العشبية، كان المطر قد توقف والشرفات والساحات ممتلئة بالطلاب الذين يشربون الجعة ويستمعون إلى الموسيقى.

قالت ميرسر دون إحساس، ولو قليل، بالحنين إلى الماضي: «لا بأس، لكنني لستُ مقطوعة عن الحياة في الوسط الجامعي. كلما أمعنتُ في التدريس زادت رغبتني في الكتابة».

«لقد قلتِ في إحدى المقابلات مع صحيفة الكلية أنك تأملين بإنهاء الرواية وأنت لا تزالين في تشابل هيل. هل هناك من تقدم؟».

«كيف عرفتِ بهذا الأمر؟ لقد مرّ عليه ثلاث سنوات، عندما جنّت هنا للمرة الأولى».

ابتسمت إيلين ونظرت خارج النافذة ثم قالت: «لم نُضَيِّع الكثير». كانت هادئة ومرتاحة وتحدثت بصوت عميق مفعم بالثقة بالنفس. لديها شركتها الغامضة حيث تحتفظ بكل الأوراق. تساءلت ميرسر عن كمية المهام السرية التي جمعتها إيلين إلى جانب بعضها بعض وأدارتها خلال مسيرتها المهنية. بالتأكيد واجهت أعداء أكثر خطورة وتعقيداً بكثير من أحد سماسرة الكتب الذين يعيشون في بلدة صغيرة.

يقع مطعم لانثيرن في شارع فرانكلين على بعد عدة أحياء من مركز الأنشطة الطلابية. أنزلهما السائق عند الباب الرئيسي، ودخلتا إلى المطعم الدافئ الذي كان شبه خالٍ. كانت طاولتهما قرب النافذة، حيث الرصيف

والشارع على بعد عدة أقدام. لقد قرأت ميرسر خلال السنوات الثلاث الماضية كثيراً من الآراء التي تمتدح المكان في المجلات المحلية. حيثهما إحدى النادلات بحرارة، وسكبت ماءً من أحد الأباريق.

سألتهما: «هل أقدم لكما شيئاً للشرب؟».

نظرت إيلين إلى ميرسر التي قالت على الفور: «أريد كأساً من المارتيني المخلوط مع الجين».

بدورها قالت إيلين: «سأخذ كأس مانهاتن».

عندما ذهبت النادلة، قالت ميرسر: «أظن أنك تسافرين كثيراً».

«نعم. كثيراً جداً على ما أظن. أنا أم لولدين في الكلية. وزوجي يعمل في وزارة الطاقة وهو يسافر بالطائرة خمسة أيام في الأسبوع. لقد تعبت من الجلوس في منزل خاوي».

«وهذا ما تفعلينه؟ تقتفين آثار البضائع المسروقة؟».

«نحن نقوم بأشياء كثيرة، لكن نعم، هذا مجال عملي الأساسي. لقد درست الفن كل حياتي ويمكنك القول نوعاً ما إنني استدرجتُ إلى هذا المجال من العمل. فمعظم قضايانا تتعامل مع اللوحات المسروقة والمزيفة. وأحياناً بعض التماثيل رغم أن سرقتها أكثر صعوبة. في هذه الأيام تكثر سرقات الكتب والمخطوطات والخرائط القديمة. لكن لا شيء يشبه قضية فيتزجيرالد. فنحن نزع بكل ما لدينا من أجلها، ولأسباب واضحة».

«لدي كثير من الأسئلة».

هزت إيلين كتفيها وقالت: «وأنا لدي كثير من الوقت».

«وهي دون ترتيب معين. لم لا يضطلع مكتب التحقيقات الفيدرالي بدور قيادي بشأن شيء كهذا؟».

«إنه يقود العمل فعلياً. فوحدة استعادة الممتلكات النادرة تعمل بجد وبشكل رائع. لقد كشف مكتب التحقيقات الفيدرالي القضية خلال الأربع والعشرين ساعة الأولى. فقد ترك أحد اللصوص واسمه ستينجاردن، نقطة دم في مسرح الجريمة، خارج القبو مباشرةً. قبض مكتب التحقيقات الفيدرالي عليه وعلى شريكه الذي يُدعى مارك دريسكول، ووضعاهما في السجن. نحن نظن بأن اللصوص الآخرين فزعوا واختفوا مع المخطوطات. بصراحة، نحن نعتقد أنّ مكتب التحقيقات الفيدرالي تسرّع بالتحرك. فلو أنّهم أبقوا اللصين تحت رقابة مشددة لبضعة أسابيع، لربما قادوهما إلى بقية العصابة».

«هل يعلم مكتب التحقيقات الفيدرالي بشأن جهودك في تجنيدي؟».

«كلا».

«هل يشك مكتب التحقيقات الفيدرالي بروس كابل؟».

«كلا، أو على الأقل أنا لا أعتقد ذلك؟».

«إذاً هناك تحقيقات موازية. تحقيقاتك وتحقيقاتهم».

«نحن لا نتبادل كل المعلومات، يمكنك القول نحن غالباً ما نسير في مسارين مختلفين».

«لكن لماذا؟».

وصل الشراب وسألت النادلة إذا كان هناك أي طلبات. وبما أن أيّاً منهما لم تلمس لائحة الطعام، فقد طلبتا منها بشكل مؤدب الابتعاد. كان المكان يمتلئ

بسرعة، فنظرت ميرسر حولها لترى إذا كانت تعرف أحداً. لكنها لم تميز أحداً تعرفه.

أخذت إيلين رشفة من كأسها، ابتسمت ثم وضعته على الطاولة، وفكرت في جوابها ثم قالت: «إذا شككنا بأن أحد اللصوص يمتلك لوحة أو كتاب أو خريطة مسروقة، عندئذ يكون لدينا أساليب للتحقق من الأمور. نحن نستخدم آخر ما توصلت إليه التكنولوجيا، وأحدث الأدوات وأذكى الناس. وبعض فنيينا هم عملاء استخبارات سابقون. في حال تحققنا من وجود غرض مسروق، إما نخبر مكتب التحقيقات الفيدرالي أو نبدأ الهجوم. هذا يعتمد على القضية وليس هناك قضيتان متشابهتان ولو من بعيد».

«تبدوون بالهجوم؟».

«نعم، تذكري يا ميرسر فنحن نتعامل مع لص يُخفي شيئاً قيماً، شيئاً آمن عليه عميلنا بمبلغ كبير من المال. هذا الشيء لا يخصه، وهو دائماً يبحث عن طريقة لبيعه مقابل مبلغ كبير من المال. وهذا يجعل الوضع دقيقاً جداً. دائماً ما يمر الوقت بسرعة، ومع ذلك علينا أن نُظهر كثيراً من الصبر». أخذت رشفة صغيرة أخرى من كأسها. كانت تنتقي كلماتها بعناية. تابعت كلامها: «يجب على الشرطة وعلى مكتب التحقيقات الفيدرالي القلق بشأن أمور مثل الأسباب الوجيهة ومذكرات التفتيش. ونحن لسنا مقيدين دائماً بهذه الشكليات الدستورية».

«إذا أنتم تكسرون وتقتحمون؟».

«نحن لا نكسر أبداً، لكن أحياناً نقتحم، ولأجل عمليات التحقق والاسترجاع فقط. قليلة هي المباني التي لا نستطيع الدخول إليها بهدوء، وعندما يتعلق

الأمر بإخفاء مسروقاتهم، كثيرون هم اللصوص الذين هم دون مستوى الذكاء الذي يظنون أنفسهم عليه».

«هل تنتصتون على الهواتف وتخرقون الكومبيوترات؟».

«حسناً، دعينا نقل إننا نتتصت في بعض الأحيان».

«حسناً، أنتم تخالفون القانون؟».

«نحن نسمي ذلك العمل في المناطق الرمادية. نحن نتتصت ونهاجم ونتحقق، وحينها في معظم الحالات، نقوم بإخطار مكتب التحقيقات الفيدرالي. هم يقومون بما عليهم باستخدام مذكرات التفتيش المناسبة، وبذلك يستعيد المالك قطعه الفنية. ويذهب السارق إلى السجن، ويحصل مكتب التحقيقات الفيدرالي على التقدير. الجميع سعداء، ربما باستثناء السارق، ونحن لسنا قلقين جداً على مشاعره».

مع الرشفة الثالثة من الكأس، أخذ الجين مفعوله، وبدأت ميرسر بالشعور بالارتياح فقالت: «حسناً، إذا كنتم بهذا القدر من البراعة، لم لا تتسللون إلى قبو كابل وتتفحصون ما في داخله؟».

«كابل ليس لصاً، ويبدو أنه أذكى من المشبوهين العاديين. يبدو شديد الحرص، وهذا يجعلنا أكثر ارتياباً. أي حركة خاطئة هنا أو هناك، يمكن أن تؤدي إلى اختفاء المخطوطات مرة أخرى».

«لكن إذا كنتم تنتصتون وتخرقون الكومبيوترات وتراقبون تحركاته، لم لا تستطيعون الإمساك به؟».

«لم أقل إننا نقوم بفعل كل ما ذكرت. ربما نفعل، وقريباً، لكن في الوقت الحالي نحن بحاجة إلى مزيد من المعلومات الاستخبارية».

«هل اتهم أحد أفراد شركتكم مرةً بمخالفة القانون؟».

«كلا، ولا حتى من قريب. مرة أخرى، نحن نلعب في المنطقة الرمادية، ومن ذا الذي يهتم عندما يتم حل الجريمة؟».

«ربما اللص. لست محامية، لكن ألا يمكن للّص أن يعترض على التفتيش غير القانوني؟».

«ربما ينبغي لك أن تكوني محامية».

«لا أستطيع التفكير بأي شيء أسوأ من ذلك».

«الجواب هو كلا. ليس لدى اللص ومحاميه أدنى فكرة حتى عن وجودنا. فهم لم يسمعوا بنا أبداً ونحن لا نترك أي آثار تدل علينا».

مرت فترة طويلة من الصمت بينما كانتا تركزان على مشروبهما وتنظران إلى قائمة الطعام. أسرعَت النادلة إلى طاولتهما، فأبلغتها إيلين بلطف أنهما ليستا على عجلة من أمرهما. أخيراً، قالت ميرسر: «يبدو كما لو أنك تطلبين مني القيام بعمل من الممكن أن يؤدي بي إلى الدخول في إحدى مناطقك الرمادية، وهذا تعبير مجازي لخرق القانون».

قالت إيلين في سرها، على الأقل هي تفكر بالأمر. فبعد الإنهاء المفاجئ للغداء كانت مقتنعة بأن ميرسر أصبحت من الماضي. التحدي الآن هو في إتمام الصفقة.

طمأنتها إيلين بقولها: «أبداً. وما هو القانون الذي قد تخرقينه؟».

«أخبريني أنت. لديك أناس آخرون هناك. أنا واثقة أنهم لم يبتعدوا. وأنا على ثقة أنهم سيراقبوني عن قرب بالقدر الذي يراقبون به كابل. إذاً هو فريق،

ونوعاً ما، جهد جماعي، وأنا لا فكرة لديّ عما يمكن أن يفعله زملائي الخفيون».

«لا تقلقي بشأنهم. إنهم محترفون على درجة عالية من المهارة، ولم يُقبض عليهم أبداً. أصغ إليّ يا ميرسر، أعدك. لن نطلب منك القيام بأي شيء غير قانوني. أعدك بذلك».

«أنتِ وأنا لسنا مقربتين بما يكفي كي نعطي وعوداً لبعضنا. أنا لا أعرفكِ».

أنهت ميرسر كأس المارتيني وقالت: «أحتاج كأساً أخرى». كان الكحول دائماً أمراً مهماً في هذه الاجتماعات، ولذا أنهت إيلين كأسها أيضاً، ولوّحت بيدها للنادلة. عندما وصل كأسا الشراب الإضافيين، طلبتا لحمًا مطهواً على الطريقة الفيتنامية وسبرينج رولز محشوة بلحم السلطعون.

قالت ميرسر محاولةً تخفيف حالة التوتر: «أخبريني عن نويل بونيت. أثق أنك قمت ببحثك».

ابتسمت إيلين وقالت: «نعم، وأنا واثقة أنك دخلت شبكة الإنترنت بعد الظهر وبحثت عنها».

«لقد فعلت».

«نشرت أربعة كتب حتى الآن، كلها عن الأنتيكات والديكور على الطريقة البروفنسية، ولذا فهي تكشف شيئاً ما عن ذاتها. إنها تتجول كثيراً وتحدث كثيراً، وتمضي نصف السنة في فرنسا. هي وكابل معاً منذ عشر سنوات تقريباً ويبدو أنهما ثنائي رائع. لا يوجد أطفال. حصلت على الطلاق مرة واحدة من قبل لكن ليس بسببه. لا يذهب كابل كثيراً إلى فرنسا لأنه نادراً ما يترك المتجر. ومتجرها الآن يقع بجوار متجره. إنه يمتلك المبنى وقبل ثلاث سنوات طرد

صاحب متجر الخردوات وأعطاه إياه. من الواضح أنّ لا علاقة له بعملها وهي كذلك تبقى بعيدة عن عمله، باستثناء الأمور الترفيحية. كما أنّ كتابها الرابع يتعلق بمنزلها ذي الطراز الفيكتوري والذي يبعد عدة أحياء عن وسط المدينة، وهو يستحق إلقاء نظرة عليه. هل تريدون معرفة بعض الحقائق الفضائحية؟».

«أخبريني. من ذا الذي لا يحبها؟».

«لقد أخبرنا الجميع طيلة السنوات العشر الماضية أنّهما متزوجان وأنهما ارتبطا ببعض على سفح تلة فوق مدينة نيس. إنها قصة رومانسية لكنها ليست حقيقية. هما غير متزوجين، ويبدو أنّهما يحظيان بزواج مفتوح فكلاهما لديه علاقات أخرى لكنهما دائماً ما يعودان إلى بعضهما».

«كيف بحق السماء تعرفين أمراً كهذا؟».

«مرة أخرى، الكتاب ثرثارون. ومن الواضح أنّ بعضهم أكثر انحلالاً».

«لا تشمليني بهذا».

«لا أفعل. أنا أتكلم بصفة عامة».

«تابعي».

«لقد بحثنا في كل مكان، ولم يكن هناك أي سجل عن الزواج، هنا أو في فرنسا. بروس يفعل ما يشاء مع النساء، ونويل تفعل الشيء نفسه مع الرجال. ثمة برج في منزلها مع غرفة نوم في الطابق الثالث حيث ينام الزوار. ومن النادر أن ينام الزائر أو الزائرة من دون أن يشاركه السرير أحد المضيفين».

«حسناً، يُتوقع مني التخلي عن كل شيء من أجل الفريق؟».

«يُتوقع منك أن تكوني قريبة قدر الإمكان، أما كيف تختارين فعل ذلك فهذا رهن بك».

وصل طبق السبرينغ رولز. وطلبت ميرسر فطائر لحم السلطعون مع الحساء. أما إيلين فأرادت الربيان واختارت زجاجة سانكير.
تجاهلت إيلين كأسها الثانية وقالت أخيراً: «هل لي أن أسأل عن شيء شخصي؟».

قهقهت ميرسر، وسألتها: «أوه لمَ لا؟ هل هناك شيء لا تعرفينه؟».
«هناك الكثير. لماذا لم تذهبي إلى الشاليه منذ موت تيسا؟».

أشاحت ميرسر بنظرها بحزن، وفكرت بإجابتها ثم قالت: «الأمر مؤلم جداً. لقد أمضيت كل فصول الصيف هناك منذ أن كنتُ في السادسة وحتى التاسعة عشرة من العمر، تيسا وأنا فقط، ننتزه على الشاطئ ونسبح في المحيط، نتحدث ونتحدث ونتحدث. لقد كانت أكثر بكثير من جدة. كانت صخرتي وأمي وأفضل صديق لي، لقد كانت كل شيء بالنسبة إليّ. كنتُ أقضي تسعة أشهر بآنسة مع أبي أعدّ الأيام إلى أن تنتهي المدرسة كي أستطيع الهرب إلى الشاطئ والتسكع مع تيسا. لقد رجوت أبي كي يدعني أعيش معها طوال السنة، لكنه لم يسمح بذلك. أظن أنك تعرفين بشأن أمي».

هزّت إيلين كتفيها وقالت: «لا أعرف إلا ما دوّن في السجلات».

«تمّ إبعادها عندما كنتُ في السادسة من العمر، لقد جنت وأعتقد أن أبي كان أحد أسباب جنونها».

«هل كان والدك على وفاق مع تيسا؟».

«لا تكوني سخيّة. ما من أحد في عائلتي على وفاق مع أي شخص آخر. كان يكره تيسا لأنها متعجرفة وتعتقد أنّ أمي حظيت بزواج دون التوقعات. كان هيربرت فقيراً يتحدر من الأحياء السيئة لممفيس وقد جنى ثروة من بيع السيارات المستعملة، ومن ثم الجديدة. أما تيسا فتتحدّر من عائلة عريقة في ممفيس مصنعة ومتباهية بتاريخ عائلتها، لكنها لم تكن تملك كثيراً من المال. لا بد أنك سمعت بالمثل الشعبي، (فقيّر جداً كي يستخدم الدهان ومُتكبر جداً كي يُبيّض الجدران). هذا وصف مثالي لعائلة تيسا».

«كان لديها ثلاثة أولاد؟».

«نعم. أمي وخالتي جاين وخالي هولستيد. من ذا الذي يسمي ابنه هولستيد؟ تيسا. فهو من أسماء عائلتها».

«وهولستيد يعيش في كاليفورنيا؟».

«نعم، لقد فرّ من الجنوب قبل خمسين سنة، وسكن إحدى البلدات. في نهاية المطاف، تزوج من مدمنة مخدرات وأنجبا أربعة أطفال، جميعهم مختلفون عقلياً. وبسبب أمي يظنون أننا جميعاً مجانين لكنهم هم المجانين الحقيقيون. إنها عائلة مجيدة».

«هذا قاسٍ جداً».

«أنا في الحقيقة أحاول أن أكون لطيفة. لم يهتم أي منهم لحضور جنازة تيسا، ولذا لم أرهم منذ كنتُ طفلة. وصدقيني، ليس هناك خطط لأي اجتماع لم شمل».

«تتناول رواية مطر تشرين الأول موضوع العائلة المفككة. هل كانت سيرة ذاتية؟».

«من المؤكد أنهم ظنوا كذلك. فقد كتب لي هولستيد رسالة قدرة يقول فيها إنني يجب أن أكون مزارعة. كان هذا آخر مسمار في النعش». أكلت نصف سبرينغ رول، ثم شربت بعض الماء وقالت: «دعينا نتكلم عن شيء آخر». «فكرة جيدة. قلت إن لديك أسئلة».

«وأنت سألت عن سبب عدم رجوعي إلى شاليه الشاطئ. لن يعود الوضع كما كان، ومن الصعب التعامل مع الذكريات. فكري بالأمر. عمري واحد وثلاثون عاماً وأسعد أيام حياتي ورائي، في ذلك الشاليه مع تيسا. لست واثقة من قدرتي على الرجوع إلى هناك».

«لا يفترض بك الرجوع إليه. سنستأجر منزلاً جميلاً لمدة ستة أشهر. لكنّ تنكرك سيكون أفضل في حال استخدمت الشاليه».

«لنفترض أنني أستطيع استخدامه. أختي تستعمل الشاليه لأسبوعين في تموز كل سنة وربما يكون هناك مستأجرون آخرون. فخالتي جاين تهتم به، وأحياناً تؤجره لبعض أصدقائها. وهناك عائلة كندية تسكن فيه في شهر تشرين الثاني من كل سنة. كما تقضي جاين فصل الشتاء هناك من كانون الثاني إلى آذار».

تناولت إيلين لقمة من طعامها، ثم رشفت رشفة من كأسها.

سألت ميرسر: «بدافع الفضول فقط، هل رأيت الشاليه؟».

«نعم. منذ أسبوعين. وهذا جزء من التحضيرات».

«كيف يبدو؟».

«جميل. يحظى برعاية جيدة. أود الإقامة هناك».

«هل لا يزال يوجد بعض المستأجرين على طول الشاطئ؟».

«بالتأكيد. أشك بحدوث كثير من التغييرات خلال أحد عشر عاماً. هذه المنطقة نوعاً ما، تترك انطباعاً بقضاء العطلات كما في الماضي. الشاطئ جميل وغير مزدحم».

«لقد عشنا فوق ذلك الشاطئ. أخرج وتيسا مع بزوغ الشمس لتفقد السلاحف التي قدمت حديثاً والتي صنعت أعشاشها خلال الليل».

«لقد كتبت بشأن ذلك، إنها قصة جميلة».

«شكراً لك».

أنهتا كأسى شرابهما عندما وصلت الأطباق الرئيسية. وافقت إيلين على نوع النبيذ وقامت النادلة بسكب بعض منه في كلتا الكأسين. تناولت ميرسر لقمة، ثم وضعت الشوكة وقالت: «اسمعي يا إيلين، ببساطة أنا لست مستعدة لهذه المهمة. لقد اخترت الشخص الخطأ، مفهوم؟ أنا فاشلة في الكذب وببساطة لست ماهرة في خداع الناس. لا أستطيع إيجاد طريقي داخل حياة بروس كابل ونويل بونيت وداخل مجموعتهما الأدبية الصغيرة ثم أخرج منها بشيء ربما يكون مفيداً».

«لقد قلت هذا مسبقاً. أنت كاتبة تعيشين على الشاطئ لعدة أشهر في شاليه العائلة. أنت تجتهدين في العمل على كتابة رواية. إنها القصة المثالية يا ميرسر، لأنها الحقيقة. ولديك الشخصية المثالية لأنك صادقة. لو كنا نحتاج فنانة محتالة لما كنا نتكلم الآن. هل أنت خائفة؟».

«كلا. لا أدري. هل يجدر بي أن أكون خائفة؟».

«كلا. لقد وعدت أنك أننا لن نجعلك تقومين بأي شيء غير قانوني، ولن يكون

هناك شيء خطير. سأراك كل أسبوع...».

«ستكونين هناك؟».

«سأتي وأذهب، وفي حال احتجتِ إلى صديق سواء ذكر أم أنثى، يمكننا تدبّر وجود أحدهم في الجوار».

«لا أحتاج إلى جليسة أطفال، وأنا لستُ خائفة من أي شيء سوى الفشل. ستدفعين لي مبلغاً كبيراً للقيام بشيء لا أستطيع البدء بتخيله، شيء مهم، ومن الواضح أنك تتوقعين الحصول على نتائج. ماذا لو كان كابل ذكياً وصلباً كما تظنينه ولم يكشف عن أي شيء؟ ماذا لو تصرفت تصرفاً أحمق فشعر بالريبة ونقل المخطوطات؟ أستطيع رؤية كثير من الأساليب لإفشال هذه المهمة يا إيلين. ليس عندي أي خبرة ولا فكرة».

«وأنا أحب صدقك. ولهذا السبب أنت رائعة يا ميرسر. أنت صريحة ومخلصة وشفافة. كما أنك جذابة جداً وسيُعجب بك كابل على الفور».

«هل عدنا إلى الجنس؟ هل هذا جزء من مواصفات الوظيفة؟».

«كلا. مرة أخرى، ما تفعلينه رهن بك».

قالت ميرسر رافعة نبرة صوتها ما استرعى نظرات من الجالسين إلى الطاولة المجاورة: «لكن ليس لديّ فكرة عما يجب أن أفعله! آسفة». تابعتا الأكل بصمت لدقائق.

سألت إيلين: «هل أعجبك النبيذ؟».

«إنه جيد للغاية شكراً لك».

«إنه أحد أنواع النبيذ المفضل لديّ».

«ماذا لو قلت لا مرة أخرى؟ ماذا ستفعلين حينها؟».

رَبَّتْ إيلين بالمنديل على شفيتها، وشربت بعض الماء وقالت: «لدينا قائمة صغيرة جداً بكتب محتملين آخرين، لا أحد منهم مثير للاهتمام مثلك. ولأكون صريحة يا ميرسر، نحن مقتنعون تماماً أنك الشخص المثالي إلى درجة أننا وضعنا كل بيضنا في سنتك. في حال قلت لا، من المحتمل أننا سنتخلى عن كامل الخطة وننتقل إلى الخطة التالية».

«والتي هي؟».

«لا أستطيع الخوض فيها. نحن واسعو الحيلة، كما أننا نزرع تحت ضغط كبير، لذا سنتحرك سريعاً باتجاه آخر».

«هل كابل هو المشتبه به الوحيد؟».

«رجاءً، لا أستطيع التحدث بشأن ذلك. أستطيع إخبارك المزيد عندما تكونين هناك، وأنت ملتزمة معنا، وعندما نمشي معاً على الشاطئ. هناك كثير من الأشياء نستطيع التحدث بشأنها، ومن ضمنها بعض الأفكار المتعلقة بالكيفية التي يجب أن تتصرفي وفقها. لكن لن أخوض بها الآن. ففي النهاية تلك أمور في غاية السرية».

«أفهم ذلك. أستطيع الحفاظ على الأسرار. فهذا أول درس تعلمته مع

عائلتي».

ابتسمت إيلين وكأنها فهمت، وكأنها كانت تثق بميرسر كلياً. سكبت النادلة المزيد من النبيذ بينما واصلتا تناول طعامهما. بعد صمت طويل أثناء تناول الطعام، ازدردت ميرسر ريقها بصعوبة، ثم تنفست بعمق وقالت: «لدي قرض طلابي بمقدار واحد وستين ألف دولار لا أستطيع التخلص منه. إنه عبء

يستهلك كل ساعات يقظتي ويدفعني للجنون».

ابتسمت إيلين مرة أخرى وكأنها كانت تعرف ذلك. كادت ميرسر أن تسألها إذا كانت تعرف، لكنها لم تكن تريد الجواب حقاً. وضعت إيلين شوكتها، واتكأت على مرفقيها. ربّبت بأطراف أصابعها بعضها على بعض بنعومة وقالت: «سنهتم بشأن القرض، إضافة إلى المائة ألف دولار. خمسون الآن، وخمسون خلال ستة أشهر، نقداً أو شيك أو سبائك ذهبية، بأي طريقة تريدينها. بشكل غير رسمي، طبعاً».

فجأة انزاح عبء ثقيل عن كاهل ميرسر وتبخر في الهواء. كبتت شهقة، ووضعت يداً على فمها ورمشت بعينيها بينما كانت عيناها تتبللان بسرعة. حاولت التكلم، لكن لم يكن لديها شيء تقوله. كان فمها جافاً، فشربت بعض الماء. لقد راقبت إيلين كل حركة بدرت منها، وأخذت تحسبها كدينها.

في الحقيقة، فكرة التخلص السريع من القرض أذهلت ميرسر، إنه كابوس أثقل كاهلها على مدى ثماني سنوات. تنفست بعمق – هل كان التنفس أسهل الآن حقاً؟ – وبدأت بالهجوم على فطيرة لحم سلطعون أخرى. ثم شربت بعض النبيذ الذي شعرت للمرة الأولى بطعمه حقاً. يجب عليها أن تجرب زجاجة أو اثنتين في الأيام القادمة.

اشتتمت إيلين رائحة ضربة قاضية وقالت: «بأي سرعة يمكن أن تكوني هناك؟».

«ستنتهي الامتحانات خلال أسبوعين. لكني أريد أن أفكر بالموضوع الليلة».

«بالطبع». كانت النادلّة تحوم في المكان، فقالت إيلين: «أريد تجربة حلوى

بانا كوتا، ما رأيك يا ميرسر؟».

«الشيء نفسه، ومع كأس من النبيذ الحلو».

6

استغرق الانتقال من المكان عدة ساعات فقط، لعدم وجود أشياء كثيرة تحتاج إلى توضيب، وبسيارتها البيتلز المحشوة بثيابها وكومبيوترها وطابعتها وكتبها وبعض القدور والمقالي والأدوات المنزلية، انطلقت ميرسر من تشابل هيل دون أي شعور، ولو بسيط، بالحنين إلى الماضي. لم تكن تترك وراءها أي ذكريات مؤثرة بل صديقتين فقط بقيت على اتصال بهما لعدة أشهر ثم رحلتا. سبق لها أن انتقلت وقالت «وداعاً» مرات كثيرة وعرفت أي صداقات قد تحتفظ بها وأيها لن تحافظ عليها. لقد شكت أنها ستري صديقتها مرة أخرى.

خلال يومين ستتجه نحو الجنوب، ولكنها الآن سلكت الطريق السريع المتجه إلى الغرب، وتوقفت في بلدة آشفيل الجميلة لتناول الغداء والقيام بجولة سريعة في الجوار، ثم اختارت طرقات سريعة أقصر عبر طرق متعرجة في الجبال تؤدي إلى تينيسي. حلّ الظلام عندما توقفت أخيراً قرب نزل على مشارف نوكسفيل. دفعت نقداً بدل الإقامة في غرفة صغيرة، ثم خرجت لتناول وجبة تاكو في مكان قريب. نامت ليلة هائلة لمدة ثماني ساعات دون انقطاع ثم استيقظت عند الفجر مستعدةً ليوم طويل آخر.

كانت هيلدي مان مريضة نفسية منذ عشرين عاماً في مصح إيسترن ستيت. وكانت ميرسر تزورها مرة في السنة على الأقل، وأحياناً مرتين. لم يكن هناك أي زوار آخرين. عندما أدرك هيربرت أنّ زوجته لن تعود إلى المنزل، باشر من فوره بإجراءات الطلاق، ولم يكن بوسع أحد أن يلومه. وبالرغم من

أن كوني تقطن على بعد ثلاث ساعات من المصح إلا أنها لم ترَ أمها منذ سنوات. وكونها الأكبر سناً كانت الوصية القانونية على هيلدي، لكنها مشغولة جداً كي تزورها.

عانت ميرسر صابرة من المشاكل حتى تتاح لها هذه الزيارة. اجتمعت بأحد الأطباء لمدة خمس عشرة دقيقة وكان ما قاله لها هو ما اعتادت سماعه؛ نسبة توقع البقاء على قيد الحياة معدومة. كانت المريضة ضحية إنهاك جراء مرض انفصام الشخصية الذعري. لم تتحسن حالتها خلال خمسة وعشرين عاماً ولم يكن هناك أمل. كانت تتناول كثيراً من الأدوية، وفي كل زيارة لها، تتساءل ميرسر عن مدى الضرر الذي سببته العقاقير طوال تلك السنين. لكن لم يكن هناك بديل آخر. كانت هيلدي نزيلة دائمة في مصح الأمراض العقلية وستعيش هناك حتى النهاية.

ولأجل هذا اللقاء، بدلت لها الممرضات اللباس الأبيض الموحد وألبسناها فستاناً صيفياً من القطن ذي اللون الأزرق وهو واحد من عدة فساتين كانت ميرسر قد جلبتها خلال تلك السنين. عندما دخلت ميرسر غرفة أمها رأتها تجلس على طرف سريرها حافية القدمين تحدق إلى الأرض فقبلتها على جبينها، وجلست إلى جانبها، وربّبت على ركبتيها، ثم أخبرتها كم اشتاقت إليها.

اكتفت هيلدي بابتسامة لطيفة كردّ. وكالعادة، تعجّبت ميرسر كم بدت عجوزاً. كانت بعمر الرابعة والستين فقط لكنها تبدو في الثمانين، نحيلة شعرها أبيض وبشرتها شاحبة. ولمَ لا؟ فهي لم تغادر غرفتها أبداً. قبل سنوات، كانت الممرضات يرافقنها للمشى في الحديقة لمدة ساعة أو نحوها، لكن هيلدي رفضت ذلك في نهاية المطاف، فشيء ما في الخارج كان يزعجها.

كررت ميرسر المونولوج نفسه؛ تحدثت عن حياتها والعمل والأصدقاء وما شاكل، بعض ما قالته كان حقيقياً والبعض الآخر من نسج الخيال، لكن من الواضح أن شيئاً مما قالته لم يحرك ساكناً لدى هيلدي، فقد ظلت ملامح وجهها ساكنة ولم تتبدل الابتسامة الواهنة التي رسمتها على شفثيها وظلت محدقة إلى الأرض. ظنت ميرسر أن هيلدي ميّزت صوتها، لكنها لم تكن متأكدة. في الحقيقة، لم تكن متأكدة حتى من سبب إزعاج نفسها بهذه الزيارات.

ربما هو الذنب. بإمكان كوني نسيان والدتهما لكنّ ميرسر شعرت بالذنب لعدم زيارتها بتواتر أكبر.

لقد مرت خمس سنوات منذ أن تحدثت هيلدي معها. وقتها عرفتها، وذكرت اسمها، حتى أنها شكرتها على زيارتها. بعد مضي عدة أشهر، وفي إحدى الزيارات ثارت ثائرة هيلدي وأخذت تصرخ فتدخلت إحدى الممرضات. غالباً ما تساءلت ميرسر إذا كانت جرعات الدواء تزداد أكثر عندما يعلمون بقدموها.

بحسب تيسا، كانت هيلدي في مراهقتها تحب إيميلي ديكنسون. لذلك كانت تيسا وفي سنوات ابنتها الأولى في المصح تقرأ لها الشعر، وقتها كانت هيلدي تصغي وتتفاعل، لكن بمرور السنين تدهورت حالتها.

سألتها ميرسر وهي تُخرج نسخة سميقة رثة من كتاب يتضمن مجموعة من القصائد المختارة: «ما رأيك ببعض الشعر يا أمي؟». كان الكتاب نفسه الذي جلبته تيسا إلى مصح إيسترن ستيت منذ سنوات. سحبت ميرسر أحد الكراسي الهزازة وجلست بالقرب من السرير.

ابتسمت هيلدي بينما كانت تقرأ ولم تنبس ببنت شفة.

في ممفيس، التقت ميرسر بوالدها على الغداء في أحد مطاعم وسط المدينة. كان هيربرت يعيش في مكان ما في تكساس، مع زوجة جديدة لم تهتم ميرسر بلقائها أو التحدث معها. عندما كان يبيع السيارات لم يتحدث عن شيء سواها، والآن بما أنه أصبح يعمل باستكشاف المواهب لصالح فريق أوريولز، لم يعد يتحدث سوى عن كرة القاعدة. لم تكن ميرسر واثقة من أي من الموضوعين يهمها أقل، لكنها استمرت بروح رياضية لتجعل الغداء ممتعاً. كانت ترى والدها مرة في العام، وبعد ثلاثين دقيقة فقط تذكرت السبب. كان من المفترض أنه في البلدة بحثاً عن «مصالح تهم العمل»، لكنها لم تشك بالأمر. فقد تعطلت أعماله بطريقة عجيبة بعد سنتها الأولى في الكلية، تاركاً إياها تحت رحمة القرض الطلابي.

لاتزال تقرر نفسها لتتأكد من أن الأمر كان حقيقياً، وأن الديون سُطبت. عاد هيربرت إلى كرة القاعدة، وتحدث عن إمكانيات هذه المدرسة الثانوية وتلك، ولم يتساءل مرة عن آخر كتاب أو مشروع لها. أو إذا قرأ أي شيء نشرته، لم يقل ذلك أبداً.

بعد مضي ساعة، بدا واضحاً أن ميرسر تفتقد لزيارتها إلى مصحح إيسترن ستيت. غير قادرة على التكلم، فلم تكن أمها المسكينة ممتة بقدر أبيها الأناني والمدّعي. لكنهما قالا وداعاً مع عناق وقبله والوعود المعتادة بلقاءات قريبة وأكثر عدداً. قالت إنها ستكون موجودة في الشاليه طيلة الشهور الستة القادمة لإنهاء إحدى الروايات، لكنه كان مسبقاً يمد يده ليمسك بهاتفه النقال.

بعد الغداء، قادت سيارتها إلى مقبرة روزود ووضعت أزهاراً على قبر تيسا. أسندت ظهرها إلى شاهدة القبر وبكت طويلاً. كانت تيسا بعمر الرابعة

والسبعين عندما ماتت، لكنها كانت شابة من نواح كثيرة. لو قدر لها البقاء حية لكانت في الخامسة والثمانين الآن، ولا شك أنها ستكون مشغولة بالتجول على الشاطئ كديدها؛ تجمع الأصداف وتعتني ببيض السلاحف، وتعمل في حدائقها، وتنتظر حفيدتها المحبوبة لتأتي وتلعب.

حان الوقت للعودة، ولسماع صوت تيسا، وللمس أغراضها، ولاقتفاء آثار خطواتهما. في البدء، سيكون هذا مؤلماً، لكن ميرسر وطوال الأحد عشر عاماً الماضية كانت واثقة أن هذا اليوم آتٍ لا محال.

تناولت العشاء مع إحدى صديقاتها القدامى في المدرسة الثانوية، ونامت في غرفة ضيوفها، ثم ودعتها في وقت مبكر من صباح اليوم التالي. كانت جزيرة كامينو على بعد خمس عشرة ساعة.

8

أمضت الليلة في نُزل قرب تلاهاسي ثم وصلت إلى الشاليه، كما هو مُخطط له، عند الظهر تقريباً. لم يتغير كثيراً، رغم أنه الآن مطلي باللون الأبيض وليس الأصفر الهادئ الذي تفضّله تيسا. كان الممر الضيق المرصوف بقواقع المحار مبطناً بعشب بيرمودا المقصوص بعناية. وبحسب الخالة جاين، لا يزال البستاني لاري يعتني بالمكان، وهو سيأتي في وقت لاحق ليلقي التحية عليها. لم يكن الباب الأمامي بعيداً عن شارع فيرناندو، وللحصول على الخصوصية، زرعت تيسا حدود منزلها بأشجار النخيل القزمة وشجيرات البيلسان، التي أصبحت الآن كثيفة وطويلة إلى درجة أنه لم يعد بالإمكان رؤية منازل الجيران. كانت أحواض الورود حيث أمضت تيسا الصباحات بعيداً عن الشمس، مليئة بأزهار البيجونيا ونباتات الكاتمينت والخزامى. وكانت أعمدة الشرفة مغطاة بنباتات الويستيريا دائمة التسلق. لقد نمت إحدى شجرات الصمغ الجميلة

وغطت معظم المرج العشبي الصغير الموجود في الأمام. لقد قامت جاين ولاري بعمل رائع في تنسيق الحدائق. ستكون تيسا سعيدة، رغم أنها بالتأكيد ستجد وسائل لتحسين الأشياء.

أدخلت المفتاح في القفل، لكن الباب لم يفتح، دفعته ميرسر بقوة بإحدى كتفيها ففتحت أخيراً. دخلت الغرفة الكبيرة، وهي مكان فسيح فيه أريكة وكراسٍ قديمة في أحد الأركان تواجه التلفزيون، وهناك طاولة طعام ريفية لم تتذكر ميرسر أنها كانت موجودة. في الخلف، يقع المطبخ المُحاط بجدار من النوافذ الطويلة مع منظر يطل على المحيط الذي يبعد مائتي قدم، خلف الكثبان الرملية. كل المفروشات كانت مختلفة، إضافة إلى لوحات الجدران والسجادات التي تكسو الأرضيات. بدا وكأنه منزل مستأجر أكثر مما هو بيت، لكن ميرسر كانت مستعدة لذلك. لقد عاشت تيسا هناك على مدار العام طوال عشرين سنة تقريباً، وحافظت عليه نظيفاً للغاية. أصبح الآن مكاناً لقضاء العطلات ولم يعد نظيفاً كما كان. مشت ميرسر عبر المطبخ ومنه إلى الخارج حيث الشرفة الفسيحة المملوءة بالمفروشات القديمة المصنوعة من الأغصان والمُحاطة بأشجار النخيل ونباتات الآس. أزالتي خيوط العنكبوت عن أحد الكراسي الهزازة، وجلست تحديق إلى الكثبان الرملية والمحيط الأطلسي وتصغي إلى صوت الأمواج المتدحرجة بنعومة. لقد وعدت نفسها ألا تبكي ولذا لم تفعل.

بإمكانها سماع ضحكات الأطفال يلعبون على الشاطئ، ولكنها لا تستطيع رؤيتهم، فالكثبان الرملية تحجب منظر الأمواج المليئة بالزبد، وطيور النورس والغربان تنعق وهي تُحلق إلى الأعلى والأسفل فوق الكثبان الرملية والمياه.

كانت الذكريات في كل مكان. لقد تبنتها تيسا عملياً عندما أصبحت بلا أم ثم جلبتها لتعيش معها هنا ثلاثة أشهر في السنة على الأقل. وبالنسبة إلى الأشهر

التسعة الأخرى، كانت ميرسر تتوق كي تكون في هذه البقعة بالذات، كانتا تجلسان على تلك الكراسي الهزازة في أواخر فترات بعد الظهر عندما تغيب الشمس من خلفهما. وكان الغسق وقتها المفضل في اليوم، فالحر يصبح مقبولاً ورواد الشاطئ يقل عددهم. كانتا تمشيان إلى الميناء الجنوبي وتعودان، تبحثان عن القواقع وتبتلان بالأمواج المزبدة، وتتسامران مع أصدقاء تيسا، المقيمين الآخرين الذين يخرجون في وقت متأخر من النهار.

لم يعد لأولئك الأصدقاء من أثر فقد مات بعضهم بينما، أصبح بعضهم الآخر نزيل دار المسنين.

جلست ميرسر على الكرسي الهزاز طويلاً قبل أن تنهض، وتتجول في أرجاء الشاليه، ووجدت القليل مما يذكرها بتيسا، وهذا ما اعتبرته أمراً جيداً. لم يكن هناك صورة واحدة لجدتها، هناك بعض الصور لجاين وعائلتها فقط في إحدى غرف النوم. لقد أرسلت جاين لميرسر، بعد الجنازة، صندوقاً من الصور والرسومات والألغاز ظنت أنها ذات أهمية بالنسبة إليها. أبقت ميرسر بعضاً منها في ألبوم صور. ذهبت إلى البقالية لجلب بعض الحاجات الأساسية، وبعد أن أعدت طعام الغداء حاولت القراءة، لكنها لم تستطع التركيز، ففرقت في النوم على أرجوحة شبكية في الشرفة.

أيقظها لاري بينما كانت قدماه تطآن الدرجات الجانبية. وبعد عناق سريع، علّق كلاهما على ما فعلت السنون بهما.

مدحها لاري بقوله إنها جميلة كما كانت دوماً، «امرأة كاملة النضج». لم يبدُ أن السنوات غيرت كثيراً في لاري باستثناء التجاعيد التي بدا أنها ازدادت. هناك شيء ما غامض في ماضيه، لم تتمكن ميرسر من تذكره في ذلك الوقت،

لقد هرب إلى فلوريدا من مكان بعيد في الشمال، ربما كندا. كان بستانياً يعمل لحسابه الخاص ورجلاً متعدد الحرف، ولطالما تشاجر مع تيسا حول كيفية الاعتناء بالورود.

قال: «كان ينبغي عليك القدوم إلى هنا قبل الآن».

«أفترض أنك تريد زجاجة جعة؟».

«كلا. لقد توقفت عن الشرب قبل بضع سنوات. جعلتني زوجتي أتخلي

عنه».

«تزوج من امرأة أخرى».

«لقد فكرت بالأمر».

كان لديه عدة عشيقات، كما تتذكر ميرسر، فهو مغازل فاشل، بحسب ما

تقول تيسا. خطت نحو أحد الكراسي الهزازة وقالت: «اجلس. دعنا نتكلم».

«حسناً، لا بأس بذلك على ما أظن».

كان حذاؤه مبقعاً باللون الأخضر ورسغاه مكسوتين ببقايا الأعشاب المقصوصة. ثم أضاف: «بعض الماء قد

يكون جيداً».

ابتسمت ميرسر ثم ذهبت لإحضار الشراب. عندما عادت، نزعت غطاء

زجاجة الجعة وقالت: «إذاً ما الذي كنت تفعله؟».

«الأمور ذاتها، دائماً هي ذاتها. وأنت؟».

«كنتُ أعلم وأكتب».

«لقد قرأت روايتك وأحببتها. اعتدتُ النظر إلى صورتك الموجودة في

الخلف وأقول (يا للروعة، أنا أعرفها. أعرفها منذ وقت طويل). أتعلمين؟ كانت

تيسا لتفخر بك».

«صحيح. إذاً ما هي الشائعات التي تُروى في الجزيرة؟».

ضحك ثم قال: «لقد ذهبت منذ زمن طويل جداً والآن تريدان معرفة الشائعات».

قالت وهي تومئ برأسها لجهة كتفها: «ما الذي حدث لجيراننا من عائلة بانكروفت؟».

«لقد مات الرجل منذ سنتين بالسرطان. والمرأة لاتزال على قيد الحياة لكنهم أرسلوها بعيداً. باع أبناؤها المنزل. والملاك الجدد لا يحبوني، وأنا لا أحبهم». تذكرت فظاظته ونجاعته في انتقاء الكلمات.

«وعائلة هيندرسون في الجهة المقابلة من الشارع؟».

«ماتوا».

«لقد تبادلت الرسائل مع السيدة هيندرسون لعدة سنوات بعد موت تيسا، وبعدها فقدنا الاهتمام نوعاً ما. لم تتغير الأمور كثيراً هنا».

«لم تتغير الجزيرة. بعض البيوت الجديدة هنا وهناك. لقد تم البناء فوق كل أراضي الشاطئ، وهناك بعض الشقق الفاخرة بجانب فندق الريتز. السياحة مزدهرة وأظن أنّ هذا جيد. تقول جاين أنك ستمكثين هنا لبضعة أشهر».

«هذا ما أخطط له، ولكن ما من شيء مؤكد فأنا أبحث عن عمل وأحتاج إلى إنهاء رواية».

«لطالما أحببت الكتب، أليس كذلك؟ أذكر وجود أكداش منها في كل أنحاء المنزل، حتى عندما كنت طفلة صغيرة».

«كانت تيسا تأخذني إلى المكتبة مرتين في الأسبوع. وعندما كنت في الصف الخامس كان لدينا في المدرسة مسابقة قراءة في الصيف. قرأت ثمانية وتسعين كتاباً في ذلك الصيف وفزت بالكأس. وجاء مايكل كيون في المركز الثاني بقراءته لثلاثة وخمسين كتاباً. لقد أردتُ بحق أن أصل إلى مائة كتاب».

«لطالما قالت تيسا إنك تتوقين للمنافسة. لقد كنت تفوزين دائماً في الداما والشطرنج والمونوبولي».

«أظن ذلك. يبدو الأمر سخيلاً الآن».

ارتشف لاري من كوب الماء، ومسح فمه بكم قميصه. ثم قال وهو يحدق إلى المحيط: «أنا حقاً أفتقد تلك العجوز، تعلمين. كنا نتشاحن بلا توقف بشأن أحواض الزهور والسماذ، كانت لتقوم بأي شيء من أجل أصدقائها».

أومات ميرسر برأسها، لكنها لم تقل شيئاً. وبعد صمت طويل قال: «آسف لقول ذلك. أعلم أن الوضع لا يزال صعباً».

«هل يمكنني سؤالك عن شيء يا لاري؟ أنا لم أتحدث أبداً مع أي شخص بشأن ما جرى لتيسا. وبعد وقت طويل من الجنازة، قرأت ما كتب في الصحف، لكن هل هناك شيء لا أعرفه؟».

أشار إلى المحيط وقال: «لا أحد يعلم. كانت هي وبورتر هناك، على بعد ثلاثة أو أربعة أميال، ربما على مرمى نظر من الشاطئ، وفجأة هبت العاصفة. واحدة من تلك التي تحدث فترة بعد الظهر في نهاية الصيف، كانت عاصفة هوجاء».

«أين كنت؟».

«أعبث في المنزل. وفجأة وبلمحة عين اكفهرت السماء، وعصفت الرياح، وانهمر المطر بغزارة. لقد اقتلعت عدة أشجار، وانقطعت الكهرباء. يقولون إن بورتر أرسل نداء استغاثة لكنني أظن أن الأوان كان قد فات».

«لقد ركبتُ في ذلك القارب عشرات المرات، لكنني لم أكن أحب الإبحار. لطالما ظننتُ أنه ممل جداً».

«كان بورتر بحاراً جيداً، وكما تعلمين، كان مولعاً بتيسا. لا شيء رومانسي. اللعنة، كان أصغر منها بعشرين عاماً».

«لست متأكدة من ذلك الأمر يا لاري. لقد كانا صديقين حميمين وعندما بدأت أتقدم بالعمر أصبحت مرتابة. مرة وجدت زوج أهدية له في خزانته. كنتُ أتلصص مثلما يفعل أي ولد. لم أقل شيئاً لكنني فقط أصحْتُ السمع. تولد لدي انطباع بأن بورتر أمضى الكثير من الوقت هنا عندما كنتُ غائبة».

هزّ رأسه فقال: «كلا. ألا تظنين بأنني كنت سأعرف بالأمر؟».

«أظن ذلك».

«أنا أكون هنا ثلاث مرات في الأسبوع وأراقب المكان. لو كان شخص ما هنا ما كنتُ لأغض الطرف عن ذلك».

«حسناً. لكن هل كانت معجبة ببورتر حقاً؟».

«الجميع يحبونه. إنه شخص طيب. لم أعثر على جثته ولا على القارب».

«هل بحثوا عنه؟».

«نعم، أكبر عملية بحث رأيتها في حياتي. كانت كل القوارب في الجزيرة هناك، وأنا أيضاً. بالإضافة إلى خفر السواحل والمروحيات. لقد وجد أحد

العذائين تيسا في الميناء الشمالي عند شروق الشمس. كما أذكر، وذلك بعد يومين أو ثلاثة».

«كانت سباحة ماهرة، لكننا لم نكن نرتدي سترات النجاة».

«ما كانت لتحدث فرقا في تلك العاصفة. لذا، لا، لن نعرف أبداً ماذا حدث. أنا آسف».

«لا داعي للأسف، فأنا من سألت».

«من الأفضل أن أذهب. هل تريدني مني شيئاً؟». وقف ببطء ومد ذراعيه ثم أضاف: «لديك رقم هاتفي».

وقفت ميرسر أيضاً وعانقته بشكل خفيف ثم قالت: «شكراً يا لاري. من الجيد أن أراك».

«عوداً حميداً».

«شكراً».

9

في وقت متأخر من النهار، خلعت ميرسر صندلها وتوجهت نحو الشاطئ. كان الممشى الخشبي يبدأ من الشرفة ويصعد ويهبط مع الكثبان الرملية، التي كانت محمية طبيعية. مشت ببطء، وأخذت تبحث عن السلاحف. لقد أولت تيسا اهتماماً بالبيئة وبالسلاحف التي كانت تقف من أعشاب البحر والأعشاب التي تغطي الكثبان الرملية. منذ كانت ميرسر في الثامنة من العمر، تمكنت من تمييز جميع أنواع الأعشاب، لقد علمتها تيسا بشأن تلك النباتات، وتوقعت منها أن تتذكرها من صيف إلى آخر. وهي لا تزال تذكرها بعد مضي أحد عشر عاماً.

أغلقت ميرسر بوابة الممشى الخشبي الضيق خلفها، ومشت صوب حافة الشاطئ، ثم توجهت نحو الجنوب. مرت ببعض مرتادي الشاطئ، وجميعهم أومأوا برؤوسهم وابتسموا، معظمهم كانوا بصحبة كلاب ذات أطواق حول أعناقها. توجهت إحدى النساء نحوها بسرورها القصير الكاكي وقميصها الكتاني وسترتها القطنية الملقاة على كتفيها، بدت مثل عارضة أزياء خرجت لتوها من كاتالوج ج. كرو. سرعان ما أصبح الوجه مألوفاً. ابتسمت إيلين شيلبي وقالت: مرحباً. تصافحتا ومشتا معاً، تطآن بأقدامهما الحافيتين زبد البحر.

سألت إيلين: «حسناً، كيف حال الشاليه؟».

«جيد».

«هل طرحت أسئلة كثيرة؟».

«ليس تماماً. كانت سعيدة لأنني أريد أن أقيم هنا».

«وأنت ستبقين هناك حتى بداية شهر تموز».

«قراءة الرابع من تموز. بحلول ذلك الوقت ستستعمله كوني لأسبوعين».

«سنستأجر لك غرفة في الجوار. هل هناك من أشخاص آخرين سيأتون بعد

كوني؟ أقصد هل هناك مستأجرون للشاليه؟».

«كلا، ليس قبل شهر تشرين الثاني».

«ستكونين قد أنهيت عملك في ذلك الوقت، بطريقة أو بأخرى».

«إن كنت ترين ذلك».

قالت إيلين، وقد دخلت في أجواء العمل سريعاً: «هناك فكرتان أوليتان».

بدا أنه مشوار بريء على الشاطئ، لكنه كان في الحقيقة اجتماعاً هاماً. «أولاً، سأبقى بعيدة عن متجر الكتب. من المهم أن يأتي كابل إليك، وليس العكس». «وكيف أقوم بتدبير ذلك؟».

«هناك سيدة في الجزيرة، اسمها ميرا باكويد، وهي كاتبة ربما سمعت بها».

«أبدأ».

«قدرت ذلك. لقد كتبت مجموعة من الروايات، روايات رومانسية، ربما التعبير الأدق إباحية، وهي تستخدم دزينة أسماء مستعارة. كما أنها باعت كتباً كثيرة من هذا النوع، لكن إنتاجها الروائي خفّ مع تقدمها في العمر. إنها تعيش مع شريكها في أحد المنازل القديمة وسط المدينة. وهي امرأة طويلة وعريضة، تشبه ببنيتها الجسدية الملاكمين. عندما تقابلينها ستتأكدين أنه من المستحيل أن أحداً مارس الجنس معها، لكن مخيلتها واسعة. إنها غريبة الأطوار للغاية ومبهجة وذات صوت جهوري، يمكن تشبيهها بملكة النحل في المجتمع الأدبي. بالطبع، تربطها علاقة صداقة قديمة مع كابل. أرسلني لها رسالة وتعرفني إليها، أخبرني بما تفعلينه هنا، واطلبي زيارتها لإلقاء التحية عليها وتناول كأس معها. سيعرف كابل بالأمر خلال أربع وعشرين ساعة».

«من هي شريكها؟».

«ليه تراين، كاتبة أخرى ربما سمعت بها».

«أبدأ».

«قدرت ذلك. إنها تطمح لكتابة الروايات الخيالية، أشياء صعبة لا تحقق مبيعات. لقد بيع من آخر كتاب لها ثلاثمائة نسخة وكان هذا منذ ثماني سنوات.

إنهما ثنائي غريب بكل ما للكلمة من معنى، لكن ربما سيكون من الطريف التسكع معهما. ما إن تتعرفا إليك، لن يكون كابل بعيداً».

«يبدو الأمر في غاية البساطة».

«الفكرة الثانية أكثر خطورة لكني واثقة من نجاحها. هناك كاتبة شابة اسمها سيرينا روش».

«أحسنت، لقد سمعت بها، ولم أقابلها أبداً لكننا نعمل مع الناشر نفسه».

«صحيح. صدرت روايتها الأخيرة قبل أيام».

«قرأت مراجعة نقدية عنها. تبدو مريعة».

«لا يهمني جودة ما تكتب. المهم أنها تقوم بجولة ترويجية، وستكون هنا الأسبوع القادم نهار الأربعاء. لدي عنوان بريدها الإلكتروني، ابعني لها برسالة معسولة الكلام، وقولي إنك تودين تناول القهوة معها وما إلى ذلك. هي بعمرِكَ تقريباً، وعزباء، يمكن للأمر أن يكون ممتعاً. سيكون حفل توقيع كتابها السبب المثالي بالنسبة إليك كي تزوري المتجر».

«وبما أنها شابة وعزباء بإمكاننا توقع أن يكون كابل في أحسن أحواله».

«بوجودك في المدينة لفترة قصيرة، والآنسة روش في رحلة ترويجية، هناك احتمال أن يُقيم كابل ونويل عشاء بعد حفل التوقيع. بالمناسبة، نويل موجودة في المدينة هذه الأيام».

«لن أسأل كيف تعرفين ذلك».

«الأمر بسيط تماماً. كنت أتسوق من متجرها بعد الظهر».

«قلت إن هذا يمكن أن يكون خطيراً».

«حسناً، ربما يظهر أثناء تناول الشراب أنك أنت وسيرينا لم تلتقيا من قبل أبداً حتى الآن. ربما هذه صدفة حسنة وربما لا».

قالت ميرسر: «لا أظن ذلك، بما أن لدينا الناشر نفسه، يبدو معقولاً أن أمرّ بها وألقي التحية عليها».

«جيد. سيصلك صندوق عند العاشرة صباحاً. فيه كتب وروايات؛ كتب نويل الأربعة وثلاثة لسيرينا».

«واجب منزلي؟».

«أنت تحبين القراءة صحيح؟».

«هذا جزء من عملي».

«سأضيف أيضاً بعضاً من كتب ميرا التافهة لمجرد اللهو فقط. إنها قمامة حقيقية لكنها تسبب الإدمان فعلاً. بإمكانني إيجاد واحد من كتب تراين فقط وسيكون من ضمن المجموعة. إنها ممنوعة من الطباعة وذلك لأسباب وجيهة. لست واثقة من أنني قد أهتم لذلك، فأنا لم أتمكن من إنهاء الفصل الأول».

«أنا أتحرق شوقاً. لكم من الوقت ستبقين هنا؟».

«سأغادر غداً». تابعتا المشي بصمت بعد قليل أردفت إيلين: «عندما كنا نتناول العشاء في تشابل هيل كان لديك أسئلة عن العملية. لا أستطيع قول الكثير، لكننا نقدم بهدوء جائزة لقاء المعلومات. قبل شهرين، وجدنا امرأة تعيش في منطقة بوسطن. كانت قد تزوجت في إحدى المرات من جامع كتب يتعامل بالأشياء النادرة وهو معروف بتعامله بالكتب ذات الخلفيات الغامضة. من الواضح أنّ الطلاق كان حديثاً نسبياً وهي تملك بعض المعلومات الهامة. أخبرتنا أنّ طليقها يعرف كثيراً بشأن مخطوطات فيتزجيرالد. وهي تعتقد أنه

اشتراها من اللصوص وسرعان ما تخلص منها بدافع الخوف. كما تعتقد أنه حصل على مليون دولار، لكننا لم نتمكن من اقتفاء أثر النقود، ولا هي أيضاً. في حال حصل هذا، فربما كانت صفقة خارج البلاد بحسابات مخفية وما إلى ذلك. لانزال نتحرى عن الأمر».

«هل تحدثتم إلى الرجل؟».

«ليس بعد».

«وهو نقلها إلى بروس كابل؟».

«لقد أعطنا اسمه. فهي كانت تعمل في المجال نفسه مع طليقتها إلى أن ساءت الأمور، ولذا فهي تعرف شيئاً عن الصفقة».

«ولمّ قد يجلبها إلى هنا؟».

«لمّ لا؟ هذا منزله وهو يشعر بالأمان. في الوقت الحاضر، نحن نفترض أنّ المخطوطات هنا، لكن هذا افتراض هام نسبياً. ويمكن أن نكون مخطئين. كما قلت من قبل، كابل ذكي جداً ويعرف ماذا يفعل. ربما هو أدهى من أن يبقياها في مكان قد يورطه في الجريمة. إذا كان هناك سرداب تحت المتجر، أشك أنه سيبقيها هناك. لكن من يعرف؟ نحن نخمن فقط وسنستمر بفعل ذلك إلى أن نحصل على معلومات أفضل».

«لكن ما نوع هذه المعلومات؟».

«نحتاج لمجموعة من العيون داخل المتجر، وبالأخص داخل قسم الطبقات الأولى. ما إن تتعرفي إليه وتبدأين بزيارة المتجر وشراء الكتب، وتظهري في مناسبات المؤلفين وما إلى ذلك، سيتولد لديك الفضول تدريجياً بشأن أشياءه

النادرة. سيكون لديك بعض الكتب القديمة من التي تركتها تيسا وذلك سيكون مدخلك. قد تسألينه كم تبلغ قيمتها؟ أو هل يريد شراؤها؟ لا أعلم إلى ما ستسفر هذه المحادثات، لكن على الأقل سيكون لدينا شخص في الداخل، شخص بعيد عن الشبهات. وفي مرحلة ما، ستسمعين شيئاً. لا أحد يعلم ما هو؟ أو متى ستسمعينه؟ وفي أي سياق؟ ربما تكون سرقة فيتزجيرالد موضوع نقاش على مائدة عشاء. وكما ذكرت آنفاً إنه يكثر من الشرب، وكما تعلمين فالشراب يطلق اللسان، ويكشف كل سرّ مخبأً».

«لا أستطيع التصديق أن الشراب سيحل عقدة لسانه بشأن بالغ الأهمية كهذا».

«ربما ما تقولينه صحيح، وربما الشراب سيحل عقدة لسان شخص غير قابل، ليس المهم من يتكلم بل المهم أن تكون لدينا آذان مصغية لكل ما يقال».

توقفتا في الميناء الجنوبي، ثم التفتتا وتوجهتا نحو الشمال. قالت إيلين: «اتبعيني»، ثم مشتا نحو أحد الممرات الخشبية. فتحت البوابة وصعدتا الدرجات إلى شرفة صغيرة. أشارت بيدها إلى مبنى ثلاثي الأقسام بطابقين يقع في الجهة الأخرى وقالت: «الشقة اليمنى تخصنا، على الأقل في الوقت الحالي. أنا أقيم فيها، وخلال يومين سيكون هناك شخص آخر. سأرسل لك رقمه برسالة نصية».

«هل سأكون تحت المراقبة؟».

«كلا. أنت مسؤولة عن نفسك، لكن سيكون لديك صديق دائماً من باب الاحتياط فقط. وأنا أود أن ترسلي لي إيميل كل ليلة، بغض النظر عما يحدث. مفهوم؟».

«بالتأكيد».

«سأذهب الآن». مدت يدها اليمنى فصافحتها ميرسر. «بالتوفيق يا ميرسر، فكري بالأمر على أنه عظة على الشاطئ. ما إن تتعرفي إلى كابل ونويل، ربما تستمتعين بصحبتكما وتحظين ببعض المرح».

هزت ميرسر كتفها وقالت: «سنرى».

10

يقع غاليري دمبارتون على بعد حي من جادة ويسكنسن في جورجيتاون. وهو معرض صغير يحتل الطابق الأرضي لمنزل قديم مبني من الآجر الأحمر، يحتاج أعمال دهان بشكل سريع وربما سقفاً جديداً. ورغم أن الازدحام الشديد على بعد حي فقط من هناك إلا أن المعرض عادة ما يكون مهجوراً.

إنه معرض متخصص بالأشياء المعاصرة التي من الواضح أنها لم تكن شائعة كثيراً، على الأقل ليس في جورجيتاون. لم يكن المالك يهتم حقاً. اسمه جويل ريببوكوف، عمره اثنان وخمسون عاماً وهو مجرم مدان، قُبض عليه مرتين بجرم التعامل بالأشياء النفيسة المسروقة.

كان معرضه الفني في الطابق الأرضي عبارة عن واجهة للتضليل بشأن حقيقة عمله، فبعد حكمين بالإدانة وثمانية أعوام في السجن، يظن جويل أنه مراقب على الدوام، وهذا ما جعله يحرص دائماً على عدم خرق القوانين وهو الآن أحد ملاك المعارض المكافحين في واشنطن. لعب في هذه اللعبة، ولديه بعض العروض، ويعرف بعض الفنانين وعدد أقل من العملاء، بالإضافة إلى موقع إلكتروني على الشبكة العنكبوتية.

عاش في الطابق الثالث من المنزل، ويقع مكتبه في الثاني حيث يباشر

أعماله الحقيقية، التي تُعنى بالوساطة لعقد صفقات اللوحات والمطبوعات والصور والكتب والمخطوطات والخرائط والتماثيل المسروقة وحتى الرسائل المزورة التي يُزعم أنها تعود لأناس مشهورين متوفين. لم يستطع جويل ريبكوف الامتثال للقوانين رغم حكمي الإدانة والحياة التي قضاها في السجن. فبالنسبة إليه، كانت الحياة في عالم الجريمة أكثر حماساً وربحاً بكثير من الاهتمام بمعرض صغير وبيع القطع الفنية التي يهتم بها قلة من الناس. لقد أحبّ متعة ربط اللصوص بضحاياهم، أو اللصوص بالجهات الوسيطة، وبناء صفقات تتضمن مستويات وأطراف عديدين مع الأشياء النفيسة التي تتحرك في الخفاء بينما يتم تحويل المال إلى حسابات خارجية. من النادر أن يضع يده على المسروقات، فهو يفضل أن يكون الوسيط الذي يُبقي يديه نظيفتين.

زاره فريق من مكتب التحقيقات الفيدرالي بعد مرور شهر على حادثة السرقة في جامعة برينستون. بالطبع، جويل لم يكن يعرف شيئاً. وبعد شهر، عادوا إليه، ولم يكن يعرف شيئاً أيضاً. لكن بعد ذلك، عرف أشياء كثيرة. وخشية من تنصت مكتب التحقيقات الفيدرالي على هواتفه، اختفى جويل من منطقة العاصمة، وأصبح يعمل في الخفاء التام. وباستخدامه للهواتف النقالة والخطوط المسبقة الدفع، استطاع الاتصال بالسارق واجتمع به في أحد الموتيلات الواقعة على الطريق السريع قرب أبردين، ميريلاند. عرّف السارق عن نفسه باسم ديني وشريكه باسم روكو. شخصان قويان. وعلى فراش رديء في غرفة مزدوجة الأسرة بدل إيجارها تسعة وسبعون دولاراً في الليلة، ألقى جويل نظرة على مخطوطات فيتزجيرالد الخمسة التي قيمتها أكثر مما يستطيع أي من الثلاثة تخيله.

بدا واضحاً لجويل أنّ ديني، الذي بلا شك هو زعيم العصابة أو ما تبقى

منها، كان تحت ضغط هائل ويريد التخلص من المخطوطات والهرب من البلاد.
قال: «أريد مليون دولار».

أجاب جويل: «لا أستطيع تدبر هذا المبلغ، لديّ وسيط واحد فقط، لا، غير
يمكن أن يتحدث بشأن هذه المخطوطات. فكل الرفاق الذين يعملون في هذا
المجال مصابون بالرعب في الوقت الحالي، ورجال مكتب التحقيقات الفيدرالي
في كل مكان. أفضل عرض، وربما الأصح القول العرض الوحيد الذي يمكنني
أن أقدمه لك هو نصف مليون دولار».

بدأ ديني يشتم ويدور في أنحاء الغرفة، ثم يتوقف قليلاً ليتلصص عبر
الستائر وينظر إلى موقف السيارات. أُصيب جويل بالملل من هذه المشاهد
المسرحية وقال إنه سيرحل. أخيراً، استسلم ديني وأتموا الصفقة. غادر جويل
وبحوزته حقيبته فقط. بعد حلول الظلام، غادر ديني مع المخطوطات ومع
تعليمات بالذهاب بسيارته إلى مدينة بروفيدينس والانتظار هناك. التقاه روكر
هناك، وهو صديق قديم كان يخدم في الجيش تحوّل إلى الجريمة أيضاً. بعد
ثلاثة أيام، وبمعاونة وسيط آخر، تمّ الاستلام والتسليم.

الآن عاد ديني إلى جورجيتاون مع روكر وهو يبحث عن كنزهِ. لقد عبث
ريبيكوف كثيراً معه في المرة الأولى وهذا لن يحدث مرة أخرى.

عند الساعة السابعة مساءً من يوم الأربعاء 25 أيار، وهو وقت إغلاق
المعرض المعتاد دخل ديني من بابه الرئيسي، في حين فتح روكر إحدى
النوافذ المؤدية إلى مكتب جويل. عندما أُغلقت جميع الأبواب وأُطفئت جميع
الأضواء، حملا جويل إلى شقته في الطابق الثالث، مُقيّد اليدين ومُكمّم الفم، ثم
بدأ العمل الشنيع في استخراج المعلومات.

الفصل الرابع مُستكشف الشاطئ

1

يبدأ اليوم مع تيسا عند شروق الشمس. كانت تجر ميرسر من فراشها وتُسرع نحو الشرفة حيث يرتشفان القهوة وينتظران بأمل كبير أولى توهجات اللون البرتقالي الذي يرتفع في الأفق. وما إن تظهر الشمس في الأفق حتى تسرعا الخطى فوق الممر الخشبي وتتفحصا الشاطئ. وفي وقت متأخر من الصباح، بينما تعمل تيسا على أحواض الورود في الجانب الغربي من الشاليه، غالباً ما تعود ميرسر تدريجياً إلى السرير كي تحظى بقبيلولة طويلة.

عندما كانت ميرسر في العاشرة من عمرها تقريباً شربت كوب قهوتها الأول وعندما بلغت الخامسة عشرة تناولت كأس المارتيني الأول بموافقة تيسا التي كانت جملتها الأثيرية «كل شيء باعتدال» تسبق منحها للإذن.

لكنّ تيسا الآن في دار الخلود، وبما أن ميرسير شاهدت ما يكفي من شروق الشمس سابقاً، فاستمرت بالنوم إلى ما بعد التاسعة بقليل، قبل أن تنهض على مضض، وجالت حول الشاليه باحثة عن أفضل مكان لتجلس فيه وتكتب ولم تجده. لم تشعر بأي ضغط وهي مُصممة ألا تكتب ما لم يكن لديها شيء يستحق

الكتابة. فروايتها متأخرة ثلاث سنوات وإن استطاع الناشر في نيويورك الانتظار ثلاث سنوات فهو بالتأكيد يستطيع الانتظار لسنة أخرى، لقد كان ناشرها يتصل بها بين الحين والآخر وكانت محادثاتها مقتضبة. خلال رحلتها الطويلة في السيارة من تشابل هيل إلى ممفيس ومنها إلى فلوريدا، تسكنت وحلمت وخطت، وأحياناً شعرت كأن روايتها قد وجدت أسلوبها المميز. لقد خطت لرمي كل المسودات السابقة، والبدء من جديد، لكن هذه المرة ببداية جدية جديدة. الآن وقد أصبحت غير مديونة، ولم تعد قلقة بشأن العمل التالي، كان عقلها مرتاحاً تماماً من الإزعاجات المنغصة للحياة اليومية. ما إن استقرت وارتاحت، حتى انغمست في عملها، وبدأت تكتب بمعدل ألف كلمة في اليوم على الأقل.

لكن بالنسبة إلى عملها الحالي، الذي دُفع لها مبلغ محترم من المال لقاءه، والذي لم يكن لديها فكرة عنه، ولا عن الوقت الذي سيستغرقه إنجازه. لذا، وجدت أن لا فائدة من هدر الوقت. دخلت الإنترنت وتفقدت بريدها الإلكتروني. وكما هو متوقع، أرسلت إيلين المساعدة الدائمة رسالة أثناء الليل فيها بعض العناوين المفيدة.

كتبت ميرسر رسالة إلى ملكة النحل: «عزيزتي ميرا بيكويد. أنا ميرسر مان، روائية مقيمة في منزل على الشاطئ لعدة أشهر حيث سأكرس وقتي لإنهاء روايتي. أنا لا أعرف أحداً هنا. لذا، أقترح أن أستغل الفرصة وألقي التحية عليك والتقيك والآنسة تراين حول كأس من الشراب، وأقترح أيضاً أن أجلس معي زجاجة النبيذ».

عند الساعة العاشرة تماماً، رن جرس الباب. وعندما فتحت ميرسر الباب الرئيسي وجدت صندوقاً على الشرفة، لكن لم تجد الشخص الذي جلبه. أخذته

إلى طاولة المطبخ حيث فتحته وأفرغته. وكما وُعدت، هناك أربعة كتب مصورة لنويل بونيت، وثلاث روايات لسيرينا روش، وكتاب ل- ليه تراين، ونصف دزينة من الروايات الرومانسية بصور غلاف مثيرة للغاية. كل منها لمؤلف مختلف عن الآخر بالرغم من أنّ ميرا بيكويد كتبتها جميعاً.

لا شيء مما رآته ألهمها بمتابعة كتابة روايتها الخاصة.

تناولت بعض الغرانولا وهي تقلب صفحات كتاب نويل المتعلق بمنزل مارشبانكس.

رنّ هاتفها النقال عند الساعة 10:37، المتصل مجهول. بالكاد قالت: «مرحباً»، قبل أن يعلن صوت عصبي عالي النبرة قائلاً: «نحن لا نشرب النبيذ. أنا أشرب الجعة ولية تفضل الرم، والخزانة مملوءة. لذا. لا ينبغي عليك أن تجلبي زجاجتك معك. مرحباً بك في الجزيرة. أنا ميرا.»

كادت ميرسر أن تضحك فقالت: «تشرفنا يا ميرا. لم أكن أتوقع اتصالك بهذه السرعة.»

«حسناً، نحن نشعر بالملل، ونبحث دائماً عن شخص جديد. هل يمكنك الانتظار حتى الساعة السادسة من بعد ظهر اليوم؟ نحن لا نبدأ بالشرب قبل السادسة أبداً.»

«سأحاول. أراك لاحقاً.»

«وهل تعرفين العنوان؟»

«في شارع آش.»

«إلى اللقاء.»

وضعت ميرسر الهاتف، وحاولت من خلال اللكنة تحديد المنطقة التي أتت منها ميرا وتوصلت إلى أنها قطعاً جنوبية، ربما شرق تكساس. اختارت واحداً من الكتب الورقية، الذي من المفترض أنّ كاتبه هو رنيون أو شونيسي، ثم بدأت القراءة. كان البطل «بوسامته البربرية» طليقاً في قلعة لم يكن مُرحباً به فيها، وبالوصول للصفحة الرابعة كان قد عاشر خادمتين ويطرصدّ ثالثة. وبنهاية الفصل الثالث، كان الجميع منهكاً، ومن بينهم ميرسر. توقفت عندما أدركت أنّ نبضها ارتفع قليلاً. لم يكن لديها قدرة على تحمّل خمسمائة صفحة أخرى.

أخذت رواية ليه تراين إلى الشرفة، ووجدت هناك كرسيّاً هزازاً تحت مظلة. كانت الساعة قد تخطت الحادية عشرة، وشمس منتصف النهار في فلوريدا تلهب كل ما تسقط أشعتها عليه، فأى شيء يُترك مكشوفاً يُصعب لمسّه من شدة اللظى. تتحدث رواية الأنسة راين عن امرأة شابة غير متزوجة استيقظت ذات يوم لتجد نفسها حاملاً وهي غير متأكدة من هوية الأب. كانت تشرب كثيراً خلال السنة الماضية، وهي مشوشة نسبياً كما لم تكن ذاكرتها بتلك الحدة. وبمساعدة الروزنامة حاولت اقتفاء أثر خطواتها. أخيراً، حددت قائمة تضم ثلاثة آباء محتملين. قطعت عهداً على نفسها أن تحقق بشكل سري مع كل واحد منهم مع خطة، بعد ولادة الطفل، لإقامة دعوى إثبات بنوة على الأب الحقيقي والحصول على نفقة الطفل. كان الإعداد جميلاً، لكنّ الكتابة معقدة ومبالغ فيها لدرجة أنّ أي قارئ سيجد صعوبة في متابعتها. لم يكن هناك من مشهد واضح، ولم يكن باستطاعة القارئ التأكد من هو المتكلم. من الواضح أنّ الأنسة تراين لديها قلم في إحدى يديها وقاموس مترادفات في اليد الأخرى لأنّ ميرسر وجدت كلمات لم يسبق أن قرأتها أو سمعت أحداً يتفوه بها. والمُحبط بالدرجة

نفسها، أنّ الحوار لم يكن معرفاً بعلامات، وغالباً لم يكن واضحاً من قال ماذا.
بعد عشرين دقيقة من القراءة المضنية، أنهكت وأخذت سنة من النوم.

استيقظت متعركة وضجرة، والضجر لم يكن مقبولاً. لطالما عاشت وحيدة وتعلمت أن تبقى مشغولة. يحتاج الشاليه إلى تنظيف جيد، لكن ما من شيء مُلح. لربما كانت تيسا شديدة الاهتمام بالنظافة والترتيب لكنّ ميرسر لم ترث منها تلك الخصلة. تعيش لوحدها، لم يجب عليها أن تهتم ما دام المكان نظيفاً وإن لم يكن شديد النظافة؟ ارتدت ملابس السباحة، وعندما نظرت إلى المرأة لاحظت مدى شحوب بشرتها، وتعهدت بالعمل على تسميرها، وتوجهت إلى الشاطئ. اليوم هو الجمعة، والمستأجرون لعطلة نهاية الأسبوع بدأوا بالوصول، بالرغم من أنّ الجزء الخاص بها من الشاطئ كان مهجوراً تقريباً. سبحت لوقت طويل، ثم تمشت قليلاً، وبعدها عادت إلى الشاليه، واستحمت، وقررت تناول الغداء في البلدة. ارتدت ثوباً صيفياً خفيفاً ولم تتبرج بل اكتفت بأحمر الشفاه.

يمتد شارع فيرناندو لمسافة خمسة أميال على طول الشاطئ إلى جانب الكثبان الرملية والمحيط، كان مليئاً بمزيج من البيوت المخصصة للإيجار، الحديثة والقديمة، والموتيلات الرخيصة والمنازل الجديدة الأنيقة والشقق التي عُلقَ على بعضها لافتات مكتوب عليها فطور ومبيت. في الجهة المقابلة للشارع، هناك مزيد من البيوت وبيوت الإيجار والمحلات وبعض المكاتب، والمزيد من الموتيلات والمقاهي التي تُقدّم الطعام وقوفاً. وبينما كانت تتقدم ملتزمة بحدود السرعة المقدرّة بخمسة وثلاثين ميلاً في الساعة، اعتقدت ميرسر أن كل شيء لا يزال على حاله. لقد كان بالضبط كما تتذكر. هناك موقف صغير للسيارات كل ثمن ميل بالإضافة إلى ممر خشبي من أجل دخول عامة

سكان سانتا روزا إلى الشاطئ.

إلى جهة الجنوب، هناك فنادق كبيرة مثل الريتز وماريوت اللذين ينتصبان إلى جانب الشقق المترفة، وكذلك مناطق سكنية، تلك المستجديات التي لم توافق عليها تيسا أبداً، لأنها تؤمن أنّ كثيراً من الأضواء يتعارض مع عملية التعشيش للسلاحف الخضراء والضخمة الرأس. كانت تيسا عضواً فاعلاً في منظمة حماية السلاحف (تيرتل ووتش)، بالإضافة إلى كل المجموعات التي تُعنى بالحفاظ على البيئة والطبيعة في الجزيرة.

لم تكن ميرسر ناشطة، لأنها لم تكن تحتل الاجتماعات، وهذا كان سبباً آخر للابتعاد عن الجامعات والكليات. دخلت البلدة ومشت ببطء مع حركة المرور في الشارع الرئيسي، مرةً بمتجر الكتب ومتجر نويلز بروفينس بجواره. ركنت سيارتها في شارع جانبي، ووجدت مقهى صغيراً فيه جلسة في الفناء. بعد غداء طويل وهادئ في الظل، تجولت عبر متاجر الثياب، واختلطت مع السياح ولم تشتت شيئاً. عادت باتجاه الميناء وراقبت القوارب في ذهابها وإيابها. كانت هي وتيسا تأتيان إلى هنا للقاء بورتر، صديقهما البحار الذي يملك قارباً شراعياً بطول ثلاثين قدماً، وكان دائم الحماس لأخذهما في رحلة بحرية. كانت تلك أياماً طويلة، بالنسبة إلى ميرسر. وكما تتذكر، لم يكن هناك رياح كافية أبداً وكانوا يتحمّصون تحت أشعة الشمس. كانت دائماً تحاول الاختباء في المقصورة لكن القارب لم يكن مكيف الهواء. لقد خسر بورتر زوجته بسبب مرض خبيث، قالت تيسا إنه لم يتحدث عن الأمر أبداً وإنه انتقل للعيش في فلوريدا كي يهرب من الذكريات. كانت تيسا تقول دائماً إنّ لديه العينين الأكثر حزناً.

لم تلق ميرسير باللوم على بورتر بشأن ما حدث. ففي النهاية، أحببت تيسا

الإبحار معه، وكانت تُدرك المخاطر. لم يكونا يبتعدان كثيراً عن الشاطئ ولم يكن هناك إحساس بالخطر.

للاحتماء من الحر دخلت ميرسر مطعماً في الميناء وتناولت كأساً من الشاي المُثلج في البار الخالي. حدقت إلى المياه، وراقبت مركب نقل يعود بحمل من أسماك الماهي ماهي وعلى منته أربعة صيادين وقد لوحت الشمس وجوههم. انطلقت مجموعة من راكبي الجيت سكي بسرعة كبيرة، ثم شاهدت قارباً شراعياً يشق طريقه بعيداً عن الميناء. كان بطول ولون قارب بورتر وكان هناك شخصان على سطحه، رجل كبير في السن على كرسي متحرك وسيدة تعتمر قبعة من القش. لبرهة تخيلت تيسا، تجلس بكسل وهي تحمل كأساً في إحدى يديها، ربما تُسدي نصيحة غير مرغوب فيها للقبطان. لقد تافت ميرسر لرؤيتها ومعانقتها والضحك معها على شيء ما. شعرت بألم خفيف في معدتها، لكن سرعان ما ذهبت تلك اللحظة. ظلت تراقب القارب حتى اختفى، ثم دفعت ثمن الشاي وغادرت الميناء.

جلست إلى طاولة في أحد المقاهي، وراقبت متجر الكتب في الطرف المقابل للشارع. كانت واجهاته الضخمة مغطاة بالكتب. وهناك لافتة تعلن عن حفل توقيع لأحد الكُتّاب. هناك شخص يقف دائماً قرب الباب، إما في الداخل أو الخارج. من المستحيل التصديق أنّ المخطوطات موجودة هناك، ومقفل عليها في سرداب ما مخفي داخل القبو. وكان الأكثر غرابةً هو التفكير أنه من المُفترض بها تسليمها بطريقة ما.

لقد اقترحت إيلين أن تبقى ميرسر بعيدة عن المتجر وتنتظر أن يخطو كابل أولاً نحوها. لكن ميرسر الآن جاسوسة تعمل لحسابها وتضع قوانينها الخاصة، رغم أنها بقيت بلا أي فكرة عن الموضوع. لم تكن تتلقى بالضبط أوامر من

أحد. أوامر؟ لم يكن هناك خطة لعب واضحة. لقد رُمي بميرسر داخل المعمة ويتوقع منها التكيف والارتجال لحظة وقوع الحدث. عند الخامسة مساءً، خرج رجل من المتجر يرتدي سترة قطنية وربطة عنق على شكل فراشة، إنه بروس كابل، ما من شك في ذلك، وتوجه نحو الشرق. انتظرت ميرسر حتى اختفى من أمام ناظرها ثم عبرت الشارع ودخلت باي بوكس للمرة الأولى منذ عدة سنين. لم تتمكن من تذكر زيارتها الأخيرة لكن ظنت أنها كانت وقتها في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمرها.

وكما تفعل دائماً في أي متجر كتب، تتجول بلا هدف حتى تجد رفوف الكتب الخاصة بالروايات، ثم تبحث بسرعة من خلال الحروف الأبجدية حتى تصل إلى حرف م لتجد إذا كان أي من كتبها موجوداً في المخزون. ابتسمت، فهناك نسخة واحدة من الطبعة ذات الغلاف الورقي لروايتها مطر تشرين الأول. لم يكن هناك أثر لموسيقى الأمواج، لكن هذا مُتوقع. فهي لم تجد مجموعة قصصها القصيرة في أي متجر كتب منذ الأسبوع الذي نُشرت فيه.

وبإحساسها بتحقيق نصر جزئي، تجولت ببطء في أرجاء المكتبة وهي تستنشق عبق الكتب الجديدة والقهوة، ومن مكان ما، أثر دخان غليون. كانت تعشق الرفوف المُثقلة بأعمالها، وأكداس الكتب على الأرضيات، والسجادات القديمة ورفوف كتب الجيب، والقسم الزاهي للكتب الأكثر مبيعاً والتي عليها خصم بنسبة 25 بالمائة! ومن الجانب الآخر للمتجر، دخلت غرفة الطبقات الأولى، وهي فسحة جميلة مليئة برفوف تحمل مئات الكتب الباهظة الثمن. ومن المقهى الموجود في الأعلى، اشترت زجاجة مياه غازية، وجازفت بالذهاب إلى الشرفة في الخارج حيث هناك أناس آخرون يشربون القهوة ويُمضون وقت نهاية فترة بعد الظهر. وفي الطرف البعيد يوجد سيد نبيل وبدين

يُدخَن الغليون. قَلَّبت صفحات أحد المنشورات السياحية عن الجزيرة ونظرت إلى الساعة.

عند السادسة إلا خمس دقائق، نزلت إلى الطابق الأرضي ورأت بروس كابل بجانب طاولة الاستقبال يتحدث مع أحد الزبائن. لقد تساءلت إن كان يستطيع التعرف إليها، وإن حصل ذلك فربما يكون بسبب صورتها بالأبيض والأسود الموجودة على غلاف رواية مطر تشرين الأول المغبر، تلك الرواية التي عمرها الآن سبع سنوات ولم تدر على متجره سوى بضعة قروش. كان مقررًا أن توقع هنا خلال رحلة الترويج المُلغاة لكتابتها، وبما أنه يشاع عنه أنه يقرأ كل شيء، وربما يعرف ارتباطها بالجزيرة، والأكثر أهمية – على الأقل من وجهة نظره – إنها كاتبة شابة وجذابة. لذا كان الاحتمال في أن يتعرّف إليها مرتفعاً.

لكن ذلك لم يحصل.

2

كان شارع آش على بعد حي واحد من الشارع الرئيسي باتجاه الجنوب. ويقع المنزل عند نقطة التقاء الحديقة بالشارع الخامس. كان قديماً وتاريخياً بسقوف مائلة، مطلياً بلون زهري فاتح أما أبوابه ونوافذه وشرفاته فطُليت باللون الأزرق الداكن. هناك لافتة صغيرة على الباب الرئيسي تقول، «فيكر هاوس 1867».

لم تكن ميرسر تذكر من خلال ماضيها وجود منزل زهري اللون في وسط مدينة سانتا روزا، وهذا ليس أمراً مهماً، فالمنازل تُدهن كل عام.

نقرت بيدها على الباب، فنبتحت مجموعة من الكلاب من جانبه الآخر.

فتحت امرأة ضخمة الباب ودفعت بيدها قائلة: «أنا ميرا، ادخلي. لا تهتمي لأمر الكلاب، فلا أحد يعصّ هنا سواي».

قالت وهي تصافح يدها: «أنا ميرسر».

«تعالى».

تفرقت الكلاب، بينما تبعت ميرسر ميرا إلى البهو. وبصوت عالٍ صرخت ميرا: «أليه! صاحبتنا هنا! ليه!» وعندما لم ترد ليه على الفور، قالت ميرا: «ابق هنا، سأبحث عنها». اختفت عبر غرفة المعيشة، وتركت ميرسر وحدها مع مخلوق هجين بحجم فأر يختبأ تحت طاولة حياكة وهو يزمجر كاشفاً عن جميع أسنانه. حاولت ميرسر تجاهله أو تجاهلها وهي تحاول تقدير حجم المكان. عبقت رائحة مزعجة في المكان بدا أنها مزيج من دخان سيجارة ورائحة كلاب قدرة. كان الأثاث من سوق الأغراض المستعملة لكنه غير تقليدي، والجدران مغطاة بعشرات اللوحات الزيتية والمائية السيئة، لا تُصوّر إحداها أي شيء له علاقة، ولو من بعيد، بالمحيط.

صرخت ميرا من مكان ما مرة أخرى، فبرزت امرأة أصغر حجماً من غرفة الطعام وقالت بنعومة: «مرحباً، أنا ليه تراين»، دون أن تمدّ يدها.

«سُعدتُ برويتك، أنا ميرسر مان».

قالت ليه بابتسامة كشفت عن صفين من الأسنان المُلطخة بالتبغ: «بدأتُ أحب روايتك». لم تسمع ميرسر أحداً يقول ذلك منذ زمن طويل. فترددت قليلاً ثم تمكنت من قول: «حسناً، شكراً لك».

«لقد اشتريتُ نسخة منذ ساعتين من المتجر، إنها رواية جيدة. وميرا مدمنة على جهازها الصغير وتقرأ كل شيء من خلاله».

شعرت ميرسر لوهلة أنها مُلزَمة بالكذب وقول شيء لطيف عن كتاب ليه، لكنّ ميرا جنبتها هذا العناء. عادت بتثاقل إلى البهو وقالت: «ها أنت هنا. بما أننا الآن نحن الصديقات جميعنا هنا، فالبار مفتوح وأنا بحاجة إلى كأس من الشراب. ماذا تودين أن تشربي يا ميرسر؟».

بما أنهما لا يشربان النبيذ، قالت: «الجو حار، سأشرب الجعة».

انصدمت كلتا المرأتين وكأنهما أهينتا. فقالت ميرسر: «حسناً، لكن ينبغي أن تعرفا أنني أحضّر جعتي الخاصة، وهي مختلفة».

أضافت ليه: «إنها فظيعة، كنتُ أحب الجعة قبل أن تفتح مصنع الجعة الخاص بها. أما الآن فلا أستطيع احتمالها».

«ارتشفي الرم الخاص بك يا عزيزتي، وسنتفق بشكل جيد». نظرت ميرا إلى ميرسر وقالت: «إنها جعة حادة الطعم ونسبة الكحول فيها 8 بالمئة، ستُفقدك وعيك إذا لم تكوني حريصة».

سألت ليه: «لَمْ لانزال واقفين في البهو؟».

أجابت ميرا وهي تمدّ يدها نحو السلالم: «هذا سؤال وجيه، اتبعاني». كانت تبدو من الخلف مثل لاعب هجوم وهي تغادر البهو. تبعتا خطاها وتوقفن في غرفة معيشة فيها تليفزيون ومدفأة وفي إحدى الزوايا، بار كامل بطاولة رخامية.

قالت ليه: «لدينا نبيذ بالفعل».

قالت ميرسر: «إذاً سأشرب قليلاً من النبيذ الأبيض».

ذهبت ميرا للعمل خلف البار وبدأت بطرح الأسئلة: «حسناً، أين تقيمين؟».

«لا أظن أنكما تذكران جدتي تيسا مجرودر. كانت تعيش في شاليه صغير
بشارع فيرناردو».

هزّت كلتا المرأتين رأسيهما بالنفي. قالت ميرا: «الاسم يذكرني بشيء
ما».

«لقد ماتت منذ أحد عشر عاماً».

قالت ليه: «نحن نقيم هنا منذ عشر سنوات فقط».

قالت ميرسر: «لاتزال العائلة تملك الشاليه وهناك أقيم».

سألت ميرا: «لكم من الوقت؟».

«بضعة أشهر».

«تحاولين إنهاء إحدى الروايات، صحيح؟».

«ربما العبارة الأصح أحول البدء بكتابة واحدة».

سألت ليه: «ألسنا جميعنا نفعل ذلك؟».

سألت ميرا وهي تفرقع بالزجاجات: «هل حصلتِ على عقد؟».

«أظن ذلك».

«كوني شاكرة على هذا. من هو ناشرك؟».

«فايكنج».

خرجت ميرا من وراء البار، وأعطت ميرسر وليه كأسيهما، ثم أمسكت
بقارورة بحجم ربع جالون من الجعة الثقيلة وقالت: «دعونا نذهب للخارج كي
نستطيع التدخين». من الواضح أنهما كانتا تدخان في الداخل منذ سنوات.

مشين عبر شرفة مفروشة بالألواح الخشبية وتضم طاولة جميلة مصنوعة من الحديد المطاوع بجانب نافورة فيها ضفدعان برونزيان يخرج الماء منهما. كانت أشجار الصمغ تظل الحديقة، ومن مكان ما، يهب نسيم عليل. لم يكن بالإمكان إقفال باب الشرفة ولذا كانت الكلاب تأتي وتذهب كما يحلو لها.

قالت ميرسر بينما كانت كلتا المضيفتين تشعلان سيجارتيهما: «هذا المكان جميل». كانت سيجارة ليه طويلة ورفيعة، أما سيجارة ميرا فهي بنية وثخينة.

قالت ميرا: «أسفة بشأن الدخان، لكننا مدمنتان ولا نستطيع التوقف. ذات مرة منذ ربح من الزمن، حاولنا ذلك، لكن تلك الأيام أصبحت من الماضي. فثمة كثير من العمل والجهد والبؤس، وأخيراً قلنا ليذهب الإقلاع عن التدخين إلى الجحيم. سنموت لسبب ما، أنت تعلمين». مجت سيجارتها طويلاً ثم استنشقت وزفرت الدخان وبعدها أتبعها بجرعة من الجعة. «هل تريدين بعضاً منه؟ هيا جربيه».

قالت ليه: «ما كنتُ لأفعل ذلك».

ارتشفت ميرسر كأس نبيذها بسرعة، ثم هزت رأسها وقالت: «لا، شكراً». سألت ميرا: «ذلك الشاليه، قلت إنه للعائلة؟ هل كنتِ تأتيين إلى هنا منذ زمن طويل؟».

«نعم، منذ كنتُ صغيرة. لقد قضيت فصول الصيف هنا مع جدتي تيسا».

«كم هذا جميل، أحب ذلك». تناولت جرعة أخرى من الجعة. كان شعر ميرا حاسراً للخلف بمقدار إنش فوق أذنيها ولذا يتمايل شعرها الرمادي من طرف لآخر كلما تشرب وتدخن وتتكلم. كان شعرها أشيب بالكامل وهي بعمر ليه تقريباً، لكن ليه لديها شعر أسود طويل مرفوع للخلف ومربوط على شكل ذيل

حصان ولا يظهر الشيب فيه.

بدت كلتاها مستعدتين لتلقي الأسئلة، ولذا أخذت ميرسر زمام المبادرة وسألت: «ما الذي أتى بكما إلى جزيرة كامينو؟».

تبادلتا النظرات وكأنّ القصة كانت طويلة ومعقدة. قالت ميرا: «عشنا في منطقة فورت لودردايل لسنوات عديدة فشعرنا بالملل من حركة المرور والازدحام. إنّ وتيرة الحياة هنا أبطأ بكثير والناس ألطف كما أنّ العقارات أرخص. وأنتِ؟ أين تسكنين هذه الأيام؟».

«كنتُ أعيش في تشابل هيل طيلة السنوات الثلاث الماضية أمارس مهنة التعليم. لكن الآن أنا في حالة تنقل نوعاً ما».

سألت ميرا: «ماذا يعني هذا بحق الجحيم».

«يعني أنني مشردة أساساً وعاطلة عن العمل وتواقّة لإنهاء رواية».

ضحكت ليه، وقهقهت ميرا بينما كان الدخان ينبعث من أنفيهما. قالت ميرا: «كنا في الموقف نفسه، فقد التقينا منذ ثلاثين عاماً عندما لم تملك أي منا قرشين لتفركهما معاً. كنتُ أحاول كتابة الروايات التاريخية أما ليه فتحاول كتابة ذلك الأدب الغريب الذي لاتزال تحاول كتابته ولا شيء يُباع منه. كنا نعيش على الرعاية الاجتماعية وقسائم الطعام ونعمل بالأجر الأدنى، لم تكن الأمور جيدة. في يوم من الأيام، كنا نمشي في أحد المولات ورأينا صفاً طويلاً من الناس، جميعهم من النساء المتوسطات في العمر، اللاتي ينتظرن شيئاً ما. وفي المقدمة هناك متجر كتب، واحد من متاجر وولدن للكتب والموجودة في كل مول، كانت روبرتا دولي تجلس إلى طاولة وتقضي وقتاً ممتعاً، إنها واحدة من أشهر الكاتبات التي حققت أعلى المبيعات في ذلك الوقت. وقفْتُ في

الصف – كانت ليه متغطسة للغاية – واشتريتُ الكتاب ثم قرأناه. كانت القصة تدور حول قرصان جال في البحر الكاريبي وهو يهاجم السفن ويفتح أبواب الجحيم ويهرب من البريطانيين، ويحدث دائماً أنه في أي مكان يرسو فيه هناك عذراء شابة رائعة الجمال تنتظر أن تُفَضَّ بكارتها. محض هراء. لذا، استوحينا مما كانت تكتب وكتبنا قصة عن حسناء جنوبية لم تكن تستطيع الابتعاد عن عبيدها فحملت. لقد رمينا كل شيء عليها».

أضافت ليه: «توجب علينا شراء بعض المجلات الإباحية، أنت تعلمين، كمواد مرجعية. كثير من تلك الأشياء التي لم نكن نعرف بشأنها».

ضحكت ميلا وتابعت كلامها: «كتبناها على عجل خلال ثلاثة أشهر ثم أرسلتها على مريض إلى وكيل أعمالني في نيويورك. فاتصل بعد أسبوع وقال إنَّ أحد الحمقى يعرض خمسين ألفاً كدفعة مقدمة. نشرناها تحت اسم ميلا ليه. أليس هذا ذكياً؟ خلال سنة تغيرت أمورنا المالية ولم نعد ننظر إلى الماضي».

سألت ميرسر: «إذا أنتما تكتبان معاً؟».

أجابت ليه بسرعة كأنها تحاول إبعاد نفسها عن الأمر: «هي التي تكتب، نحن نعمل على القصة معاً، وهذا يستغرق حوالي عشر دقائق، ومن ثم هي تعمل باجتهاد. أو هكذا كنا نفعل».

«إنَّ ليه متغطسة ولا ترغب بالمشاركة بالكتابة. لكنها بالتأكيد تشارك بإنفاق المال».

قالت ليه مع ابتسامة: «كفى يا ميلا».

تنشقت ميلا ملء رئتيها، ثم نفخت غيمة من الدخان من فوق كتفها وقالت: «كانت أياماً مجيدة. لقد أنجزنا بسرعة مائة كتاب بأسماء مختلفة، ولم نتمكن

من كتابتها بسرعة كافية. الأقدر هو الأفضل. ينبغي عليك أن تجربي كتابة واحد منها. قذارة محضة». «

قالت ميرسر: «لا أطيق صبراً».

قالت ليه: «أرجوك لا تفعلي. أنت أذكى بكثير من أن تفعلي ذلك. أنا أحب ما تكتبينه».

تأثرت ميرسر من كلامها فقالت بهدوء: «شكراً لك».

تابعت ميلا كلامها: «ثم أبطأنا في الكتابة. لقد تمت مقاضاتنا مرتين من قبل تلك العاهرة المجنونة في الشمال التي ادّعت أننا سرقنا أشياء تخصها. لم يكن هذا صحيحاً فهاؤنا كان أفضل بكثير من هرائها، لكنّ المحامين انتابهم التوتر وجعلونا نحل الأمر ودياً خارج المحكمة. وهذا أدى إلى عراق كبير مع ناشرنا ومن ثم مع وكيل أعمالنا، وهذا كله خرّب علينا مسيرتنا نوعاً ما. أصبحت سمعتنا الأدبية سيئة، أو على الأقل سمعتي. فعلت ليه خيراً بالاختباء خلفي وتجنّب الخوض في هذه الوحول. لاتزال سمعتها الأدبية سليمة كما هي».

«كفى يا ميلا».

سألت ميرسر: «إذا توقفتِ عن الكتابة؟».

«دعينا نقل إنني تباطأتُ بصورة ملحوظة. هناك نقود في البنك ولا تزال بعض الروايات تلقى رواجاً».

قالت ليه: «لأزال أكتب كل يوم، فحياتي ستكون خاوية إن لم أكتب».

احتدت ميلا فقالت: «وستكون أكثر خواءً إن لم أبع».

«كفى يا ميلا».

جثم الكلب الأكبر بين المجموعة والذي يزن أربعين باونداً، في مكان قريب من الشرفة وتبرز.

غيرت ميرسر الموضوع فقالت: «هل هناك كتاب آخرون في الجزيرة؟».

أومات ليه برأسها مع ابتسامة فقالت ميرا: «أوه، هناك الكثير».

قالت ليه: «هناك جاي، جاي آركليروود».

أصبح من الواضح أنّ عمل ليه هو مجرد تقديم الاقتراحات ومن ثم تقوم ميرا بالرواية. قالت: «ستبدئين معه أليس كذلك؟ إنه مُتجرف أدبي آخر لا يستطيع البيع ويكره كل شخص يستطيع. هو شاعر أيضاً. هل تحبين الشعر يا عزيزتي ميرسر؟».

لم تترك نبرة صوتها أي شك بأنها لا تحب الشعر كثيراً. قالت ميرسر: «لا أقرأ كثيراً منه».

«حسناً، لا تقرئي شعره، حتى إذا تمكنت من إيجاده».

«أخشى أنني لم أسمع به».

«لم يسمع به أحد. مبيعاته أقل من مبيعات ليه».

«كفى يا ميرا».

سألت ميرسر: «ماذا بشأن آندي آدمز، ألا يعيش هنا؟».

أجابت ميرا: «بلى، عندما لا يكون في مركز إعادة التأهيل. لقد قام ببناء بيت جميل في الطرف الجنوبي، ثم فقدته بسبب طلاق. إنه يعيش في حالة فوضى لكنه كاتب جيد. أنا أعشق سلسلة كابتن كلايد التي ألفها، فهي من أفضل روايات الجريمة هنا. حتى ليه بإمكانها التنازل كي تستمتع بها».

قالت ليه: «رجل لطيف، عندما لا يكون ثملاً، لكنه سگير شنيع. لايزال يقع في المشاكل».

قالت ميرا: «في الشهر الأخير فقط، دخل بعراك في الحانة التي في الشارع الرئيسي. لقد ضربه رجل يبلغ نصف عمره ضرباً مبرحاً قبل أن تقبض الشرطة عليه. لقد اضطرّ بروس إلى دفع كفالتة».

سألت ميرسر بسرعة: «من بروس هذا؟».

تنهدت ميرا وليه ثم أخذتا رشفة من كأسيهما وكانّ أي نقاش عن بروس يمكن أن يستغرق ساعات. أخيراً، قالت ليه: «بروس كابل، إنه مالك متجر الكتب. ألم يسبق لك أن التقيت به؟».

«لا أظن ذلك. أستطيع تذكر زيارة المتجر عدة مرات عندما كنتُ صغيرة، لكن لا أستطيع القول إنني التقيتُ به».

قالت ميرا: «عندما يتعلق الأمر بالكتب والكتب، كل شيء يدور حول المتجر. وهذا يعني أنّ كل شيء يدور حول بروس. إنه الرجل المثالي».

«وهل هذا شيء جيد؟».

«أوه، نحن نعشق بروس. إنه مالك أكبر متجر كتب هنا وهو يحب الكتب. منذ سنوات، وقبل أن ننتقل إلى هنا عندما كنتُ أقرأ وأنشر، دعاني إلى حفل توقيع أحد الكتب في متجره. من النادر أن تستضيف متاجر الكتب الهامة كاتباً رومانسياً، لكنّ بروس لم يهتم لذلك. لقد أقمنا حفلاً رائعاً، وبعنا مجموعة من الكتب ثم ثملنا من شرب الشمبانيا الرخيصة الثمن وأبقينا المتجر مفتوحاً حتى منتصف الليل. حتى أنه أقام حفل توقيع كتاب لأجل ليه».

«كفى يا ميرا».

«هذا حقيقي، وقد باعت أربعة عشر كتاباً».

«خمسة عشر. أكبر حفل توقيع لي على الإطلاق».

قالت ميرسر: «رقمي القياسي هو خمسة وذلك كان أول حفل توقيع لي. وبيع خمسة في حفل التوقيع التالي، ثم صفر في الثالث. بعد ذلك اتصلتُ بنيويورك وألغيتُ كل شيء».

قالت ميررا: «أحسنتِ يا فتاة. هل اعتزلتِ؟».

«نعم فعلت، وفي حال نشرت مرة أخرى لن أقوم بجولة ترويجية».

«لمَ لم تأتي إلى هنا، إلى متجر باي بوكس؟».

«كانت الرحلة مُقرّرة، لكنني فزعت وأوقفتُ العمل».

«كان يجب أن تبدي من هنا. فبإمكان بروس أن يجذب الحشود دائماً. إنه يتصل بنا طوال الوقت ويقول هناك كاتب قادم إلينا وربما نحب كتابه أو كتابها. وهذا يعني أن نذهب إلى المتجر من أجل حفل التوقيع وأن نشترى الكتاب اللعين! نحن لا نتغيب أبداً».

أضافت ليه: «لدينا كثير من الكتب، جميعها موقّعة من قبل المؤلفين ومعظمها غير مقروء».

سألت ميررا: «هل ذهبتِ إلى المتجر؟».

«لقد ذهبتُ إليه وأنا في طريقي إلى هنا. إنه رائع».

«إنه واحة حضارية. دعينا نلتقِ هناك على الغداء وسأعرفك إلى بروس. سوف تُعجبين به وأستطيع أن أوكد لك أنه سيولع بك. إنه يحب جميع الكُتاب، لكنّ الكاتبات الجميلات الشابات يحظين باهتمام خاص».

«هل هو متزوج؟».

«نعم. زوجته اسمها نويل وهي تتواجد عادةً. إنها شخصية عظيمة بحق».

قالت ليه بشكل دفاعي تقريباً، وكأنّ معظم الناس يشعرون بخلاف ذلك:
«أنا معجبة بها».

سألت ميرسر بقدر ما أمكنها أن تبدو بريئة: «ماذا تعمل؟».

أجابت ميرا: «إنها تبيع الأنتيكات الفرنسية في متجر مجاور لمتجر الكتب.
من يريد كأساً أخرى؟».

بالكاد لمست ميرسر وليه كأسيهما. مشت ميرا كي تعيد ملء كأسها
الكبيرة. فتبعها ثلاثة كلاب على الأقل. أشعلت ليه سيجارة أخرى وسألت: «إذاً
أخبريني عن روايتك، عن عملك الجاري».

أخذت ميرسر رشفة من كأسها وقالت: «حقاً لا أستطيع التحدث بشأنها.
إنها قصة مبدأ. أنا أكره سماع الكُتّاب يتحدثون عن عملهم، ألا تكرهين ذلك
أيضاً؟».

«أظن. أنا أحب مناقشة عملي لكنها لن تُصغي إليّ. يبدو وكأنّ التحدث
بشأن عملك قد يحفزك على الكتابة فعلاً. بالنسبة إليّ، أنا في حالة من عسر
الكتابة منذ ثماني سنوات». ضحكت ثم أخذت مجّة سريعة وأضافت: «لكن من
ناحية أخرى ليس عندها الكثير لتقدمه لي. أنا تقريباً أخشى الكتابة بسببها».

شعرت ميرسر لوهلة بالأسى عليها وكادت أن تتطوع كقارئة لها، لكنها
تذكرت فجأةً روايتها المُعدّبة. عادت ميرا بكأس كبيرة أخرى ورفست أحد
الكلاب بينما كانت تجلس.

قالت: «ولا تنسي مصاصة الدماء. أيمي ماذا كان اسمها؟».

أجابت ليه: «أيمي سلاتر».

«تلك هي. لقد انتقلت للعيش هنا منذ خمس سنوات تقريباً مع زوجها وبعض الأولاد. لقد حققت نجاحاً باهراً بسلسلة عن مصاصي الدماء والأشباح وأشياء مثل هذا الهراء، أشياء مريعة فعلاً تحقق مبيعات هائلة. أستطيع وأنا في أسوأ حالاتي أن أتفوق عليها في الكتابة وإحدى يدي مربوطة خلفي، وصدقيني لقد نشرت بعض الكتب الفظيعة والتي كان من المفترض أن تكون فظيعة».

«كفى يا ميرا. أيمي شخص لطيف».

سألت ميرسر: «هل هناك من شخص آخر؟». حتى الآن، تم تصنيف كل الكتاب كقمامة وميرسر كانت تستمتع بالمذبحة التي لم تكن غريبة أبداً عندما يجتمع الكتاب لتناول المشروب ويتحدثون عن بعضهم.

قالت ميرا: «لدينا مجموعة من الأشخاص ينشرون لأنفسهم، إنهم يكتبون بعض الأشياء وينشرونها على الإنترنت ويدعون أنفسهم كُتاباً. إنهم يطبعون بعض النسخ، ويتسكعون حول متجر الكتب، ثم يضايقون بروس ليضعها في المقدمة بجانب الباب وبعدها يأتون كل يوم ليتفقدوا عائداتهم. إنهم مزعجون حقاً. لديه طاولة حيث يضع عليها كل الأشياء المنشورة ذاتياً وهو دائماً يتشاجر مع واحد أو اثنين منهم على مكانها. هل تعلمين؟ في عصر الإنترنت هذا، بمقدور الجميع الآن أن يصبحوا كُتاباً وناشرين».

أجابت ميرسر: «أوه أنا أعلم. عندما كنتُ أدرّس، كانوا يتركون الكتب والمخطوطات على شرفتي الأمامية، وعادةً مع رسالة طويلة تصف كم كان

عملهم رائعاً وكم يُقدّرون أن أكتب لهم نبذة ترويجية عنه».

قالت ليه بلطف: «إذا أخبرينا عن التعليم».

«أوه، التحدث عن الكُتاب أكثر متعة».

قالت ميرا: «لدي واحد. اسمه بوب لكنه يستعمل اسم مستعار هو ج. أندرو كوب. نحن ندعوه بوب كوب. لقد أمضى ست سنوات في سجن فيدرالي وتعلّم الكتابة نوعاً ما. نشر أربعة أو خمسة كتب حول ما يعرفه أفضل ما يمكن – التجسس على الشركات – وهي كتب ممتعة للقراءة. إنه ليس كاتباً سيئاً».

قالت ليه: «اعتقدتُ أنه رحل».

«إنه يحتفظ بشقة له بجانب فندق الريتز، وهناك لديه دائماً إحدى الفتيات الشابات اللواتي يلتقي بهن في الشاطئ. هو يُقارب الخمسين من العمر، والفتيات اللاتي يلتقي بهن يبلغن نصف ذلك العمر. لكنه ساحر وبإمكانه سرد قصص رائعة عن السجن. كوني على حذر عندما تكونين على الشاطئ فهو دائماً يحوم في المكان».

قالت ميرسر بابتسامة: «سأخذ هذه المعلومة بعين الاعتبار».

سألت ميرا وهي تشرب من كأسها: «من الشخص الآخر الذي يمكننا التحدث عنه؟».

أجابت ميرسر: «يكفي هذا في الوقت الحالي، سيتطلب ذلك بعض العمل كي نتذكر الجميع».

«ستلتقين بهم في أقرب وقت. فهم يدخلون ويخرجون من متجر الكتب كما أنّ بروس يستضيف دائماً أشخاصاً لتناول العشاء والمشروب».

ابتسمت ليه ووضعت كأسها على الطاولة ثم قالت: «دعينا نقم بذلك هنا يا ميرا. دعينا نقم حفل عشاء وندعُ كل أولئك الأشخاص الرائعين الذين كنا نتحدث عنهم بالسوء خلال الساعة الماضية. فنحن لم نقم باستضافة أحد منذ وقت طويل بل دائماً بروس ونويل هما من يفعلان ذلك. نحن بحاجة لأن نرحب بميرسر بشكل رسمي في الجزيرة. ما رأيك؟».

«فكرة عظيمة، فكرة لطيفة. سأطلب من دورا أن تقوم بتقديم الطعام ونحن سننظف المنزل. ما رأيك بذلك يا ميرسر؟».

هزّت ميرسر كتفيها، وأدركت أن من الحماسة الاعتراض على ذلك. غادرت ليه كي تملأ كأسها وتجلب المزيد من النبيذ. أمضين الساعة التالية يتحدثن عن الحفلة ويثرثرن بشأن قائمة الضيوف.

كان الظلام قد حل عندما تمكنت ميرسر أخيراً من المغادرة. لقد أصرتا عليها أن تبقى لتناول العشاء، لكن عندما زلّ لسان ليه وقالت أنه لا يوجد شيء في الثلاجة سوى بقايا طعام، أدركت ميرسر أنه حان وقت المغادرة. لم تكن مستعدة لقيادة السيارة بعد ثلاث كؤوس من النبيذ، فجالت على غير هدى مع السياح في الشارع الرئيسي. وجدت مقهى لايزال مفتوحاً فأمضت ساعة على البار وهي تشرب كوباً من اللاتيه وتقرأ مجلة ذات غلاف لامع تروّج للجزيرة، وهي في الأساس لوكلاء أعمال عقارية. كان متجر الكتب مزدحماً في الجانب المقابل من الشارع. أخيراً، توجهت إلى المتجر، وأخذت تحديقاً إلى واجهات العرض الجميلة لكنها لم تدخل، بل توجهت إلى الميناء الهادئ حيث جلست على مقعد تشاهد القوارب الشراعية وهي تهتز بلطف على الماء. كانت أذناها لا تزالان ترنان بكمّ الأقاويل التي سمعتها للتو، كما كتمت ضحكتها من منظر ميرا وليه وهما تشربان وتتفخان الدخان وتصبحان أكثر حماسة بشأن حفل

العشاء.

تلك كانت ليلتها الثانية في الجزيرة ولكنها أحست أنها تتأقلم بسرعة. ربما يكون لتناول المشروب مع ميرا وليه التأثير نفسه على أي زائر. لقد ساعد الطقس الحار والهواء الرطب المحمل بالملح في تسهيل المرحلة الانتقالية. ومع عدم وجود منزل للاشتياق إليه كان من المستحيل الشعور بالحنين إلى الوطن. سألت نفسها مئات المرات، ما الذي تفعله هناك بالضبط. لا يزال السؤال يطرح نفسه، لكنه أخذ يتلاشى ببطء.

3

كان المد العالي عند الساعة 3:21 بعد منتصف الليل، وعندما بلغ أوجَه انزلقت السلحفاة ذات الرأس الضخم إلى الشاطئ، وتوقفت عند زبد البحر، وأخذت تنظر حولها. كانت بطول ثلاث أقدام ونصف القدم وتزن 350 باونداً، كما كانت تهاجر في البحر منذ أكثر من سنتين وهي تعود إلى بقعة تبعد خمسين ياردة عن المكان الذي صنعت فيه آخر عشها. بدأت تزحف ببطء، حركة بطيئة وخرقاء وغير طبيعية بالنسبة إليها. وبينما تجهد في حركتها للأمام وتسحب زعنفتيها الأماميتين وتدفع بقوة أكثر عبر ساقبيها الخلفيتين، توقفت بشكل متكرر كي تتفحص الشاطئ، ولتبحث عن أرض جافة وعن الخطر، عن أي مفترس أو أي حركة غير طبيعية. وعندما لم تر أي من ذلك، تقدمت إلى الأمام تاركة أثراً مميزاً في الرمل. وعلى بعد مائة قدم من الشاطئ، وجدت بقعتها في قعر أحد الكثبان الرملية، وبدأت بإزالة الرمل بزعانفها الأمامية. وباستخدام زعانفها الخلفية كمعاول، بدأت بتشكيل حفرة بحجم جسدها بعمق أربعة إنشات. وبينما هي تحفر، كانت تسوي الأخدود من تحتها عبر تدوير جسدها. إنه عمل شاق بالنسبة إلى مخلوق مائي فغالباً ما كانت تتوقف لترتاح. عندما انتهت من

الحفرة التي بحجم جسدها بدأت بالحفر بشكل أعمق من أجل تشكيل تجويف خاص بالبيوض. أنهت عملها وارتاحت لفترة أطول، ثم غطت تجويف البيوض ببطء بمؤخرة جسدها. سقطت ثلاث بيوض دفعة واحدة ثم تبعتها بيوض أخرى، اثنتين وثلاث في كل مرة. لم تكن تتحرك وهي تبيض بل كانت في حالة جمود.

رأت ميرسر آثار حركة السلحفاة القادمة من البحر وابتسمت. تبعتها بحرص إلى أن رأتها قرب الكثيب الرملي. تعرف من خبرتها أنّ أي ضجة أو إزعاج للأم خلال التعشيش يمكن أن يجعلها تلغي العملية وتعود إلى الماء دون تغطية بيوضها. توقفت ميرسر، وأخذت تتفحص المكان. لقد ساعدها نصف القمر الذي يبرز من بين الغيوم بتحديد شكل السلحفاة ذات الرأس الضخم.

انتهت حالة الجمود، واستمرت عملية الإباضة دون انقطاع. وعندما امتلأ التجويف بمائة بيضة، أنهت عملها لتلك الليلة، وبدأت بإهالة الرمال عليها. وما إن غطت التجويف بالكامل رصت الرمال بزعانفها الأمامية ثم غطته بمزيد من الرمال لتمويه العش.

ما إن تحركت السلحفاة، علمت ميرسر أنّ بناء العش قد انتهى، وأنّ البيوض أصبحت بأمان. ابتعدت عنها قليلاً، واختبأت بجانب كثيب رملي قريب في الظلام، وأخذت تراقب السلحفاة وهي تنشر الرمال فوق عشها وتنتشره في جميع الاتجاهات من أجل خداع أي حيوان مفترس.

بعد ذلك، بدأت السلحفاة زحفها المضني نحو المياه بعد أن اطمأنت أن عشها في أمان، تاركةً خلفها بيوضاً لن تهتم بها مرة أخرى أبداً. ستعشش مرة أو اثنتين خلال الموسم قبل أن تهجر عائدةً إلى مناطق تغذيتها التي تبعد مئات

الأميال. وخلال سنة أو اثنتين وربما ثلاثة أو أربعة، ستعود إلى الشاطئ نفسه وستعشش مرة أخرى.

كانت تيسا تمشي في هذا القسم من الشاطئ برفقة حفيدتها خمس ليالٍ كل شهر، من أيار إلى آب، وهي تبحث عن آثار تعشيش السلاحف ذات الرؤوس الضخمة. لطالما كان اكتشاف آثار السلاحف مثيراً، كما أنّ مشاهدة أم وهي تضع بيوضها كان متعةً لا تُوصف.

اتكأت ميرسر الآن على الكُثيب الرملي وانتظرت، فسيأتي متطوعو جمعية حماية السلاحف قريباً ويقومون بعملهم. ترأست تيسا تلك الجمعية لعدة سنوات، وقد قاتلت بضراوة من أجل حماية الأعشاش كما عاقبت المصطافين مرات عديدة لعبثهم بالمناطق المحمية. وتذكر ميرسر مناسبتين على الأقل استدعت فيهما جدتها الشرطة. كان القانون إلى جانبها، بالإضافة إلى القوانين الخاصة بالسلاحف وهي تريد تطبيقها.

أصبح ذلك الصوت القوي والحيوي صامتاً الآن، ولن يعود الشاطئ كما كان، على الأقل ليس بالنسبة إلى ميرسر. حدّقت إلى أضواء قوارب صيد الربيان وابتسمت لذكريات تيسا وسلاحفها. اشتدت الرياح فضمت ذراعيها إلى صدرها كي تبقى دافئة.

خلال ستين يوماً تقريباً، وبحسب درجة حرارة الرمال، ستنبض فراخ السلاحف بالحياة. ومن دون مساعدة أمها، ستكسر قشور بيوضها، وتحاول الخروج بشكل جماعي وهذا الأمر قد يستغرق أياماً. وعندما يُصبح الوقت مناسباً، عادةً يكون ذلك في الليل أو خلال عاصفة مطرية حيث تكون درجة الحرارة أكثر برودة، تبدأ الفراخ بالفرار. تخرج معاً من التجويف، ولا تستغرق

فترة طويلة لمعرفة وجهتها، قبل أن تسرع نحو المياه كي تسبح بعيداً. كانت الظروف ضدها، فالمحيط مليء بعدد كبير من الحيوانات المفترسة إلى درجة أنّ واحداً من بين ألف من صغار السلاحف فقط يصل إلى مرحلة البلوغ.

كان هناك شخصان يقتربان من الشاطئ، فتوقفا عندما رأيا الآثار ثم تبعها وصولاً إلى مكان العش. وعندما تأكدا من ذهاب الأم وأنّ البيوض قد وُضعت، تفحصا الموقع بواسطة مصابيح كشافه ورسموا دائرة في الرمل حوله، ثم غرسا عوداً صغيراً عليه شريط أصفر. تمكنت ميرسر من سماع صوتيهما الناعمين – كانتا امرأتين – لكنها لم تستطع رؤيتهما من مكانها الآمن. ستعودان في النهار كي تطوقا مكان العش بشريط معدني ولافتة، وهو شيء فعلته مع تيسا عدة مرات من قبل. وبينما كانتا تبتعدان غطتا آثار السلاحف بالرمال بحذر لإخفائها.

بعد فترة طويلة من ذهابهما، قررت ميرسر الانتظار حتى شروق الشمس. لم تكن قد أمضت الليل على الشاطئ أبداً، ولذا جلست مُتكئةً على الكثيب الرملي قبل أن تغط تغلبها النعاس.

من الواضح أنّ مجموعة الجزيرة الأدبية كانت تخشى كثيراً من رفض دعوة ميرا بيكويذ المتأخرة للعشاء. لم يُرد أحد إغضابها. كما توقعت ميرسر أنّ أحداً لا يريد المخاطرة بالتغيب عن اجتماع سيكون فيه الغائب محور الحديث والنميمة. من باب الفضول والدفاع عن النفس، بدأوا بالوصول إلى فيكر هاوس في وقت متأخر من بعد ظهر الأحد لتناول العشاء والشراب على شرف وجود أحدث عضو في مجموعتهم، وإن يكن وجوداً مؤقتاً. صادف العشاء يوم عطلة بداية الصيف، كما حُدّد الموعد عبر البريد الإلكتروني عند الساعة

السادسة مساءً، لكن تلك الساعة لم تكن تعني شيئاً بالنسبة إلى حفنة من الكُتاب، فلم يأت أحد في الموعد المحدد.

بوب كوب كان أول الواصلين، وعلى الفور استفرد بميرسر في الشرفة الخلفية وبدأ بطرح أسئلة عن عملها. كان شعره رمادياً طويلاً، وبشرته سمراء برونزية بسبب تمضيته وقتاً طويلاً في العراء، ويرتدي قميصاً مبهرجاً بالورود فاتحاً أزواره العلوية كاشفاً عن شعر صدر أشيب. بحسب كلام ميرا، تفيد الشائعة أنّ كوب قدم آخر رواية له لكنّ ناشره لم يكن سعيداً بها. لم تقل كيف عرفت بذلك. كان يشرب الجعة من كأس كبيرة ويقف قريباً من ميرسر وهما يتحدثان.

أنت أيّمي سلاتر، «مصاصة الدماء»، لنجدتها مرحبة بقدمها إلى الجزيرة. تحدثت مطولاً عن أطفالها الثلاثة وادعت أنها متحمسة للخروج من المنزل هذه الأمسية. انضمت ليه تراين إلى المجموعة لكنها لم تتكلم كثيراً، أما ميرا فجالت في أرجاء المنزل بفستانها الوردي الفضفاض والذي يناظر خيمة صغيرة من حيث الحجم، موجهة التعليمات لمُتعهدة تقديم الطعام، وجالبة المشروبات.

في وقت لاحق، وصل بروس ونويل. وأخيراً، التقت ميرسر بالرجل المسؤول عن إجازتها. كان يرتدي سترة قطنية ذات لون أصفر فاتح مع ربطة عنق على شكل فراشة رغم أنّ الدعوة تقول بوضوح «ملابس غير رسمية على الإطلاق». لكنّ ميرسر استغرقت وقتاً طويلاً حتى عرفت أنّ كل شيء مباح للمجموعة الأدبية. فكوب يرتدي سروال ركبي قصير، أما نويل فبدت متأقّة بفستان من القطن الأبيض الضيق الذي أبرز مفاتن جسدها النحيل بشكل رائع. قالت ميرسر في نفسها، اللعنة على الفرنسيين، وهي ترتشف النبيذ

الأبيض الفرنسي وتحاول الحفاظ على متابعتها للحديث التافه.

بعض الكُتّاب رواة متمرسون لديهم مخزون لا ينفد من القصص والنكات والتعليقات الذكية. وآخرون منعزلون وانطوائيون يتحركون بصعوبة في عوالمهم الفردية ويكافحون من أجل الاختلاط والاندماج مع الضيوف. كانت ميرسر في مكان ما بين الحالتين. فقد أعطتها طفولتها الوحيدة القدرة على العيش في عالمها الخاص، حيث كان هناك القليل يُقال. وبسبب ذلك، أُجبرت نفسها على الضحك والثرثرة والاستمتاع بالنكات.

ما إن حضر آندي آدامز حتى طلب كأساً مُضاعفة من الفودكا مع الثلج. أعطته ميرا الكأس وألقت بنظرة غريبة على بروس. كانوا يعرفون أنّ آندي «يُكثر من الشرب» وهذا أمر مُقلق. عندما قدّم نفسه إلى ميرسر، انتبهت على الفور لوجود ندبة صغيرة فوق عينه اليسرى وفكرت بنزعه للشجار في الحانات. كان وكوب بالعمر نفسه تقريباً، وكلاهما مُطلق، ويشرب كثيراً خلال تسكعه على الشاطئ، وهما محظوظان بما يكفي ليُحققا مبيعات جيدة ويستمتعا بحياتهما الفوضوية. لقد انجذب كل منهما للآخر وبدأا الحديث عن صيد السمك.

بعد السابعة بقليل، وصل جاي آركليروود، الشاعر الكئيب والنجم الأدبي المُحبَط، والذي بحسب ميرا، أتى باكراً على غير عادته. تناول كأس من النبيذ، وألقى التحية على بروس، لكنه لم يُقدّم نفسه إلى ميرسر. وبوجود المجموعة كلها، طلبت ميرا منهم الإصغاء واقترحت نخباً: «كأس من الشراب على شرف صديقتنا الجديدة، ميرسر مان، التي ستكون هنا لفترة قصيرة بأمل أن تجد الإلهام تحت الشمس وعلى الشاطئ وتُنتهي روايتها اللعينة التي تأخرت ثلاث سنوات في تسليمها للناشر. نخبكم!».»

قالت ليه وهي تضحك: «ثلاث سنوات فقط؟».

قالت ميرا بتشجيع: «ميرسر».

ابتسمت ميرسر وقالت: «شكراً لكم. أنا سعيدة بوجودي هنا. أنا آتي إلى هنا كل صيف منذ أن كنتُ بعمر السادسة لأقيم مع جدتي تيسا مجرد. ربما يعرفها البعض منكم. كانت أسعد أيام حياتي على الأقل حتى الآن، حيث قضيتها معها على الشاطئ وفي الجزيرة. لقد غبت وقتاً طويلاً لكني سعيدة بعودتي. وسعيدة أكثر لوجودي الليلة معكم».

رفع بوب كوب كأسه وقال: «مرحباً بك». وكذلك الآخرون رفعوا كؤوسهم وقالوا «نخبك!» من قلبهم وبدأوا الحديث في الحال.

اقترب بروس من ميرسر وقال بهدوء: «كنتُ أعرف تيسا. لقد ماتت هي وبورتر خلال إحدى العواصف».

أجابت ميرسر: «نعم، منذ أحد عشر عاماً».

قال بروس بشكل أخرق نوعاً ما: «أنا آسف».

«حدث ذلك منذ وقت طويل».

اندفعت ميرا نحوهما وهي تقول: «حسناً، أنا جائعة. أحضرا كأسيكما إلى الطاولة لتناول العشاء».

شقاً طريقهما نحو غرفة الطعام. كانت الطاولة ضيقة وليست طويلة بما يكفي لتسعة أشخاص، بينما كان عدد الحاضرين عشرون، أيّ يكن الأمر ستجمعهم ميرا حولها. وهي مُحاطة بمجموعة من الكراسي غير المُتناسقة. لكنّ التوضيب كان جميلاً بصف من الشموع في المنتصف والكثير من الزهور.

كانت كؤوس النبيذ والخزف الصيني قديمة ومتناسقة بشكل أنيق، والأواني الفضية مرتبة بشكل رائع. والمناديل القماشية البيضاء مكوية ومطوية بأناقة. حملت ميرا ورقة عليها ترتيب أمكنة الجلوس، تلك الورقة التي من الواضح أنها اختلفت عليها مع ليه، وأعطت التعليمات. جلست ميرسر بين بروس ونويل، وبعد التذمر المعتاد جلس البقية في أماكنهم. ابتدأت ثلاث محادثات منفصلة على الأقل بينما كانت متعهدة الطعام دوراً، تسكب النبيذ. الجو دافئ والنوافذ مفتوحة، وهناك مروحة تدور فوقهم.

قالت ميرا: «حسناً، أليكم القواعد. لا حديث عن كتبكم الخاصة، ولا في السياسة. يوجد بعض الجمهوريين هنا».

قال آندي: «ماذا! من الذي دعاهم؟».

«أنا، وإذا لم يعجبك الأمر بإمكانك الرحيل».

قال آندي بلهجة امرأة: «من هم؟».

أجابت آيمي وهي ترفع يدها بفخر: «أنا». من الواضح أن هذا الأمر حصل من قبل.

عندها قال كوب: «أنا جمهوري أيضاً. رغم أنني كنت في السجن وعانيت من مكتب التحقيقات الفيدرالي، إلا أنني لا أزال جمهورياً».

تمتم آندي قائلاً: «ليكن الله في عوننا».

قالت ميرا: «هل فهمتم ما أرمي إليه. لا حديث في السياسة».

سأل كوب: «ماذا بشأن كرة القدم؟».

أجابت ميرا وهي تبتسم: «ولا كرة قدم. ما الذي تحب أن تتحدث عنه يا

بروس؟».

أجاب بروس وضحك الجميع: «كرة قدم وأمور سياسية».

«ما الذي يحدث في المتجر هذا الأسبوع؟».

«حسناً، ستعود سيرينا روش يوم الأربعاء. وأتوقع رؤيتكم جميعاً في

المتجر لحضور حفل التوقيع».

قالت آيمي برضى: «لقد تحدثوا عنها بالسوء في جريدة التايمز هذا

الصباح. هل قرأتموها؟».

سأل كوب: «من الذي يقرأ التايمز؟ الصحيفة اليسارية القذرة».

قالت ليه: «أحب أن أكون مثار حديث سيئ في جريدة التايمز، أو في أي

مكان آخر، ما هو موضوع روايتها؟».

«إنها روايتها الرابعة وهي تتناول موضوع امرأة عزباء في مدينة

نيويورك لديها مشكلة في إقامة العلاقات».

تمتم آندي قائلاً: «يا له من أمر فريد. لا أستطيع الانتظار كي أقرأها». أنهى

كأسه المضاعف من الفودكا وطلب من دورا كأساً أخرى. عبست ميرا في وجه

بروس، الذي هز كتفيه وكأنه يقول: «إنه رجل راشد».

قالت ميرا وهي تمسك بملعقتها: «إنه حساء غازباتشو تفضلوا».

خلال ثوانٍ، كانوا جميعاً يتحدثون في آن معاً وبأحاديث منفصلة. فكوب

وآندي تحدثا بهدوء عن الأمور السياسية. ولية وجاي جلسا متناكبين في طرف

الطاولة وتحدثا عن رواية لأحد الأشخاص. أما ميرا وآيمي فتحدثتا بفضول عن

أحد المطاعم الجديدة. وبصوت ناعم، قال بروس لميرسر: «أسف لذكر

موضوع موت تيسا. كان تصرفاً فظاً للغاية».

ردت عليه: «كلا، لم يكن كذلك. لقد حدث هذا منذ وقت طويل».

«كنتُ أعرف بورتر جيداً. كان يأتي بشكل منتظم إلى المتجر ويحب القصص البوليسية. أما تيسا فكانت تأتي مرة في السنة لكنها لم تشتتر كثيراً من الكتب. يبدو أنني بالكاد أتذكر وجود حفيدة قبل عدة سنوات».

سألت نويل: «ما هي المدة التي ستمكثين فيها هنا».

كانت ميرسر واثقة من أنّ كل شيء أخبرته لميرا يعلم به بروس فأجابت: «لبضعة أشهر. أنا أبحث عن عمل، أو ينبغي أن أقول إنني عاطلة عن العمل. كنتُ أدرّس خلال السنوات الثلاث الماضية لكنني آمل أنّ هذا انتهى من حياتي. وأنتِ؟ أخبريني عن متجرك».

«أنا أبيع الأنتيكات الفرنسية. أملك متجراً بجانب متجر الكتب، وأنا من نيوأورليانز ولكن منذ التقيتُ ببروس انتقلت للعيش هنا. بعد إعصار كاترينا مباشرة».

أسلوب رائع وواضح وناعم، دون وجود أي أثر للكثرة نيوأورليانز. لا أثر لأي شيء. ولا وجود لخاتم زواج لكن هناك كثيراً من المجوهرات.

قالت ميرسر: «حصل هذا الإعصار في 2005. بعد شهر من حادثة تيسا. أنا أذكره جيداً».

سأل بروس: «هل كنتِ هنا عندما حدث الإعصار؟».

«كلا، كان ذلك الصيف الوحيد خلال أربعة عشر عاماً الذي لا أقضيه هنا. فقد كان عليّ الحصول على عمل من أجل دفع مصاريف الكلية وكنتُ أعمل في

ممفيس، مسقط رأسي».».مفيس، مسقط رأسي».

كانت دورا ترفع الأطباق وتسكب المزيد من النبيذ. أصبح صوت آندي أكثر ارتفاعاً.

سألت ميرسر: «هل لديكما أطفال؟».

ابتسما وهزّا رأسيهما بالنفي ثم قالت: «لم يكن لدينا وقت أبداً. أنا أسافر كثيراً، أشترى وأبيع، بشكل رئيس لفرنسا، وبروس في المتجر سبعة أيام في الأسبوع».

سألت ميرسر بروس: «أنت لا تذهب معها؟».

«ليس كثيراً. لقد تزوجنا هناك».

كلا لم تتزوجا. كانت كذبة سهلة وعابرة، كذبة يعيشانها معاً زمن طويل. أخذت ميرسر رشفة من النبيذ، وذكّرت نفسها أنها تجلس إلى جانب واحد من أنجح سماسرة الكتب المسروقة النادرة في البلاد. وبينما كانوا يتحدثون عن جنوب فرنسا وعن تجارة الأنتيكات هناك، تساءلت ميرسر عن مدى معرفة نويل بعمله. فإذا كان حقاً يدفع مليون دولار ثمناً لمخطوطات فيتزجيرالد، فمن المؤكد أنها ستعرف ذلك. صحيح؟ هو لم يكن أحد التجار ذوي المصالح المنتشرة حول العالم ولديه أساليب لإخفاء النقود. لقد كان بائع كتب في بلدة صغيرة يعيش عملياً في متجره. لم يكن بوسعه إخفاء هذا القدر من المال عنها، أليس كذلك؟ كان ينبغي على نويل أن تعرف.

أبدى بروس إعجابه برواية مطر تشرين الأول وكان تواقاً لمعرفة النهاية المفاجئة لرحلة كتابها الترويجية الأولى. استرقت ميرا السمع إلى ما يقوله، وطلبت من الجميع الهدوء، ثم ألحت على ميرسر لسرد قصتها. بينما كانت

دورا تُقدّم طبق سمك البومبانو المُخبوز، استقرّت المحادثات على موضوع رحلات الكتب الترويجية ولكل واحد قصة. اعترفت ليه وجاي وكوب أنهم أيضاً ضيّعوا ساعة أو ساعتين في متاجر الكتب ولم يتمكنوا من بيع نسخة واحدة. لقد اجتذب آندي حشوداً صغيرة عند إصدار كتابه الأول، ولا عجب أنه طُرد من متجر الكتب عندما ثمل وأهان الزبائن الذين لم يشتروه. حتى آيمي، صاحبة الكتاب الأكثر مبيعاً، كان لديها بعض الأيام السيئة قبل أن تكتشف مصاصي الدماء.

تحول آندي خلال تناول العشاء إلى شرب الماء المُثلّج، وبدا الارتياح على جميع الجالسين حول الطاولة.

بدا كوب متوتراً من إحدى قصص السجن. كانت تدور حول شاب عمره ثمانية عشرة عاماً اعتُدي عليه جنسياً من قبل زميله في الزنزانة، أحد المُفترسين الحقيقيين. بعد مُضي سنوات، وبعد أن أُطلق سراحهما بشكل مشروط، اقتفى الشاب أثر زميله القديم في الزنزانة، فوجده يعيش الحياة الهادئة في الضواحي، وقد نسي ماضيه. وعندها دقت ساعة الانتقام.

كانت قصة طويلة ومؤثرة، وعندما انتهى كوب من سردها، قال آندي: «يا لها من قصة مُخلقة. خيال محض، صحيح؟ هذه روايتك القادمة».

«كلا، أقسم إنها حقيقية».

«هذا هراء. لقد فعلت هذا من قبل، أمتعنا بحكاية طويلة لترى كيف نتفاعل معها، ومن ثم بعد مُضي سنة تُصبح رواية».

«حسناً، لقد فكرت بالأمر. ما رأيكم؟ هل هي تجارية بما يكفي؟».

قال بروس: «لقد أحببتها. لكن تساهل بشأن مشاهد الاغتصاب. فقد تماديت

في الأمر قليلاً على ما أعتقد».

تمتم كوب قائلاً: «تبدو مثل وكيل أعمالى». أخذ قلماً من جيب قميصه وكأنه يحتاج إلى تدوين الملاحظات ثم أضاف: «هل من شيء آخر؟ ما رأيك يا ميرسر؟».

«هل يحق لي التصويت؟».

«بالتأكيد، لم لا؟ سيكون صوتك مقابل بقية أشباه الكُتاب أولئك».

قال آندي فضحك الجميع: «ربما أستخدم القصة».

«حسناً، أنت حقاً بحاجة لقصة جيدة. هل حددت وقتاً نهائياً لعملك؟».

«نعم، لقد أرسلته وهم أعادوا إرساله لي. مشاكل بنوية».

«مثل كتابك الأخير، لكنهم نشره في النهاية».

«وهذه خطوة جيدة من طرفهم. لم يتمكنوا من طباعته بسرعة كافية».

قالت ميرزا: «أنتم الآن أيها الأصدقاء تخرقون القاعدة الأولى. ممنوع

التحدث عن كتبكم الخاصة».

همس بروس في أذن ميرسر بصوت عالٍ بما يكفي كي يسمعه البقية:

«يمكن لهذا أن يستمر طوال الليلة». كانت تحب المزاح كما هو الحال معهم

جميعاً. لم يسبق لها التواجد مع مجموعة من الكُتاب المتشوقين لتوجيه

الضربات بعضهم إلى بعض، لكن على سبيل المزاح.

قالت آيمي التي احمرت وجنتاها من شرب النبيذ: «ماذا لو أنّ الفتى من

السجن هو مصاص دماء حقيقي؟». فقهقه الجميع.

ردّ كوب على الفور قائلاً: «مهلاً، لم أفكر بالأمر. بإمكاننا البدء بسلسلة

جديدة عن مصاصي الدماء في السجن. لقد أحببتُ الفكرة. هل تريدان التعاون؟».

أجابت آيمي: «سأطلب من وكيل أعمالك الاتصال بوكيل أعمالك، لنرى إذا كان بإمكانهما الوصول إلى شيء ما».

قالت ليه في توقيت مثالي: «وتتساءلون عن سبب انحدار مستوى الكتب». عندما خفت الضحكة، قال كوب: «مرة أخرى تقوم المافيا الأدبية بإطلاق النار علي».

بدأت الأمور أكثر هدوءاً لبضع دقائق بينما انهمكوا بتناول الطعام. بدأ كوب بالضحك ثم قال: «مشاكل بنيوية، ماذا يعني ذلك؟».

«هذا يعني أن القصة مقرفة، وهي كذلك فعلاً. بصراحة أنا لم أشعر أنها جيدة».

«بإمكانك دائماً أن تنشرها بنفسك، أنت تعلم. سيضعها بروس على طاولة لعب الورق الموجودة في مؤخرة المتجر، حيث مخطوطاته الخاصة المرفوضة».

ردّ بروس: «رجاءً، تلك الطاولة مليئة».

غيّرت ميرا الموضوع بسؤالها: «حسناً يا ميرسر، أنت هنا منذ أيام قليلة. هل بإمكاننا السؤال كيف تجري أمور الكتابة؟».

ردّت ميرسر بابتسامة: «سؤال محرج».

«هل تحاولين إنهاء الرواية أو البدء بها؟».

أجابت: «لست واثقة، من المحتمل أن أرمي ما كتبتّه، عندئذٍ سوف أبدأ

بواحدة جديدة. لم أحسم أمري بعد».

«حسناً، في حال احتجتِ إلى أي نصيحة أياً تكن، بشأن أي ناحية من الكتابة أو النشر، الرومانس أو العلاقات، الطعام أو النبيذ، السفر أو الأمور السياسية، أي شيء موجود تحت الشمس، ينبغي عليك أن تأتي إلى المكان الصحيح. انظري إلى هذه الطاولة، فالخبراء في كل مكان».

«أظن ذلك».

5

جلست ميرسر في منتصف الليل على الدرجة السفلى للممر الخشبي، وقدمهاها الحافيتان في الرمل، والأمواج تتدافع. لم تكن تمل من صوت المحيط، ذلك التكرّر الناعم للأمواج عندما يكون البحر هادئاً، وذلك الموج العالي الذي يضرب سفوح الكتبان عند العواصف. لكن الليلة الرياح خامدة والمد منخفض.

لاتزال سعيدة بالعشاء وتحاول تذكّر كل ما يمكنها عنه. وكلما فكّرت أكثر أصبح الأمر يدعو للذهول. غرفة مليئة بالكتّاب، بخوفهم وغرورهم وغيرتهم، والنبيذ يُسكب، وليس هناك ولا جدال واحد، ولا حتى كلمة قاسية. كان الكتّاب المشهورون – آيمي وكوب وآندي – يتوقون للإشادة النقدية، بينما الكتّاب الأدبيون – ليه وجاي وميرسر – يتوقون للحصول على عائدات أكبر. لم تهتم ميرا لكتنا الحاليتين. وبروس ونويل كانا راضيين بالبقاء على الحياد وتشجيع الجميع.

لم تكن متأكدة مما ستقوم به مع بروس. كان الانطباع الأولي جيداً تماماً، لكن نظراً لوسامته وأسلوبه المرح تأكدت أنّ الجميع معجبون به، على الأقل بشكل أولي. فهو لا يكثر الكلام، ويبدو راضياً بالسماح لميرا أن تتولى

المسؤولية. فبعد كل شيء، كان ذلك دورها ومن الواضح أنها تعرف ما تفعله. لقد كان مرتاحاً تماماً مع جماعته ومستمتعاً كلياً بقصصهم وفكاهاتهم، وإهاناتهم الرخيصة. لقد تولد انطباع لدى ميرسر أنه مستعد للقيام بأي شيء لدفع سيرتهم المهنية. وهم بدورهم، كانوا يبادلونه الاحترام والتقدير.

ادعى أنه أحد المعجبين بكتابي ميرسر، وبشكل خاص روايتها، وقد تكلمنا عنها بما يكفي لإشباع شكوكها بشأن قراءته لها حقاً. قال إنه فعل ذلك عندما نُشرت، وكان من المقرر أن تأتي لتوقع في متجره. لقد مرّ على ذلك سبع سنوات، ومع ذلك يتذكره جيداً. ربما تصفحه قبل حفل العشاء، لكن ذلك أبهرها. لقد طلب منها المجيء إلى المتجر والتوقيع على كلتا النسختين الموجودتين في مجموعته. كما قرأ مجموعتها القصصية. والأكثر أهمية، أنه كان يتوق لرؤية شيء آخر، ربما روايتها القادمة، أو المزيد من القصص.

بالنسبة إلى ميرسر، التي كانت يوماً ما كاتبة واعدة، والتي تعاني من مصاعب جمّة ومُقيّدة بالخوف من إمكانية انتهاء مسيرتها المهنية، أراحها أن يكون لديها مثل هذا القارئ المثقف الذي يقول أشياء لطيفة ويطلب المزيد من الكتب. ففي السنوات السابقة، كان وكيل أعمالها وناشر كتبها هما من يقدمان مثل هذا التشجيع.

ما من شك أنه بدا أسراً، لكنه لم يقل أو يفعل شيئاً خارج الحدود، وهذا لا يعني أنها توقعت أي شيء. كانت زوجته الجميلة على بعد إنشآت منها. وعندما يتعلق الأمر بالإغراء، وافترض صحة الشائعات، شكّت ميرسر بإمكانية بروس كابل اللعب على كرات الجولف البعيدة والقريبة معاً.

أثناء تناول العشاء نظرت عدة مرات إلى كوب وأندي وحتى ميرا،

وتساءلت إذا كان لديهم فكرة عن الجانب الغامض لبروس. فهو يدير أفضل متجر كتب، بينما يتعامل في الوقت نفسه بالبضاعة المسروقة في الخفاء. كان متجر الكتب ناجحاً ويدرّ عليه مبلغاً محترماً من المال. ولديه حياة ساحرة، وزوجة/شريكة جميلة، وسمعة عطرة، ومنزل تاريخي في بلدة جميلة. فلماذا يخاطر حقاً بالدخول إلى السجن لتعامله بالمخطوطات المسروقة؟

هل يعلم أنّ هناك فريقاً أمنياً محترفاً يتعقبه؟ وأنّ مكتب التحقيقات الفيدرالي ليس بعيداً عنه؟ هل يعلم أن أشهراً عديدة فقط قد تفصل عن المكوث في السجن لسنوات؟

الجواب. لا يبدو أنه يعلم.

هل يشك بميرسر؟ كلا. وهذا ما يستحضر السؤال الواضح بشأن ما الذي يجب عمله لاحقاً. تعاملي مع الأمر يوماً بيوم، فقد قالت إيلين أكثر من مرة، دعيه يأتي إليك ومهّدي طريق دخولك إلى حياته.

يبدو الأمر بسيطاً، صحيح؟

6

يوم الاثنين نامت ميرسر حتى وقت متأخر وفوّتت عليها شروق شمس آخر. سكبت بعض القهوة، وذهبت إلى الشاطئ المزدهم بالرغم من أنه لم يبلغ أقصى درجات الازدحام. بعد نزهة طويلة على الشاطئ، عادت إلى الشاليه، سكبت مزيداً من القهوة، وجلست إلى طاولة فطور صغيرة تطل على المحيط. فتحت كومبيوترها المحمول، ونظرت إلى الصفحة الفارغة، وتمكنت من كتابة «الفصل الأول».

ينقسم الكتاب عموماً إلى معسكرين: أولئك الذين يضعون الخطوط

العريضة بعناية لقصصهم ويعرفون النهاية قبل أن يبدووا. وأولئك الذين يرفضون القيام بذلك بناءً على نظرية تقول إنه ما إن تُخلق الشخصية، ستقوم بكل العمل المثير من تلقاء نفسها. الرواية القديمة، التي تجاهلتها للتو، تلك التي عذبتُها طيلة السنوات الخمس الماضية، تقع في الفئة الثانية. بعد خمس سنوات، لم يحدث شيء مهم ومُت من الشخصيات. قررت نسيان الأمر. فإمكانك دائماً العودة إليه. كتبت ملخصاً تقريبياً عن الفصل الأول لكتابها الجديد ثم انتقلت للفصل الثاني.

بحلول منتصف النهار مهّدت طريقها لكتابة ملخصات خمسة فصول وكانت مرهقة.

7

كانت حركة المرور بطيئة في الشارع الرئيسي، وأرصفته تعج بالسياح الذين يتواجدون في البلدة لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. ركنت ميرسر سيارتها عند ناصية الطريق ومشّت باتجاه متجر الكتب. تمكنت من تجنب بروس وصعدت إلى المقهى الموجود في الطابق الثاني حيث تناولت شطيرة وتصفححت جريدة التايمز. مرّ بجانبها كي يجلب فنجان إسبريسو وتفاجأ برويتها.

سأل: «هل لديك وقت لتوقيع الكتابين؟».

«أنا هنا لهذا السبب». تبعته باتجاه الطابق الأرضي إلى غرفة الطبقات الأولى حيث أغلق الباب خلفهما. كان هناك واجهتان كبيرتان مفتوحتان على الطابق الأول والزبائن يستعرضون رفوف الكتب في مكان ليس ببعيد. هناك طاولة قديمة في وسط الغرفة مُغطاة بالأوراق والملفات.

سألته: «هل هذا مكتبك؟».

«أحد مكاتبي. عندما تكون الأمور بطيئة أدخل إلى هنا وأعمل قليلاً».

«ماهي تلك الأمور البطيئة؟».

«إنه متجر كتب. اليوم مزدحم وغداً سوف يكون مهجوراً». انتقل إلى كاتالوج يخفي تحته نسختي جيب لرواية مطر تشرين الأول. أعطاهما قلماً وأمسك بالكتابين.

قالت: «لم أوقع كتاباً منذ فترة طويلة». فتح الكتاب الأول على صفحة العنوان فقامت بكتابة اسمها على عجل، ثم فعلت الشيء نفسه مع الكتاب الثاني. ترك أحدهما على الطاولة وأعاد الآخر إلى مكانه على الرف. كانت الطبعات الأولى مرتبة بحسب الحروف الأبجدية للاسم الثاني للمؤلف.

سألت وهي تشير بإحدى يديها إلى جدار من الكتب: «حسناً ما كل هذا؟».

«كلها طبعات أولى لكُتَّاب قاموا بالتوقيع هنا. نحن نقيم مائة حفل توقيع في السنة، لذا سوف تكون مجموعة جميلة بعد مرور عشرين عاماً. لقد تفقدتُ السجلات وعندما كنتِ آتية إلى هنا في حفل ترويجي لكتابك، طلبتُ 120 نسخة».

«مائة وعشرون؟ لماذا كل هذا العدد؟».

«لديّ نادٍ للطبعات الأولى، وهناك حوالي المائة من أفضل زبائني يشترون كل كتاب موقع. إنه حقاً أمر مثير للانتباه. وإذا كان بإمكانني ضمان مائة كتاب، سيتوق الكُتَّاب والناشرون لوضعنا في الجولة الترويجية للكتاب».

«وأولئك الناس يحضرون في كل حفل توقيع؟».

«آمل ذلك، نصفهم يحضرون في العادة، وهذا يؤدي إلى وجود حشد لطيف».

هناك نسبة ثلاثين بالمئة يعيشون خارج البلدة ويحصلون على نسخهم عبر البريد».

«ما الذي حدث عندما أُلغيتُ رحلة كتابي الترويجية؟».

«أعدتُ الكتب».

«أسفة بشأن ذلك».

«هذا جزء من العمل».

مشيت ميرسر بجانب الجدار تتفحص صفوف الكتب، وعرفت بعضها. كانت جميعها نسخ وحيدة. أين كانت النسخ الأخرى؟ لقد وضع واحداً من كتبها في الرف وترك الآخر على الطاولة. أين يتم الاحتفاظ بها؟

سألت: «هل أي واحد من تلك الكتب له قيمة نفيسة؟».

«ليس تماماً. إنها مجموعة مذهلة وتعني كثيراً لي لأنني مرتبط بكل واحد منها، لكن من النادر أن يكون لها قيمة».

«لماذا؟».

«هناك كثير من الطبقات الأولى، فالطبقات الأولى لكتابك كانت خمسة آلاف نسخة وهذا ليس عدداً ضخماً، وليكون ذا قيمة يجب أن يكون الكتاب نادراً. لكن في بعض الأحيان أكون محظوظاً». مدّ يده إلى الأعلى وأمسك بأحد الكتب ثم أعطاها إياه.

«هل تذكرين رواية ثمل في فيلادلفيا؟ رائعة الكاتب ج. ب. والتال».

«بالطبع».

«لقد فاز بجائزة الكتاب الوطني وجائزة بوليتزر عام 1999».

«قرأتها في الكلية».

«لقد رأيت نسخة منها وأحببتها، عرفت أنها تحمل إمكانية ولذا طلبت عدة صناديق، وكان هذا قبل رفضه القيام برحلة ترويجية لكتابه. بدايةً، كان ناشره مُفلساً وليس حاذقاً كثيراً، ولذا قام بعمل ترويج أولي لستة آلاف نسخة. وهذا ليس سيئاً بالنسبة إلى رواية أولى لكنه ليس كافياً تماماً. حسناً، حصل انقطاع في الطباعة بسبب إضراب، ولم يخرج من المطبعة سوى ألف ومائتين نسخة قبل أن يُغلقوها. كنتُ محظوظاً عندما وصلت شحنتي. فالآراء النقدية الأولى للرواية كانت ممتازة، والطباعة الثانية، في دار نشر أخرى، كانت عشرين ألف نسخة. وضعف هذا العدد للطباعة الثالثة وهلمّ جراً. في نهاية المطاف، بيع مليون نسخة من الكتاب».

فتحت ميرسر الكتاب، وقلّبت فيه لتصل إلى صفحة حقوق الطبع، فرأت كلمات «طبعة أولى».

سألت: «إذاً ما قيمة هذا الكتاب؟».

«بعثت نسختين بقيمة خمسة آلاف دولار للواحدة. وأنا الآن أطلب ثمانية آلاف. لا يزال لديّ حوالي خمس وعشرين نسخة منها مدفونة في القبو».

حفظت ذلك الكلام لكنها لم تقل شيئاً. أعادت الكتاب إليه ومشيت باتجاه جدار آخر مُغطى بالكتب. قال بروس: «هنا المزيد من المجموعة لكن لم يبق كل أولئك الكُتّاب بالتوقيع هنا».

أمسكت برواية جون إيرفينج القواعد الداخلية لشراب التفاح وقالت: «أفترض أنّ هناك كثيراً منها في السوق».

«إنه جون إيرفينج. وهذه الرواية صدرت بعد سبع سنوات من رواية

جارب، ولذا كان الإصدار الأول ضخماً. تساوي قيمته عدة مئات من الدولارات. لديّ نسخة من رواية جارب لكنها ليست للبيع».

أعادت الكتاب إلى مكانه وتفتّحت بسرعة الكتاب الذي بجانبه. لم يكن جارب هناك. فافترضت أنه أيضاً «مدفون في القبو» لكنها لم تقل شيئاً. كانت تريد أن تسأل عن تلك الكتب النادرة، لكنها قرّرت عدم التطرق إلى ذلك.

سأل: «هل استمتعتِ بالعشاء الليلة الماضية؟».

ضحكت وابتعدت عن الرفوف ثم قالت: «أوه نعم، لم يتسنّ لي تناول العشاء مع هذا العدد الكبير من الكُتّاب أبداً، فنحن نميل للانطواء على أنفسنا، أنت تعلم هذا؟».

«أنا أعلم. لقد أحسن الجميع التصرف تكريماً لك. صدقيني، ليس الأمر بهذا التحضّر دائماً».

«وما سبب ذلك؟».

«إنها طبيعة السلالة. امزجي معاً بعض النفوس الهشة وبعض الأمور السياسية، يصبح الأمر فوضوياً».

«لا أطيع صبراً، متى موعد الحفل القادم؟».

«من يعلم مع تلك المجموعة. ذكرت نويل حفل عشاء خلال أسبوعين. لقد استمتعت بصحبتك».

«وأنا أيضاً، إنها رائعة».

«إنها مرحلة للغاية وجيدة جداً بما تفعله. ينبغي عليك أن تزوري متجرها وتلقي نظرة».

«سأفعل ذلك، رغم أنني لست في السوق من أجل الأشياء الثمينة».

ضحك وقال: «حسناً، احذري، فهي فخورة جداً بما لديها».

«سألتقي بسيرينا روش لتناول القهوة غداً قبل حفل التوقيع. هل التقيت بها؟».

«بالتأكيد، لقد أتت إلى هنا مرتين. إنها حادة الطباع لكنها لطيفة. وهي تقوم بالجولة الترويجية مع حبيبها ووكيلها الإعلامي».

«حاشية؟».

«أظن ذلك. ليس الأمر بهذه الغرابة فقد حاربت المخدرات ويبدو أنها هشة نوعاً ما. فقضاء الحياة على الطرقات أمر مُقلق لكثير من الكُتاب وهم بحاجة إلى الأمان».

«ألا تستطيع السفر لوحدها؟».

ضحك بروس وبدا متردداً لذكر الشائعات فقال: «أستطيع أن أروي لك كثيراً من القصص؟ بعضها مُحزن وبعضها الآخر مثير للضحك، جميعها نابضة بالحياة. دعينا نُبقِها ليوم آخر، ربما لعشاء طويل آخر».

«هل هو حبيبها نفسه؟ سبب سؤالي هو أنني أقرأ آخر ما لديها وشخصيتها تتصارع مع الرجال، بالإضافة إلى المخدرات».

«لست أدري. لكن كان معها الحبيب نفسه خلال آخر جولتين ترويجيتين لها».

«يا لها من فتاة مسكينة، فالتقاد يقسون عليها».

«نعم، وهي لا تُحسن التعامل مع الأمر بشكل جيد. فقد اتصل وكيلها

الإعلامي هذا الصباح كي يتأكد من أي لن أدعو لحفل عشاء بعد التوقيع. فهم يحاولون إبقائها بعيدة عن زجاجة النبيذ».

«وهل بدأت الجولة الترويجية؟».

«متجري محطاتها الرابعة. يمكن أن تكون كارثة أخرى. أظن أن بإمكانها الانسحاب دائماً، مثلك أنت».

«أنا أوصي بهذا الأمر وبشدة».

ألصقت إحدى الموظفات رأسها على الواجهة وقالت: «أسفة على المقاطعة، لكن سكوت تيورو ينتظر على الهاتف».

قال: «يجدر بي أن أتلقى ذلك الاتصال».

قالت ميرسر وهي تمشي باتجاه الباب: «أراك غداً».

«شكراً لك على توقيع الكتابين».

«سأوقع كل كتبي التي تشتريها».

8

بعد مُضي ثلاثة أيام، انتظرت ميرسر حلول الغسق ثم مشت نحو الشاطئ. خلعت صندلها ووضعت في حقيبة كتف صغيرة. توجهت جنوباً على طول الحاجز المائي. كان المد منخفضاً والشاطئ واسعاً ومهجوراً إلا من ثنائي مع كلبهما. بعد عشرين دقيقة، تجاوزت صفاً من الشقق العالية وتوجهت إلى فندق ريتز كارلتون المجاور. غسلت قدميها عند الممر الخشبي وانتعلت صندلها ثم تمشت بجانب البركة الفارغة ودخلت الفندق، حيث وجدت إيلين تنتظر عند إحدى طاولات البار الأنيق.

كانت تيسا تحب البار الموجود في فندق الريتز. فلمرتين أو ثلاث كل صيف كانت وميرسر ترتديان أفضل ملابسهما وتأتیان إلى الريتز، أولاً لتناول المشروب ومن ثم العشاء في مطعم الفندق المُميّز. لطالما بدأت تيسا بكأس من المارتيني، كأس واحدة فقط، وبقيت ميرسر تطلب صودا الحمية حتى بلغت الخامسة عشرة من عمرها. لكن عندما بلغت الخامسة عشرة، وصلت لقضاء الصيف وشربتا المارتيني معاً.

كانت إيلين تجلس بالصدفة على طاولتهما المفضلة، وعندما جلست ميرسر راعتها ذكريات جدتها. لم يتغير شيء. هناك شخص على البيانو يعني بلطف في الخلفية.

قالت إيلين: «وصلت اليوم بعد الظهر وفكرت أنه ربما تستمتعين بعشاء لطيف».

قالت ميرسر وهي تنظر حولها وتشم روائح الهواء المالح وألواح خشب البلوط: «لقد أتيتُ إلى هنا عدة مرات. كانت جدتي تعشق هذا المكان. إنه ليس لأصحاب الميزانيات المحدودة، لكنها كانت تبذخ أحياناً».

«حسناً، لم تكن تيسا تملك المال؟».

«كلا. كانت مرتاحة لكنها مُقتصدة أيضاً. دعينا نتكلم عن شيء آخر».

توقف أحد النُدل بجانبهما فطلبتا المشروب.

قالت إيلين: «يمكنني القول إنك أمضيت أسبوعاً جيداً جداً».

تضمّن عملهما الاعتيادي إرسال بريد الكتروني كل ليلة حيث تقوم ميرسر بتلخيص الأشياء التي من الممكن أن يكون لها علاقة بما يبحثان عنه. قالت ميرسر: «لست واثقة من أنني أعلم أكثر مما كنت أعلمه عندما وصلتُ إلى هنا،

لكني تمكنتُ من الالتقاء مع العدو».

«وبعد؟».

«إنه أسر بمقدار ما يُحكى عنه، إنه شخص محبوب للغاية. وهو يخزن الأشياء الجيدة في القبو لكنه لم يأتِ على ذكر سرداب. تولد لديّ انطباع بوجود مخزون كبير هناك. كما أنّ زوجته موجودة في البلدة ولم يبدر منه أي شيء يدل على أنه مُهتم بي، سوى انجذابه المُعتاد للكُتاب».

«يجب عليك أن تخبريني عن حفل العشاء مع ميرا وليه».

ابتسمت ميرسر وقالت: «تمنيْتُ لو كان هناك كاميرا خفيّة».

الفصل الخامس الوسيط

1

لأكثر من ستين عاماً، شغل متجر كتب أولد بوسطن واحداً من سلسلة منازل في ويست ستريت في قسم لادر بلوكس من وسط المدينة. أسسه لويد ستاين، أحد سماسرة التحف الأثرية، وعندما مات في العام 1999 تولى ابنه أوسكار زمام الأمور. لقد ترعرع أوسكار في المتجر وأحبّ العمل، رغم أنه مع مرور الوقت سئم هذا النوع من العمل التجاري. فمع وجود الإنترنت والانحدار العام في كل الأمور المتعلقة بالكتب، وجد أنّ من الصعب لهذا العمل أن يحقق أرباحاً معقولة. كان والده راضياً ببيع الكتب القديمة المُستعملة ويأمل بتحقيق ربح كبير من الكتب النادرة، لكنّ أوسكار كان يفقد صبره. وبعمر الثامنة والخمسين بدأ يبحث بهدوء من أجل إيجاد مخرج له من كل هذا.

عند الساعة 4:00 من بعد ظهر يوم الخميس دخل ديني إلى المتجر لليوم الثالث على التوالي واستعرض بلامبالاة رفوف وأكداس الكتب المُستعملة. وعندما غادرت الموظفة، وهي سيدة عجوز تعمل هناك منذ عقود، طاولة الاستقبال متوجهة إلى الطابق الثاني، اختار ديني نسخة مُجلدة قديمة لرواية

غاتسبي العظيم وذهب بها إلى صندوق المحاسبة. ابتسم أوسكار وسأله: «هل وجدت ما تبحث عنه؟».

أجاب ديني: «سيفي هذا بالعرض».

أخذ أوسكار الكتاب وفتحه على الغلاف الداخلي ثم قال: «أربعة دولارات وثلاثين سنتاً».

وضع ديني خمسة دولارات على الطاولة وقال: «في الحقيقة أنا أبحث عن الأصل».

أخذ أوسكار الخمسة دولارات وسأله: «تقصد الطبعة الأولى؟ لرواية غاتسبي؟».

«كلا. المخطوط الأصلي».

ضحك أوسكار. يا له من غبي. ثم قال: «أخشى أنني لا أستطيع مساعدتك في هذا الأمر يا سيدي».

«لكنني أعتقد أنّ بإمكانك ذلك».

تجمّد أوسكار ونظر إلى عينيه مباشرةً. فلاقته نظرة باردة وحادة. نظرة حادة وحاسمة وثاقبة. ابتلع أوسكار ريقه ثم قال: «من أنت؟».

«لن تعرف أبداً».

أشاح أوسكار بنظره ووضع ورقة الخمسة دولارات في الصندوق. وبينما هو يفعل، أدرك أن يديه ترتجفان. أخرج بعض القطع النقدية المعدنية ووضعها على الطاولة ثم تمالك نفسه وقال: «سبعون سنتاً، لقد كنت هنا البارحة أليس كذلك؟».

«واليوم الذي قبله».

نظر أوسكار حوله. كانا بمفردهما فعلاً. ألقى نظرة إلى كاميرا المراقبة الموجودة في الأعلى والموجهة نحو صندوق المحاسبة. قال ديني بهدوء: «لا تقلق بشأن الكاميرا. لقد عطّلتها البارحة. والكاميرا التي في مكتبك، لا تعمل أيضاً».

أخذ أوسكار نفساً عميقاً بينما ترهّلت كتفاه. بعد أن أمضى شهوراً يعيش في الخوف بلا نوم ويتلصص في أرجاء الزوايا، أتت اللحظة المخيفة أخيراً. سأل بصوت منخفض ومرتجف: «هل أنت شرطي؟».

«كلا. أنا أتجنّب الشرطة هذه الأيام مثلك تماماً».

«ما الذي تريده؟».

«المخطوطات. الخمس كلها».

«لا أعرف عما تتكلم».

«هل هذا أفضل ما لديك لتقوله؟ كنتُ آمل بشيء أكثر ابتكاراً ولو بقليل».

همس أوسكار محاولاً أن يبدو صلباً قدر الإمكان: «اخرج من هنا».

«سأرحل وأعود عند الساعة السادسة عندما تُغلق المتجر. ستُغلق الباب ونذهب إلى مكتبك لنتبادل حديثاً قصيراً. أقترح عليك بشدة أن تنتبه لما تفعله. ليس لديك مكان تهرب إليه وليس هناك من أحد يستطيع مساعدتك. ونحن نراقب».

أخذ ديني القطع النقدية والكتاب وغادر.

بعد مُضي ساعة، دخل محامٍ اسمه رون جازيك أحد مصاعد المبنى الفيدرالي في ترينتون، نيوجيرسي، وضغط زر الطابق الأرضي. في آخر لحظة، انزلق رجل غريب عبر الأبواب وضغط زر الطابق الثالث. وما إن أُغَلقت الأبواب وأصبحا لوحدهما، قال الرجل الغريب: «أنت تُمثّل جيرى ستينجاردن، صحيح؟ ومُعَيّن من قِبَل المحكمة».

ابتسم جازيك ساخراً وقال: «من أنت بحق الجحيم؟».

بلمح البصر، صفع الرجل الغريب جازيك على وجهه وأسقط نظارته. وبقبضة حديدية، أمسك بعنق جازيك وثبّت رأسه على جدار المصعد الخلفي ثم قال: «لا تتحدث معي بهذه اللهجة. هذه رسالة إلى مُوكّلك. أي كلمة خاطئة إلى مكتب التحقيقات الفيدرالي ستُسبب أذىً لبعض الناس. نحن نعرف أين تعيش أمه، ونعرف أين تعيش أمك أيضاً».

جحظت عينا جازيك في الوقت الذي أسقط فيه حقيبته. أمسك بذراع الرجل الغريب لكنّ قبضة الموت أصبحت أكثر شدةً. كان جازيك بعمر الستين تقريباً وفي حال يُرثى لها. أما الرجل ذو القبضة فكان أصغر منه بعشرين عاماً على الأقل وفي تلك اللحظة، بدا قوياً للغاية. زمجر قائلاً: «هل كلامي واضح؟ هل تفهم؟».

توقف المصعد عند الطابق الثالث، وبينما فُتح الباب أفلت الغريب قبضته ودفع بجازيك نحو الزاوية حيث خرّ على ركبتيه. تجاوزه الرجل الغريب، وغادر المكان وكأنّ شيئاً لم يكن. لم يكن هناك أحد ينتظر دخول المصعد، فأسرع جازيك بالوقوف على قدميه، وجد نظارته، والتقط حقيبته، وأخذ يفكر بالخيارات التي أمامه. كان فكّه يؤلمه وأذناه ترنّان، وأول فكرة خطرت له هي

الاتصال بالشرطة والإبلاغ عن الاعتداء. كان هناك عدة ضباط فيدراليين في البهو وربما بإمكانه الانتظار هناك معهم حتى يظهر المعتدي. لكن وهو في طريقه للأسفل، قرّر أنه ربما من الأفضل عدم المبالغة بردّ فعله. وفي الوقت الذي وصل فيه إلى الطابق الأرضي، بدأ يتنفس مرة أخرى. وجد أحد الحمامات وأخذ يرش الماء على وجهه وينظر إلى نفسه. كان الجانب الأيمن من وجهه أحمر لكنه لم يكن متورماً.

كان الإحساس البدني بتلقي مثل هذه الضربة مذهلاً، ومؤلماً. شعر بشيء ساخن في فمه فبصق بعض الدم في المغسلة.

لم يكن قد تحدث مع جيرى منذ أكثر من شهر، فهناك القليل ليتحدثا بشأنه. كانت لقاءاتهما دائماً مُقتضبة لأنّ جيرى ليس لديه شيء يقوله. ينبغي عليه أن يقلق قليلاً بشأن الرجل الغريب الذي صفعه وهدّده.

3

قبل دقائق من السادسة، عاد ديني إلى متجر الكتب، ووجد أوسكار ينتظر بتوتر بجانب صندوق المحاسبة. كانت الموظفة قد غادرت وكذلك الزبائن. قلب ديني اللافتة المكتوب عليها «مفتوح/مغلق» دون أي كلمة، ثم أقفل الباب وأطفأ الأنوار. صعدا السلالم المُفضية إلى المكتب الصغير الفوضوي حيث يُفضّل أوسكار قضاء وقته بينما يقوم شخص آخر بتولي أمر الصندوق. جلس خلف طاولة المكتب، وأشار إلى إحدى الكراسي غير المُغطاة بالمجلات.

جلس ديني وبدأ بقوله: «دعنا لا نُضيع وقتنا هنا يا أوسكار. أنا أعرف أنك اشتريت المخطوطات لقاء نصف مليون دولار. وأنت حولت النقود إلى حساب في جزر البهاماس. ومن هناك تحولت إلى حساب في بنما حيث استلمتها.

ينقص منها بالطبع، النسبة التي أخذها وسيطنا».

قال أوسكار بهدوء: «إذا أنت اللص؟». تمكّن بتناوله بعض الأقراص من تهدئة أعصابه.

«لم أقل ذلك».

سأل أوسكار: «كيف أعرف أنك لست شرطياً يحمل جهاز تنصت؟».

«هل تريد تفتيشي. تفضّل. كيف لأي شرطي أن يعرف الثمن؟ كيف لأي شرطي أن يعرف تفاصيل آثار النقود؟».

«أنا متأكد من أنّ مكتب التحقيقات الفيدرالي يستطيع اقتفاء أثر أي شيء».

«لو كانوا يعلمون ما أعرفه لكانوا قبضوا عليك ببساطة يا أوسكار. اهدأ، لن يُقبض عليك ولا أنا أيضاً. أتعرف يا أوسكار، أنا لا أستطيع الذهاب إلى الشرطة ولا أنت. كلانا مذنبان لأقصى درجة وتنتظرنا فترة طويلة في أحد السجون الفيدرالية. لكنّ هذا لن يحدث».

أراد أوسكار تصديقه وبدا مرتاحاً نوعاً ما. لكن من الواضح أنّ هناك بضعة تحديات عاجلة. أخذ نفساً عميقاً ثم قال: «المخطوطات ليست لدي».

«حسناً، أين هي؟».

«لماذا قمت ببيعها؟».

وضع ديني ساقاً على ساق واسترخى على الكرسي القديم ثم قال: «لقد أصبت بالذعر. قبض مكتب التحقيقات الفيدرالي على اثنين من أصدقائي بعد مرور يوم على السرقة. كان عليّ أن أخبئ الكنز وأفر من البلاد. انتظرتُ شهراً ثم اثنين. عندما استقرت الأمور، عدتُ إلى البلاد ثم ذهبتُ لرؤية أحد السماسرة

في سان فرانسيسكو. قال إنه يعرف أحد الشارين، روسي سوف يدفع عشرة ملايين. كان يكذب، فقد ذهب إلى مكتب التحقيقات الفيدرالي. حدّدنا موعداً وكان من المفترض بي أن أسلم أحد المخطوطات كدليل، لكنّ مكتب التحقيقات الفيدرالي كان بالانتظار».

«كيف عرفت ذلك؟».

«لأننا تنصتتا على هاتفه قبل أن ندخل. نحن جيدون جداً يا أوسكار. صبورون للغاية، وفي غاية الاحتراف. نجونا بأعجوبة ثم غادرنا البلاد مرة أخرى حتى تهدأ الأمور. عرفتُ أنّ لدى مكتب التحقيقات الفيدرالي وصفاً دقيقاً لي ولذا بقيتُ خارج البلاد».

«هل هو اتفي مراقبة؟».

أوماً ديني برأسه وابتسم ثم قال: «خطوطك الأرضية. لم نستطع اختراق هاتفك الخليوي».

«إذاً كيف وجدتنني؟».

«ذهبتُ إلى جورج تاون وفي النهاية تمكنتُ من الاتصال بجويل ريببوكوف، صديقك القديم. وسيطنا. لم أكن أثق به – من تستطيع الوثوق به في هذا المجال من العمل – ولكنني كنت راغباً في ذلك الوقت بإزاحة المخطوطات عن كاهلي».

«لم يكن يفترض بي وبك أن نلتقي».

«كانت تلك هي الخطة، أليس كذلك؟ أنت حولت النقود، وأنا سلّمت البضاعة، ثم اختفيتُ مرة أخرى. والآن عدت».

طقق أوسكار براجمه وحاول الحفاظ على هدوئه ثم قال: «وريبيكوف؟ أين هو الآن؟».

«لقد رحل. مات ميتة شنيعة يا أوسكار، كانت مريعة. لكن قبل أن يموت أعطاني ما كنتُ أريده. أنت.».

«المخطوطات ليست معي.».

«حسناً. إذاً ما الذي فعلته بها؟».

«قمتُ ببيعها بأسرع ما أمكني.».

«أين المخطوطات يا أوسكار؟ سأجدها، وعواقب ذلك الأمر دموية سلفاً.».

«لستُ أعلم أين هي. أقسم لك.».

«إذاً من الذي يملكها؟».

«اسمع، أحتاج بعض الوقت لأفكر بالأمر. قلتُ إنك صبور، إذاً امنحني بعض الوقت.».

«هذا منصف. سوف أعود خلال أربع وعشرين ساعة. ولا تقم بأي أفعال غبية كأن تحاول الهرب. ليس هناك من مفر، وسوف تتأذى في حال حاولت. لا يمكنك تخيل كم نحن محترفون يا أوسكار؟».

«لن أهرب.».

«أربع وعشرون ساعة وسأعود إليك لتزودني باسم الشخص. أعطني اسمه وبإمكانك الاحتفاظ بنقودك والمُضي بحياتك. لن أقول أي كلمة. أعدك بذلك.».

نهض ديني وغادر المكتب. حدّق أوسكار إلى الباب وأصغى إلى وقع خطاه

بينما كان ينزل السلم. سمع الباب يُفتح، وسمع رنين الجرس الخافت، ثم أُغلق بهدوء.

وضع أوسكار وجهه بين يديه وحاول حبس دموعه.

4

كان ديني في بار أحد الفنادق على بعد حيين يأكل البيتزا عندما رن جرس هاتفه الخلوي. كانت الساعة بحدود التاسعة ليلاً والمكالمة متأخرة. قال وهو ينظر حوله: «تكلّم». كان المكان خالياً تقريباً.

قال روكرو: «أنجزت المهمة. أمسكُ بجازيك في أحد المصاعد واضطرتُ لصفعه. أمر ممتع حقاً، أوصلتُ الرسالة وكل شيء سار كما يجب. تسبّب بيتروسيلي ببعض المشاكل لأنه يعمل حتى وقت متأخر. أمسكُ به قبل حوالي ساعة في أحد مواقف السيارات خارج مكتبه. لقد أفرغته حتى الموت. إنه جبان بعض الشيء. أنكر في البداية أنه يُمثّل مارك دريسكول لكنه تراجع بسرعة. لم أضطر إلى ضربه لكن كنتُ على وشك القيام بذلك».

«ليس هناك من شهود؟».

«ولا واحد. فرار سليم مع كليهما».

«عمل رائع. أين أنت الآن؟».

«أقود السيارة. سأكون هناك خلال خمس ساعات».

«أسرع. سوف يكون الغد ممتعاً».

5

دخل روكرو متجر الكتب عند السادسة إلا خمس دقائق وادعى أنه

يستعرض الكتب. لم يكن هناك زبائن آخرون. أشغل أوسكار نفسه بعصبية وراء صندوق المحاسبة لكنه أبقى عينيه على الرجل. عند الساعة السادسة قال: «عذراً يا سيدي، لكننا سنغلق المتجر». في تلك اللحظة، دخل ديني وأغلق الباب خلفه، ثم قلب لافتة «مفتوح/مغلق». نظر إلى أوسكار وأشار إلى روكر وقال: «إنه معي».

سأل ديني: «هل يوجد أحد هنا؟».

«لا. ذهب الجميع».

قال ديني وهو يخطو باتجاه أوسكار: «جيد. سنبقى هنا إذاً». انضم روكر إليه، وكلاهما ضمن مسافة الهجوم. حدقا فيه ولم يتحرك أي منهما. قال ديني: «حسناً يا أوسكار، كان لديك بعض الوقت لتفكر. ما قرارك؟».

«يجب أن تعدني بأنك ستحمي هويتي».

زمجر ديني قائلاً: «ليس عليّ أن أعدك بأي شيء. لكني قلتُ سلفاً إنني لن أذكرك أبداً. ثم ما الذي أكسبه بكشف تورطك؟ أنا أريد المخطوطات يا أوسكار، ولا شيء آخر. أخبرني لمن بعثها ولن تراني مرة أخرى أبداً. لكن إذا كذبت عليّ، أنت تعرف أنني سأعود».

كان أوسكار يعرف. ويصدق ذلك. كان الشيء الوحيد الذي يريده في تلك اللحظة المريعة هو التخلص من هذا الشخص بأمان. أغمض عينيه وقال: «بعثها لسمسار يدعى بروس كابل، وهو يملك متجر كتب جميل في جزيرة كامينو، فلوريدا».

ابتسم ديني وسأله: «كم المبلغ الذي دفعه؟».

«مليون».

«عمل رائع يا أوسكار».

«هلا تركتني الآن وشأني؟».

حدق ديني ورووكر فيه بثبات دون أن يحركا ساكناً. اعتقد أوسكار لعشر
ثوانٍ أنهما سيقتلانه. كان قلبه يخفق بقوة وهو يحاول أن يتنفس.
ثم غادرا المكان دون أي كلمة أخرى.

الفصل السادس الرواية

1

كان دخول متجر نويلز بروفينس يشبه التجول وسط أحد كاتالوجاتها الجميلة. فالصالة الأمامية مليئة بالأثاث الريفي والخزائن المزخرفة ومناضد الزينة والبوفيهات والكراسي ذات الذراعين المرتبة بأريحية فوق أرضيات من البلاط الحجري القديم. الطاولات الجانبية مليئة بالقدور والأباريق والسلال القديمة. والجدر الجصية مطلية بلون خوخي ومزينة بالمصابيح والمرايا ولوحات زيتية للبارونات وعائلاتهم الذين طوي ذكركم منذ زمن بعيد، بالإضافة لشموع عطرية تنبعث منها رائحة فانيلا ثقيلة. هناك شمعدانات معلقة من السقف الجصي الممزوج بالخشب. كما تُسمع إحدى مقطوعات الأوبرا من خلفية المتجر بشكل ناعم عبر مكبرات صوت مخفية. في إحدى الصالات الجانبية، أبدت ميرسر إعجابها بطاولة قليلة العرض وطويلة لتذوق النبيذ مُجهزة للعشاء مع أطباق وقدور ذات لون أصفر وأخضر زيتي، وهي الألوان الأساسية لأدوات المائدة البروفينسية الريفية. وعلى الجدار قرب النافذة الأمامية تقع طاولة الكاتب، قطعة جميلة مدهونة يدوياً كان من المفروض بها أن تشتهيها. وبحسب ما قالت إيلين، معروضة بثمن قدره ثلاثة آلاف دولار

وهي مثالية لاحتياجاتهما.

حاولت ميرسر حفظ كتب نويل الأربعة، وحددت بسهولة الأثاث والمفروشات. كانت تُبدي إعجابها بطاولة الكاتب عندما دخلت نويل الغرفة وقالت: «حسناً، مرحباً يا ميرسر. يا لها من مفاجأة سارة». حيثها بسلام فرنسي عادي عبر قبلة خفيفة إلزامية على كلتا الوجدتين.

قالت ميرسر وهي تكاد تُصاب بالذهول: «هذا المكان رائع».

«مرحباً بك في بروفيس. ما الذي أتى بك إلى هنا؟».

قالت وهي تلمس طاولة الكاتب: «أوه، لا شيء. أتفرّج وحسب. أحبّ هذه الطاولة». كان هناك ثلاث منها معروضة في كتبها.

«وجدتها في أحد أسواق قرية بونيو، قرب آفيون. يجب أن تأخذها. إنها مثالية لما تقومين به».

«أنا بحاجة لبيع بعض الكتب أولاً».

«دعك من ذلك. سأخذك في جولة». أمسكت بيد ميرسر وقادتها من غرفة إلى أخرى، جميعها مليئة بالمفروشات الموجودة في كتبها. صعدتا سلماً أنيقاً إلى الطابق الثاني درجاته مصنوعة من الحجر الأبيض والدرابزين من الحديد المطوع، حيث أظهرت نويل بتواضع مخزونها؛ المزيد من المرايا والأسرة ومناضد الزينة والطاولات، كل منها بحكاية خاصة بها. تحدّثت بحب عن مجموعتها التي بدت أنها مترددة بالابتعاد عن أي منها. لاحظت ميرسر عدم وجود علامة سعر على أي قطعة في الطابق الثاني.

لنوئل مكتب صغير في الجانب الخلفي من الطابق السفلي، وبجانب بابه طاولة تذوق نبيذ. عندما بدأت تشرح عنها، تساءلت ميرسر إن كانت جميع

الطاولات الفرنسية تُستخدم لتذوق النبيذ. قالت نويل وهي تشير إلى كرسي بجانب الطاولة: «دعينا نتناول بعض الشاي». جلست ميرسر وبدأت بالحديث بينما كانت نويل تغلي الماء في موقد صغير بجانب مغسلة رخامية.

قالت ميرسر: «أنا أعشق طاولة الكاتب تلك لكني أخشى السؤال عن ثمنها».

ابتسمت نويل وقالت: «لأجلك يا عزيزتي، سأبيع بحسم خاص. أما بالنسبة إلى شخص آخر، ثمنها ثلاثة آلاف، لكن بإمكانك الحصول عليها بنصف ذلك الثمن».

«لا يزال السعر باهظاً. دعيني أفكر بالأمر».

«أين تكتبين الآن؟».

«على طاولة فطور صغيرة في المطبخ، تطل على المحيط، لكن لا فائدة تُرجى. لست واثقة فيما إذا كان السبب هو المحيط أو الطاولة، لكن الكلمات لا تأتي».

«ما موضوع الكتاب؟».

«لست متأكدة. أحاول البدء بكتاب جديد لكن الأمر لا يسير على ما يُرام».

«أنهيتُ لتوي قراءة رواية مطر تشرين الأول وأظن أنها رائعة».

تأثرت ميرسر بكلامها فقالت: «أنت لطيفة جداً». منذ أن وصلت إلى الجزيرة التقت بثلاثة أشخاص يتحدثون بإعجاب عن روايتها الأولى، وبتشجيع أكثر مما تلقته خلال السنوات الخمس الماضية.

وضعت نويل إبريق شاي مصنوعاً من البورسلين على الطاولة وسكبت

الماء المغلي بمهارة في كوبين متماثلين. كلتاهما أضافت مكعباً واحداً من السكر لكن من دون حليب، وبينما كانتا تحركاناه سألت نويل: «هل تتحدثين بشأن عملك؟ أنا أسأل لأنّ معظم الكُتّاب يتحدثون كثيراً حول ما كتبوه أو ما يريدون أن يكتبوه، لكن قلة منهم تجد الأمر صعباً لسبب ما».

«أفضّل ألا أتحدث، وخاصةً حول ما أقوم به الآن. تبدو روايتي الأولى قديمة وتقليدية، وكأني كتبتها منذ سنوات عديدة. أن يُنشرَ لكِ وأنتِ صغيرة في السن، يبدو هذا لعنة من نواح عدة. فالآمال عالية، والضغط متواصل، والعالم الأدبي بانتظار مجموعة كبيرة من الأعمال. تمرّ عدة سنوات وليس هناك من كتاب. النجم الواعد تُطوى ذكراه ببطء. لقد نصحتني أول وكيلة أعمال لي بعد رواية مطر تشرين الأول، أن أُسرِع في نشر روايتي الثانية. قالت: بما أنّ النقاد أحبوا روايتي الأولى فبال تأكيد سوف يكرهون الثانية، مهما كانت، لذا امضي إلى الأمام وأنهى كتابك المشؤوم الثاني. ربما هي نصيحة جيدة، لكنّ المشكلة أنه لم يكن لديّ رواية ثانية. أظنّ أنني لا أزال أبحث».

«تبحثين عم ماذا؟».

«عن قصة».

«يقول معظم الكُتّاب إنّ الناس يأتون في المقام الأول. وما إن يُصبحوا على المسرح، حتى يجدوا قصة بطريقة ما. ألسن كذلك؟».

«ليس بعد».

«ما الذي جعلك تستلهمين رواية مطر تشرين الأول؟».

«عندما كنتُ في الكلية، قرأتُ قصة عن طفل ضائع، طفل لم يتم إيجاده أبداً، وماذا فعل ذلك الحدث بالعائلة. كانت محزنة للغاية، قصة مؤرّقة، لكنها

أيضاً جميلة من نواحٍ عدة. لم أستطع نسيانها. ولذا، استعرتُ القصة، وأعدتُ اختلاقها بصورة شاملة، ثم كتبتُ الرواية خلال أقل من سنة. الآن يبدو تصديق ذلك صعباً، أي العمل بهذه السرعة. في ذلك الوقت، كنتُ أتطلع إلى كل صباح، وإلى فنجان القهوة الأول والصفحة التالية. هذا الأمر لا يحدث الآن».

«أثق أنه سيحدث. أنتِ في المكان الأمثل كي تقومي بالكتابة فقط ولا شيء آخر».

«سنرى، بصراحة يا نويل، أنا بحاجة لبيع بعض الكتب. لا أريد أن أعلم ولا أريد أن أجد عملاً. حتى أنني فكّرتُ بالكتابة تحت اسم مستعار وأن أقدم على عجل روايات عن جرائم غامضة أو شيء يمكنه أن يحقق مبيعات».

«ليس هناك من خطأ في هذا. بيعي بعض الكتب ومن بعدها تستطيعين أن تكتبي أي شيء تريدينه».

«هذه الخطة ترتسم ملامحها ببطء».

«هل فكّرتِ بشأن التحدث مع بروس؟».

«كلا. لمَ قد أفعل ذلك؟».

«إنه خبير بجميع مناحي هذا العمل. يقرأ كل شيء، ويعرف مئات الكُتّاب ووكلاء الأعمال والناشرين، وغالباً يأتون إليه طلباً لرأيه وليس لنصيحته بالضرورة. لن يُقدّم أي شيء ما لم يُطلب منه. إنه يحبك ومُعجب بعملك وربما يقول شيئاً مفيداً لك».

هزّت ميرسر كتفيها، وكأنّ الفكرة جديرة بالاهتمام. فُتح الباب الرئيسي فقالت نويل: «اعذريني، ربما هناك زبون». نهضت من وراء المنضدة واختفت. ارتشفت ميرسر من كوب شايتها وشعرت بنفسها مخادعة. هي لم تكن

هناك من أجل شراء أثاث أو التحدث عن الكتابة والتظاهر بأنها واحدة من المؤلفات الوحيدات والمضطربات اللاتي تحاولن كسب أصدقاء. كلا، كانت هناك تبحث عن أي أثر لمعلومات تستطيع إيصالها إلى إيلين التي ربما تستخدمها يوماً ما ضد نويل وبروس. ألم حاد يعتصر أمعاءها بينما كانت تجتاحها موجة من الغثيان. تحملتها، وانتظرت زوالها، ثم وقفت وتفحصت نفسها. مشت نحو مقدمة المتجر حيث نويل تساعد زبوناً يبدو مهتماً بشكل جدي بشأن إحدى مناظير الزينة.

قالت ميرسر: «سأذهب».

قالت نويل بصوت يكاد أن يكون همساً: «بالطبع، سنكون، بروس وأنا، سعداء باستضافتك على العشاء قريباً».

«كم هذا رائع. أنا مُتفرّغة لبقية الصيف».

«سأتصل بك».

2

في وقت متأخر من بعد الظهر، كانت نويل تُرتب مجموعة من الجرار الصغيرة عندما دخل المتجر ثنائي بلباس أنيق في منتصف الأربعينات من العمر. أخبرتها نظرتها الأولى أنهما أكثر ثراءً من السياح العاديين الذين يأتون إليها من الشارع، ويستعرضون الأشياء بشكل مطّول كي يفهموا الأسعار ثم يُسرعون في الخروج خالي الوفاض.

عرّفا عن نفسيهما بأنهما لوك وكارول من هيوستن وقالوا إنهما يقيمان في فندق الريتز لعدة أيام، وأنها الزيارة الأولى لهما إلى الجزيرة. لقد سمعا بالمتجر، حتى أنهما شاهدا موقعه الإلكتروني، وأنهما انجذبا على الفور لإحدى

طاولات العشاء والتي عمرها مائة عام، كانت القطعة الأعلى ثمناً في المتجر في ذلك الوقت. طلب لوك أداة قياس فسلمته نويل واحدة. قاما بقياس الطاولة من كل الاتجاهات وتمتما بين أنفسهما أنها سوف تكون رائعة في غرفة عشاء منزل الضيوف. رفع لوك كمي قميصه وسألت كارول فيما إذا كان بإمكانهما التقاط بعض الصور. قالت نويل بالطبع. قاما بأخذ قياس منضدتي زينة وخزانتني ثياب كبيرتين، وأثناء ذلك طرحا أسئلة ذكية عن الخشب والتشطيبات وتاريخ القطع. كانا يبنيان منزلاً جديداً في هيوستن ويريدانه أن يبدو كأنه منزل ريفي بروفينسي، ذلك المنزل الذي قضيا فيه عطلتها السنة الماضية قرب قرية روسيون في منطقة فوكالوس. كلما طالت مدة بقائهما هناك أصبحا مفتونين تقريباً بكل شيء تعرضه نويل. أخذتهما إلى الطابق الثاني حيث المفروشات الأعلى سعراً فزاد اهتمامهما أكثر. بعد قضاء ساعة في المتجر، وحوالي الساعة 5:00 مساءً، فتحت نويل زجاجة شمبانيا وسكبت ثلاث كؤوس. بينما كان لوك يقيس أحد المقاعد الجلدية وكارول تلتقط بعض الصور، استأذنت كي تذهب للأسفل وتتفقد ما يحدث هناك. وعندما غادر اثنان من زوار المتجر، أقفلت الباب، وعادت إلى الثريين القادمين من تكساس.

تجمعوا حول طاولة قديمة وبدأوا الحديث بشأن الصفقة. طرح لوك أسئلة عن الشحن والتخزين. كان منزلهما الجديد بحاجة لستة أشهر كي ينتهي وكانا يستخدمان أحد المخازن لجمع الأثاث والمفروشات. أكدت نويل لهما أنها تشحن لجميع أنحاء البلاد وأن ذلك ليس مشكلة. اختارت كارول الأشياء التي تريد شراءها على الفور، وكانت إحداها طاولة الكاتب. رفضت نويل، فهي تحتفظ بها لشخص آخر، لكن بإمكانها بسهولة إيجاد طاولة أخرى خلال رحلتها القادمة إلى مقاطعة بروفينس. نزلا نحو مكتبها حيث سكبت المزيد من

الشمبانيا وبدأوا العمل على الفاتورة. كان المبلغ الإجمالي 160,000 دولار، مبلغ لم يزعجها. المساومة على السعر جزء من العمل، لكن آل ماسي لم يهتما لذلك. وضع لوك بطاقة اعتماد سوداء اللون وكأنه يتعامل بالفكّة، كما قامت كارول بالتوقيع على طلب الشراء.

عانقاها عند الباب الرئيسي وكأنها صديق قديم وقالوا إنها ربما يعودان غداً. عندما ذهبوا، حاولت نويل أن تتذكّر عملية بيع بهذا المبلغ من المال. فلم تتمكن من ذلك.

عاد لوك وكارول إلى المتجر عند الساعة 10:05 من صباح اليوم التالي بابتسامات مشرقة وهمّة عالية. قالوا إنها أمضيا نصف الليلة وهما ينظران إلى صور ومخططات عن منزلها غير المنجز بعد، وحسناً، كانا يريدان المزيد. لقد بعث مهندسهما المعماري بإيميلات تحمل مخططات قياسية عن المستويين الأولين للبناء وقاما برسم تصميمات وأماكن يوضح ما يريدانه من أثاث متجر نويل. لم تستطع نويل تجنّب ملاحظة أنّ المنزل يغطي مساحة تسعة عشر ألف قدم مربعة. ذهبوا إلى الطابق الثاني، وأمضيا كل الصباح يأخذان مقاسات الأسرة والطاولات والكراسي والخزائن. كانت قيمة فاتورة اليوم الثاني تفوق الـ 300,000 دولار، ومرة أخرى، قدّم لوك بطاقة الاعتماد السوداء اللون.

أغلقت نويل المتجر من أجل فترة الغداء واصطحبتها إلى مطعم مشهور مجاور. بينما كانوا يتناولون الطعام، قام محاميها بالتحقق من صلاحية بطاقة الاعتماد وعلم أنّ باستطاعة آل ماسي شراء كل ما يريدون. كما أنه فتش في خلفيتهما لكنه لم يجد سوى القليل. ما أهمية ذلك؟ إذا كانت البطاقة السوداء صالحة، من ذا الذي يهمله مصدر النقود؟

خلال تناول الغداء، سألت كارول نويل: «متى تجلبين مزيداً من البضاعة؟».

ضحكت نويل وقالت: «حسناً، من الواضح أنه عاجلاً وليس آجلاً. كنتُ أخطط للسفر إلى فرنسا بدايةً آب، لكن بما أنني الآن بحاجة إلى بضاعة فأنا بحاجة إلى تقديم الموعد».

نظرت كارول إلى لوك الذي بدأ مُحرجاً لسبب ما فقال: «بدافع الفضول فقط. نحن نتساءل إن كان بإمكاننا الالتقاء بك هناك والتسوق معاً».

أضافت كارول: «نحن نحب مقاطعة بروفينس، وسيكون من الممتع البحث عن الأنتيكات مع شخص مثلك».

قال لوك: «ليس لدينا أطفال ونحن نحب السفر، بشكل خاص إلى فرنسا، ونحن مغرمان حقاً بتلك الأنتيكات. حتى أننا نبحث عن مُصمم جديد بإمكانه المساعدة في انتقاء نوعية الأرضيات وورق الجدران».

قالت نويل: «حسناً، يصدق أنني أعرف الجميع في هذا المجال من العمل. متى تودان الذهاب؟».

تبادل آل ماسي النظرات وكأنهما يحاولان تذكّر جدول مواعيدهما المشغول. قال لوك: «سنكون في رحلة عمل إلى لندن خلال أسبوعين. بإمكاننا الالتقاء بك بعد ذلك».

سألت كارول: «هل يمكن ذلك بهذه السرعة؟».

فكرت نويل للحظة ثم قالت: «يمكن ذلك. أنا أسافر عدة مرات في السنة حتى أنني أملك شقة في آفينيون».

قالت كارول بحماس بالغ: «هذا رائع، ستكون مغامرة. بإمكانني تخيل منزلنا مليئاً بالأشياء التي سنجدها في بروفينس».

رفع لوك كأس نبيذ وقال: «نخب البحث عن الأنتيكات في جنوب فرنسا».

3

حُمّلت أولى الشاحنات بمعظم مخزون نويل بعد مُضي يومين وغادرت جزيرة كامينو إلى مخزن في هيوستن حيث كانت بانتظارها مساحة كبيرة. ألف قدم مربعة مؤجرة للوك وكارول ماسي. لكنّ الفاتورة سوف تحطّ في النهاية على مكتب إيلين شيلبي.

خلال بضعة أشهر، عندما ينتهي المشروع، للأفضل أو للأسوأ، ستعود الأنتيكات الجميلة ببطء إلى السوق مرة أخرى.

4

عند الغسق عادت ميرسر إلى الشاطئ، توجهت جنوباً وتزهت بجانب الشاطئ. أوقفها آل نيلسون الذين يسكنون على بعد أربعة بيوت منها لجهة الجنوب من أجل محادثة سريعة بينما كان كلبهما الصغير يشتم رسغي قدميها. كانا في السبعينات من عمرهما ويشبكان يديهما وهما يمشيان على الشاطئ. إنهما ودودان لدرجة التطفل وقد عرفا مسبقاً سبب عطلة ميرسر القصيرة. قال السيد نيلسون وهما يبتعدان عنها: «كتابة سعيدة». بعد دقائق، أوقفها السيدة ألدرمان التي تقطن على بعد ثمانية بيوت باتجاه الشمال والتي كانت تمشي مع كلبها البودلز التوأم وتبدو دائماً تواقّة للتواصل الإنساني. لم تكن ميرسر يائسة لكنها كانت تستمتع بالجيرة.

بالقرب من الميناء، اقتربت من أحد الممرات الخشبية. لقد عادت إيلين إلى

البلدة، وأرادت اللقاء بها. كانت تنتظر في الشرفة الصغيرة خارج المبنى
الثلاثي الطبقات الذي استأجرته من أجل العملية. أتت ميرسر مرة واحدة من
قبل ولم تجد أحداً سوى إيلين. لم تكن تعرف إن كان هناك آخرون مُنخرطون
في المراقبة، أو إن كان هناك شخص يتبعها.

دخلتا إلى المطبخ فسألته إيلين: «هل تودين شرب شيء؟».

«ماء من فضلك».

«هل تناولت العشاء؟».

«كلا».

«حسناً، بإمكاننا طلب بيتزا وسوشي، أو طعام صيني. ماذا تحبين؟».

«لستُ جائعة».

قالت إيلين وهي تشير إلى طاولة فطور صغيرة بين المطبخ وغرفة
المعيشة: «ولا أنا. دعينا نجلس هنا». فتحت البراد وأخرجت زجاجتي ماء.
جلست ميرسر ونظرت حولها ثم سألتها: «هل تقيمين هنا؟».

جلست إيلين قبالتها وقالت: «نعم، لمدة ليلتين».

«لوحدهك؟».

«نعم. لن يبقى أحد آخر في الجزيرة ابتداءً من اليوم. سنأتي ونذهب».

كادت ميرسر تسأل عن «نون الجماعة في كلمة نأتي» لكنها لم تفعل.

قالت إيلين: «حسناً لقد رأيت متجر نويل». أومأت ميرسر برأسها. كان

تقريرها الليلي عبر البريد الإلكتروني غامضاً بشكل متعمد.

«أخبريني عنه. صفي المكان».

وصفت لها ميرسر كل صالة عرض في الأعلى والأسفل، وأضافت تفاصيل بقدر ما أمكنها. أصغت إيلين باهتمام لكنها لم تكتب ملاحظات. من الواضح أنها تعرف الكثير عن المتجر.

سألت إيلين: «هل هناك قبو؟».

«نعم، ذكرته بشكل عابر، قالت إن لديها ورشة في الأسفل، لكنها لم تهتم لتريني إياها».

«إنها تحتفظ بطاولة الكاتب. حاولنا شراءها لكنها قالت إنها ليست للبيع. في مرحلة ما قريباً، ستشترينها، لكن ربما ترغبين بها مدهونة. وربما ستقوم بعملية الطلاء في القبو، وربما سترغبين بإلقاء نظرة كي تشاهدي عينة من اللون الجديد. نحتاج لإلقاء نظرة على القبو لأنه يجاور قبو متجر الكتب».

«من حاول شراءها؟».

«نحن، الأشخاص الطيبون يا ميرسر. أنت لست لوحدك».

«لماذا يبدو هذا الأمر غير مريح؟».

«أنت لست تحت المراقبة. نحن نأتي ونذهب، كما قلت لك سابقاً».

«حسناً. افترضني أنني دخلت إلى قبوها. ثم ماذا؟».

«انظري. راقبي. خزني كل شيء في ذاكرتك. وفي حال كنا محظوظين يجب

أن يكون هناك باب يؤدي إلى متجر الكتب».

«أشك في ذلك».

«أنا أيضاً أشك في ذلك لكننا يجب أن نعرف. هل الجدار من الباطون أو

الآجر أو الخشب؟ ربما نحتاج لاختراقه يوماً ما أو في ليلة ما. ماذا بشأن نظام المراقبة الأمني في المتجر؟».

«هناك كاميرتان، واحدة مُوجَّهة نحو الباب الرئيسي والأخرى في الخلف فوق المطبخ الصغير. ربما هناك المزيد لكني لم أرَ أيّاً منها. لا يوجد كاميرات في الطابق الثاني. أنا متأكدة أنك تعرفين ذلك سلفاً».

«نعم، لكن في هذا المجال من العمل نحن نتحقق من كل شيء ثلاث مرات ولا نتوقف عن جمع المعلومات أبداً. ما نوع قفل الباب الرئيسي؟».

«قفل مزلاج بمفتاح، لا شيء فاخر».

«هل شاهدتِ باباً خلفياً؟».

«كلا، لكني لم أذهب إلى الخلف. أظن أنّ هناك المزيد من الغرف في الخلف».

«متجر الكتب في الشرق، ومكتب سمسار العقارات في الغرب، هل هناك أي باب يصل إليه؟».

«لم أرَ أي باب».

«عمل جيد. لقد مضى على وجودك هنا ثلاثة أسابيع يا ميرسر، وأداؤك كان رائعاً في اختلاطك بالناس وعدم إثارة الشكوك حولك. قابلتِ الناس المناسبين، ورأيتِ كل ما يمكنك أن تريه، ونحن سعداء للغاية. لكننا بحاجة إلى تحقيق شيء ما».

«أنا متأكدة من أنك تخفين شيئاً ما».

«فعلاً». مشت إيلين نحو الأريكة، وأمسكت بثلاثة كتب ثم وضعتها في

وسط الطاولة وأضافت: «اسمعي القصة. لقد غادرت تيسا ممفيس عام 1985 وانتقلت للعيش هنا بشكل نهائي. وكما نعرف، تركت العقار في وصيتها لأبنائها الثلاثة بحصص متساوية. وفيها بند يترك لك مبلغ عشرين ألف دولار نقداً من أجل مصاريف الكلية. لديها ستة أحفاد آخرين – كوني، وأولاد هولستيد في كاليفورنيا، وابنة جاين الوحيدة سارة. كنت الوحيدة التي حصلت على تركة محددة».

«كنتُ الوحيدة التي أحبّتها فعلاً».

«هذا صحيح، إذاً قصتنا الجديدة تسير بهذا الشكل تقريباً. بعد أن ماتت، قمتِ وكوني بالبحث في أغراضها الشخصية، تلك الأشياء التي لم تُذكر في الوصية، وأنتما الاثنتان قررتما تقسيمها بينكما. بعض قطع الملابس، وبعض الصور القديمة، وربما بعض القطع الفنية الرخيصة الثمن، وما إلى ذلك. اخترعي الرواية التي تريدينها. لقد استلمتِ بحسب القسمة، صندوقاً من الكتب، معظمها كتب أطفال كانت تيسا قد جلبتها لكِ على مر السنين. لكن في أسفله هناك ثلاثة كتب، وجميعها طبعة أولى من مكتبة عامة في ممفيس استعارتها تيسا في العام 1985.

عندما انتقلت تيسا للعيش هنا جلبتُ تلك الكتب الثلاثة معها بقصد أو من دون قصد. وأنتِ حصلتِ عليها بعد ثلاثين عاماً».

«هل تلك الكتب نفيسة؟».

«نعم ولا. انظري إلى الكتاب الذي في الأعلى».

أمسكت ميرسر به. كتاب المُدان لجيمس لي بيريك. بدا أنه في حالة ممتازة بغلافه الورقي الأصلي والمحمي بطبقة شفافة من الميلر. فتحته ميرسر وقلّبت

فيه إلى صفحة حقوق الطباعة فرأت فيها كلمات «طبعة أولى».

قالت إيلين: «كما تعرفين ربما، هذا يضم مجموعة القصص القصيرة لبيرك وقد حصل على اهتمام واسع في العام 1985. لقد أحبه النقاد وبيع منه الكثير».

«ما ثمن الكتاب؟».

«اشتريناه لقاء خمسة آلاف دولار. كانت الطبعة الأولى قليلة ولم يتبق كثير منها في التداول. سوف ترين بار كود على ظهر الغلاف الورقي للكتاب. هذا ما كانت تستعمله مكتبة ممفيس في العام 1985، وبذلك لا يحمل الكتاب أي علامة مميزة عملياً. بالطبع نحن من أضفنا البار كود وأنا متأكدة من أن كابل سوف يعرف أحداً ما في هذا المجال من العمل يمكنه أن يزيله. ليس الأمر بتلك الصعوبة».

كررت ميرسر قائلةً: «خمسة آلاف دولار»، وكأنها كانت تحمل سبيكة ذهبية.

«نعم، ومن تاجر مشهور. الخطة هي أن تذكرى الكتاب أمام كابل. أخبريه قصته لكن لا ثريه الكتاب، على الأقل في البداية. أنت لست واثقة مما يجب فعله. من الواضح أن الكتاب أخذته تيسا وليس لها حق مشروع به. ثم أخذته أنت، من خارج الوصية، ولذا ليس لديك حق مشروع به. الكتاب من ممتلكات مكتبة ممفيس، لكن من ذا الذي يهتم حقاً بعد مرور ثلاثين عاماً؟ وبالطبع أنت بحاجة للمال».

«ألسنا بذلك نجعل من تيسا سارقة؟».

«إنها رواية يا ميرسر».

«لست متأكدة من أني أود تشويه سمعة جدتي الميتة».

«الميتة هي الكلمة الأساس. لقد مضى أحد عشر عاماً على موتها وهي لم تسرق أي شيء». الرواية التي ستحكيها لكابل لن يعرف بها أحد سواه».

رفعت ميرسر الكتاب الثاني ببطء. رواية Meridian Blood لكورماك مكارثي، الصادرة عن دار راندوم هاوس عام 1985، طبعة أولى بغلاف ورقي لامع. سألت: «ما قيمة هذا الكتاب؟».

«دفعنا أربعة آلاف دولار قبل أسبوعين».

وضعه ميرسر على الطاولة، ثم أمسكت بالكتاب الثالث. إنه رواية الحمامة الوحيدة للاري مكمورتري، صادر عن دار سايمون أند شوستر للطباعة في العام 1985 أيضاً. من الواضح أن الكتاب قد تم تداوله كثيراً بالرغم من أن الغلاف الورقي كان بحالة جيدة ونظيف.

قالت إيلين: «ذلك الكتاب مختلف قليلاً. فقد كانت دار سايمون أند شوستر تتوقع أرقاماً كبيرة فطبع منه أربعون ألف نسخة في البداية، ولذا هناك الكثير من الطبعات الأولى بين أيادي جامعي الكتب، ومن الواضح أن هذا يقلل القيمة. لقد دفعنا خمسمائة دولار ثم وضعنا غلافاً ورقياً جديداً لنضاعف القيمة».

سألت ميرسر: «هل الغلاف الورقي مزيف؟».

«نعم، هذا يحدث دائماً في التجارة، على الأقل بين المحتالين. فيمكن للغلاف الورقي المزور بشكل ممتاز أن يرفع القيمة بشكل كبير. لقد وجدنا مزوراً جيداً».

التقطت ميرسر «نون الجماعة» مرة أخرى وتعجبت من كبر حجم العملية.

وضعت الكتاب على الطاولة وشربت بعض الماء.

«الخطبة يا ميرسر هي أن تستخدمى هذه الكتب كوسيلة للاقتراب من كابل. ابدئي بالتحدث عنها فقط. أنتِ لستِ واثقة مما يجب فعله بها. فمن الخطأ بيعها من الناحية الأخلاقية لأنها ليست ملكِ حقاً. في نهاية المطاف، أره كتاباً أو اثنين وانظري كيف يتفاعل مع الأمر. ربما يطلعك على مجموعته في القبو أو السرداب أو أياً يكن ما يملكه هناك في الأسفل. من يعرف أين يمكن للمحادثات أن تصل. ما نحتاجه يا ميرسر هو أن تلجى إلى أعماق عالمه. ربما ينتهز فرصة شراء كتاب المُدان أو Meridian Blood، أو ربما يكونان لديه في مجموعته. في حال حاصرناه بشكل صحيح، ربما يجب فكرة أن الكتب ليست شرعية تماماً ويرغب بشرائها. دعينا نرى مدى نزاهته معكِ. نحن نعلم قيمة الكتب. هل سيعرض عليكِ سعراً مُخفضاً؟ من يعلم؟ المال ليس مهماً. الناحية المهمة هنا هي أن تُصبحى جزءاً صغيراً في عمله الغامض».

«لستِ واثقة أنى أحب ذلك».

«هذا أمر لا يضر يا ميرسر، وكله خيال. فكل تلك الكتب نحن اشتريناها بشكل شرعي. في حال اشتراها، نستعيد نقودنا. وفي حال أعاد بيعها، يستعيد نقوده. ليس هناك من شيء خطأ أو غير أخلاقي في هذه الخطبة».

«حسناً، لكنى لست متأكدة من أنى أستطيع مجاراة الأمر وأكون مُقتنعة».

«كفاكِ يا ميرسر. أنتِ تعيشين في عالم الخيال. اختلقى المزيد منه».

«لا تسير أمور الخيال بشكل جيد هذه الأيام».

«أسفة لسماع هذا».

هزّت ميرسر كتفيها، وأخذت رشفة من الماء. حدّقت إلى الكتب بينما كان عقلها يسرح بسيناريوهات مختلفة. سألتها أخيراً: «ما الخطأ الذي يمكن أن يحصل؟».

«أظن أنّ كابل قد يتصل بالمكتبة في ممفيس ويستقصي عن الأمر، لكنه لن يصل إلى شيء. لقد مرّت ثلاثون سنة وكل شيء تغيّر. إنهم يفقدون حوالي ألف كتاب سنوياً بسبب أناس لا يُعيدونها بكل بساطة، وكونها مكتبة نموذجية، فليس لديها اهتمام حقيقي باقتفاء أثر الكتب. بالإضافة إلى أنّ تيسا استعارت كثيراً منها».

«كنا نذهب إلى المكتبة كل أسبوع».

«القصة متماسكة. لن يكون لديه وسيلة لمعرفة الحقيقة».

أمسكت ميرسر برواية الحمامة الوحيدة وسألت: «ماذا لو اكتشف أن الغلاف الورقي مُزور؟».

«لقد فكرنا بذلك، ونحن لسنا متأكدين من أننا سوف نستخدمه. لقد أرينا الكتاب لاثنين من سماسرة الكتب القدماء، أشخاص مرّت عليهم أشياء كثيرة، ولم يتمكن أي منهما من كشف التزوير. لكنك على حق. يمكن لذلك أن يكون خطراً قد نقرر عدم الإقدام عليه. ابدي بالكتابين الأولين، لكن دعيه ينتظر. اجعلي الأمر يبدو وكأنك تتصارعين مع ما هو صحيح ومنصف. إنها معضلة أخلاقية بالنسبة إليك ودعينا نرى ما نوع النصيحة التي يعطيها».

تركت ميرسر الكتب في حقيبة قماشية، ثم عادت إلى الشاطئ. كان المحيط ساكناً والمدّ منخفضاً. والبدر في السماء جعل الرمل أكثر بياضاً. عندما بدأت بالمشي سمعت أصواتاً أخذت ترتفع رويداً رويداً. وإلى اليسار منها، في

منتصف المسافة إلى الكثبان الرملية رأت عاشقين شابين يرقصان فوق منشفة شاطئ، تتخلل كلماتهما الهامسة تنهدات وتأوهات. كادت أن تقف لتراقب إلى ماذا سينتهي أمرهما، لكنها تمكنت من المضي قدماً وهي تستوعب كل ما رأت قدر الإمكان بينما كانت تمشي الهويناً.

كانت تحسدهما. منذ متى كانت آخر مرة؟

5

فجأة توقفت الرواية الثانية الجديدة بعد خمس آلاف كلمة وثلاثة فصول فقط، لأنه في ذلك الوقت كانت ميرسر قد تعبت سلفاً من شخصياتها وملّت من حبكة قصتها. إنها مُحبّطة ويائسة حتى أنها غاضبة قليلاً من نفسها ومن العملية كلها، فارتدت ملابس السباحة وذهبت إلى الشاطئ. كانت الساعة العاشرة صباحاً فقط لكنها تعلمت تجنّب شمس منتصف النهار. كان الجو حاراً جداً كي يتواجد المرء في الخارج في الفترة الممتدة بين الظهر وحتى الساعة الخامسة، سواء داخل الماء أو لا. لقد اكتسبت بشرتها الآن بعض السمرة وأصبحت قلقة من كثرة تعرضها للشمس. لقد حان أيضاً وقت قدوم العداء عند الساعة العاشرة، وهو رجل غريب يناظرها بالعمر تقريبا. يركض حافي القدمين عند طرف الشاطئ، وجسده الطويل والنحيل يتلألأ بالعرق. من الواضح أنه رياضي بمعدة مشدودة وعضلات ذراعين وساقين رائعة. كان يركض بسلاسة وتناغم، فقالت في نفسها يبدو أنه يُبطئ قليلاً عندما تظهر أمامه. لقد تلاقت أعينهما في مناسبتين على الأقل خلال الأسبوع الماضي، وكانت ميرسر مقتنعة أنهما مستعدان لإلقاء التحية الأولى.

جهّزت مظلتها وكرسيها القابل للطي، طلّت جسدها بواقي الشمس بينما كانت تراقب كل التحركات باتجاه الجنوب. إنه يأتي من جهة الجنوب دائماً، من

جهة فندق الريتز والشقق الفاخرة. مدّت منشفتها وتمددت لتأخذ حمام شمس. وضعت نظارتها الشمسية وقبعتها المصنوعة من القش وأخذت تنتظر. وكما هي الحال في أيام الأسبوع، كان الشاطئ خالياً عملياً، وكانت خطتها أن تراه من بعيد ثم تمشي بشكل عادي نحو المياه، مؤقتةً تحركاتها كي تتصادف مع تحركاته. سيلقي عليها تحية الصباح بعفوية، مثل أي شخص آخر في هذه الشواطئ الودية. اتكأت على مرفقيها، وبينما هي تنتظر حاولت ألا تفكر بنفسها على أنها مجرد كاتبة فاشلة أخرى. تلك الخمسة آلاف كلمة التي حذفتها للتو كانت أسوأ ما كتبته على الإطلاق.

لقد مضى على وجوده عشرة أيام على الأقل، وهذه مدة طويلة لإقامة في فندق. ربما كان يستأجر شقة لمدة شهر.

لم يكن لديها فكرة عما ستكتبه لاحقاً.

كان بمفرده دائماً لكنه كان بعيداً جداً عنها كي تتحقق إن كان يضع خاتم زواج بإصبعه.

بعد خمس سنوات من الشخصيات التافهة والأفكار الضعيفة والسيئة جداً إلى درجة أنها لم تكن حتى تحبها، كانت مقتنعة أنها لن تستطيع كتابة رواية مرة أخرى.

رنّ جرس هاتفها وبدأ بروس بالقول: «أمل أني لا أقاطع العبقريّة أثناء العمل».

ردت: «كلا على الإطلاق. أنا في الواقع مُضطجعة على الشاطئ وعارية عملياً، أخطط لإغراء رجل غريب. أنا في حالة استرخاء».

«جيد. اسمعي، لدينا حفل توقيع بعد ظهر اليوم وأنا قلق قليلاً بشأن

الجمهور. المؤلف غير معروف وهذه روايته الأولى ولا أظنها جيدة جداً». كيف يبدو؟ كم عمره؟ هل هو سوي أم لا؟ لكنها قالت: «إذاً هذه هي طريقتك في بيع الكتب. أنت تجمع كُتّابك كي يأتوا لإنقاذك». «بالتأكيد. كما أنّ نويل تقيم حفل عشاء في الدقيقة الأخيرة في المنزل على شرفه بالطبع. نحن فقط، أنتِ وهو وميرا وليه. سيكون الأمر ممتعاً. ما رأيك؟».

«دعني أتحقق من جدول مواعيدي. نعم، أنا متفرّغة. في أي وقت؟». «عند السادسة، وبعدها العشاء».

«ملابس غير رسمية؟».

«هل تمزحين؟ أنتِ على الشاطئ. كل شيء ملائم. حتى الحذاء اختياري». كانت الشمس تخبز الرمال عند الساعة الحادية عشرة، كما انتقل النسيم العليل إلى مكان آخر. من الواضح أنّ الجو حار جداً لممارسة رياضة الركض.

6

كان اسم الكاتب راندال زالينسكي، كما لم يكشف الاطلاع السريع على الإنترنت سوى عن القليل عنه. سيرته الذاتية المُختصرة غامضة بشكل متعمّد وتقصد إعطاء انطباع بأنّ سيرته المهنية في «الجاسوسية الغامضة» أعطته آراء ثاقبة ونادرة في كل أساليب الإرهاب والجريمة الإلكترونية. تدور أحداث روايته حول مواجهة مستقبلية بين الولايات المتحدة وروسيا والصين. كان مُلخّصها المكون من فقرتين محرّكاً للعواطف لدرجة كونه سخيّف، حتى أنّ ميرسر وجدته مملاً. وصورته المُعدّلة كانت لرجل أبيض في بداية الأربعينات من عمره. ليس هناك ذكر لزوجّة أو عائلة. يعيش في ميشيغان، حيث، بالطبع،

يعمل على رواية جديدة.

حفل التوقيع الخاص به سيكون الثالث الذي تحضره ميرسر في متجر باي بوكس. لقد أعاد إليها حفلا التوقيع الأولان ذكريات مؤلمة لجولة ترويج كتابها الملغاة قبل سبع سنوات، وقد أقسمت على تجنب بقية حفلات التوقيع، أو على الأقل تحاول ذلك. لكنّ عدم الحضور ربما يكون صعباً. فحفل التوقيع يعطيها سبباً وجيهاً كي تتسكّع في المتجر، وهو شيء تحتاج أن تفعله وشيء أوصت به إيلين بشدة. سيكون أقرب إلى المستحيل أن تخبر بروس أنها مشغولة جداً لدرجة تمنعها من دعم المؤلفين في جولاتهم الترويجية، وخاصةً عندما اتصل بها وطلب حضورها بدعوة خاصة.

كانت ميرا على حق، للمتجر أتباع موالون وبإمكان بروس تنظيم تجمعات. عندما وصلت ميرسر كان هناك حوالي أربعين من المخلصين يحومون حول الطابق الثاني قرب المقهى. وبمناسبة الحدث، حُشرت الرفوف للخلف من أجل إيجاد مساحة مفتوحة حيث رُصّت الكراسي بشكل اعتباطي حول منصة صغيرة.

جلس الحشد في كراسيهم عند السادسة، وبدأوا بتجاذب أطراف الحديث. كان معظمهم يشرب نبيذاً رخيص الثمن بكؤوس بلاستيكية وبدأ الجميع مرتاحين وسعداء بوجوده هناك. جلست ميرا وليه على مقاعدهما في الصف الأمامي، الذي يبعد إنشأت من المنصة، وكانّ أفضل المقاعد محجوزة لهما دائماً. كانت ميرا تضحك وتتحدث مع ثلاثة أشخاص على الأقل في آن معاً. جلست ليه بهدوء بجانبها، تضحك عند اللزوم. وقفت ميرسر جانباً واتكأت على أحد الرفوف، وكأنها لا تنتمي حقيقةً إلى المكان. كان الحضور من الشيب والمتقاعدین، ولاحظت مرة أخرى أنها الأصغر سناً بين الحاضرين. الجو دافئ

ومريح حيث تجتمع مجموعة من محبي الكتب كي يستمتعوا بحضور كاتب جديد.

اعترفت ميرسر أنها شعرت بالحسد. لو أنها فقط تتمكن من إنهاء كتاب لعين واحد، حينئذٍ بإمكانها أيضاً أن تذهب في رحلة ترويجية وتلفت انتباه المعجبين. تذكرت حينها رحلتها الترويجية بقصر مدتها. جعلها ذلك تُقدّر متاجر مثل باي بوكس وأناساً مثل بروس كابل، بائعي الكتب النادرين أولئك، الذين يعملون بجد من أجل الحفاظ على مجموعة من الأناصر والمتحمسين.

خطا نحو المنصة، ورحّب بزبائنه ثم بدأ بمقدمة سخية عن راندي زالينسكي. لقد أعطته سنواته في «دوائر الاستخبارات» رؤية ثاقبة للمخاطر الخفية التي تحوم حول كل زاوية. وهكذا دوليك.

بدأ زالينسكي أقرب إلى جاسوس منه إلى كاتب. فبدلاً من سروال الجينز الباهت والسترة المُجعدّة، ارتدى بذلة سوداء أنيقة وقميصاً أبيض دون ربطة عنق، لا أثر للحية على وجه أسمر ووسيم، ولا وجود لخاتم زواج. تكلم بشكل ارتجالي لنصف ساعة وروى قصصاً مخيفة عن الحروب الإلكترونية المستقبلية وكيف أنّ الولايات المتحدة كانت في موقع ضعف أمام الروس والصينيين. ظنّت ميرسر ربما أنها ستسمع القصص نفسها على العشاء.

بدأ أنه يقوم بجولته الترويجية لوحده، وعندما ابتعدت ميرسر قرّرت أنّ الشخص يحمل إمكانيات في داخله، لكن لسوء الحظ، كان سيبقى في البلدة الليلة واحدة فقط. كذلك فكّرت بالشائعة، التي فيها يقوم بروس بمغازلة الكاتبات الشابات وتقوم نويل بفعل الشيء نفسه مع الرجال. يُزعم أنّ غرفة الكاتب في برجها كانت تُستخدم من أجل حفلات المبيت. أما وقد التقت بهما ميرسر الآن،

فقد وجدت ذلك صعب التصديق.

صفق الحضور عندما أنهى زالينسكي كلامه، ثم شكّلوا صفّاً أمام إحدى الطاولات التي تكدست كتبه عليها. فضّلت ميرسر ألا تشتري واحداً، ولم يكن لديها رغبة بقراءته، لكن لم يكن لديها خيار فعلياً. تذكّرت إحباط الجلوس بجانب الطاولة وأمل الكاتب أن يقدم أحدهم على شراء نسخة، بالإضافة إلى أنها على وشك تمضية الساعات الثلاث المقبلة مع الكاتب. شعرت أنها مُلزّمة وانتظرت بصبر تقدّم الصف إلى الأمام. رأتها ميّرا وبدأت بفتح حديث معها. قدّمتا نفسيهما إلى زالينسكي وراقبتاه وهو يشخبط توقيعه على نسختيهما.

بينما كانتا تنزلان الدرج، تمتت ميّرا بصوت مرتفع تقريباً: «نويل في المنزل. لم لا تذهبين إلى هناك مباشرة؟».

غادرت ميرسر وميّرا وليه المتجر ومشين باتجاه منزل مارشبانكس. سألت ميّرا: «هل رأيت المنزل من قبل؟».

«كلا، لكني رأيت الكتاب».

«حسناً، أنت مدعوة للمتعة، كما أنّ نويل هي المضيّفة المثالية».

7

المنزل شديد الشبه بمتجر نويل، فهو مليء بالمفروشات الريفية وبالغ الزخرفة. قامت نويل بجولة سريعة معهن في الطابق السفلي ثم أسرعت نحو المطبخ لتفقد شيء ما في الفرن. أخذت كل من ميّرا وليه وميرسر كؤوس الشراب إلى الشرفة الخلفية ووجدن ركناً أكثر برودة تحت المروحة. كان الليل رطباً كما أنّ نويل أعلمت الجميع أنّ العشاء سيكون في الداخل.

سلك حفل العشاء مسلكاً غير متوقّع عندما وصل بروس لوحده، وقال إنّ

ضيفهم السيد زالينسكي يعاني من نوبة شقيقة. أرسل اعتذاراته، لكنه بحاجة إلى الاستلقاء في إحدى غرف الفندق المظلمة. ما إن حضر بروس كأسه وانضم إليهم، قالت ميرا: «أود استرداد مبلغ ثلاثين دولاراً رجاءً»، بدت جادة في ما تقوله: «لن أقرأ هذا الكتاب ولو كنت تحت تهديد السلاح».

قال بروس: «احذري، في حال ردّ لك متجر كتبي الصغير المبلغ فعلاً فأنت تدينين لي بمبلغ كبير جداً».

سألت ميرسر: «إذاً كل المبيعات نهائية؟».

«بالتأكيد هي كذلك».

قالت ميرا: «حسناً إذا كنت ستجبرنا على شراء الكتب، أرجو أن تجلب بعض المؤلفين المحترمين إلى المتجر».

ابتسم بروس ونظر إلى ميرسر ثم قال: «نحن نجري هذه المحادثة ثلاث مرات في السنة على الأقل. فميرا، ملكة النفايات، لا توافق على معظم الكتب التجارية تقريباً».

ردّت ميرا بحسم: «ليس صحيحاً، أنا لا أحبّ البحث في أعمال التجسس وكل ذلك الهراء العسكري. لن ألمس الكتاب ولا أريد قمامة في منزلي. سوف أبيعه لك مرة أخرى لقاء عشرين دولاراً».

قالت ليه: «كفى يا ميرا، أنت دائماً تقولين إنك تحبين القمامة».

انضمت نويل إليهم في الشرفة وبيدها كأس من النبيذ. كانت قلقة بشأن زالينسكي وسألت إذا كان يجب عليهم الاتصال بأحد الأصدقاء الأطباء. لكن بروس قال: «لا، زالينسكي رجل صلب ويستطيع الاعتناء بنفسه». ثم أردف: «أعتقد أنه مُضجر جداً».

سألت ميرسر: «كيف يبدو كتابه؟».

«لقد تصفّحتُ الكتاب كثيراً. إنه محتشد بالتعبير التقنية، ويبدو جلياً أن الكاتب يحاول استعراض معرفته بالتكنولوجيا والأدوات والشبكات المُشَقَّرة التي تتصل بالإنترنت دون التمكن من اقتفاء أثرها. لقد كنت على وشك رمي الكتاب وعدم متابعة القراءة مرات عديدة».

هنا ضحكت ميرا وقالت: «حسناً، هذا يعزز موقفي، ولأكون صريحة، لم أكن متشوقة لتناول العشاء».

مالت ليه إلى الأمام ونظرت إلى ميرسر ثم قالت: «عزيزتي، لا توليهم أي اهتمام».

قالت نويل: «حسناً، بما أنك الآن موافقة على العشاء، دعينا نأكل».

في بهو خلفي واسع، مكان ما بين المطبخ والشرفة، زينت نويل طاولتها، وهي قطعة خشبية دائرية سوداء بدت معاصرة بشكل غريب. كل شيء آخر قديم، من الكراسي إلى الملاعق والسكاكين والشوك الفرنسية الأنيقة والأطباق الفخارية. بدت وكأنها شيء أُخذ من كتبها مباشرة، كان كل شيء جميلاً ومنظماً بدقة لدرجة تشعر انه لا يجدر بك إفساد كل هذا باستعماله.

قالت ميرسر وهم يجلسون على مقاعدهم ويعيدون ملء كؤوسهم: «نويل، أعتقد أنني أريد شراء طاولة الكاتب تلك».

«أوه، إنها لك. لقد اضطررتُ لوضع علامة «مباعة» عليها لأن كثيراً من الناس حاولوا شراءها».

«ربما يستغرق الحصول على المال بعض الوقت، لكن يجب أن أحصل عليها».

سألت ميرا: «وأنت تعتقدين أنّ ذلك سوف يُشفي عقدة انقطاعك عن الكتابة؟ طاولة قديمة من فرنسا؟».

سألت ميرسر: «من قال إنّ لدي عقدة كتابة؟».

«حسناً، ماذا تسمينها إذاً عندما لا تستطيعين التفكير بأي شيء لتكتبه؟».

«ما رأيك بـ (حالة قحط)؟».

«بروس؟ أنت الخبير».

كان بروس يمسك بوعاء سلطة كبير بينما تقوم ليه بتقديم الطعام فقال: «تبدو كلمة (انقطاع) قاسية جداً. أظن أنّي أفضل كلمة (قحط)، لكن من أنا لأبت في الأمر؟ أنتم جميعاً الكُتاب المحترفون».

ضحكت ميرا لسبب غير واضح ثم قالت: «ليه، أتذكرين تلك الفترة عندما كتبنا ثلاثة كتب خلال شهر؟ عندما كنا نتعامل مع ذلك الناشر الخسيس الذي لم يدفع لنا، ولذا قال وكيل أعمالنا إنه لا يمكننا الذهاب إلى دار نشر أخرى لأننا ندين للرجل بثلاثة كتب. ولذا قمّت أنا وليه بكتابة ثلاث قصص من أسوأ ما يمكن على الإطلاق، أشياء سخيّة بالفعل، وأنا قمّت بالطباعة على الآلة الكاتبة مدة عشر ساعات في اليوم لثلاثين يوماً متواصلة».

قالت ليه وهي تُمرّر وعاء السلطة: «لكن كان لدينا كتاب عظيم وجاهز».

قالت ميرا: «صحيح، صحيح. كان لدينا أفضل فكرة على الإطلاق لرواية شبه جدية، لكن لم نكن نود إعطاءها لناشرنا الخسيس. كان علينا التخلص من عقده القدر كي نتمكن من الارتباط مع ناشر أفضل يقدر العبقرية التي وراء فكرتنا العظيمة. نجح ذلك الجزء منها، فبعد مرور سنتين، كانت الكتب الثلاثة الشنيعة لاتزال تحقق مبيعات كبيرة في حين فشلت الرواية العظيمة. فكّروا

بهذا».

قالت ميرسر: «لكني ربما أرغب بطلاع طاولة الكاتب».

أجابت نويل: «سننظر إلى بعض الألوان، ونجعلها تبدو رائعة بالنسبة إلى الشاليه».

سألت ميرا بدهشة ساخرة: «هل رأيت الشاليه؟ نحن لم نر الشاليه. متى نراها؟».

أجابت ميرسر: «قريباً، سوف أقيم مأدبة عشاء».

قال بروس: «قولي لهم الأخبار الجيدة يا نويل».

«أي أخبار جيدة؟».

«لا تتحرجي. قبل عدة أيام، اشترى ثنائي ثري قادم من تكساس كامل مخزون نويل. المتجر فارغ عملياً».

قالت ليه: «من المؤسف أنهما ليسا جامعي كتب».

قالت نويل لميرسر: «لقد احتفظت بطاولة الكاتب».

«ستغلق نويل متجرها لمدة شهر لكي تعود إلى فرنسا بسرعة من أجل شراء المزيد من البضاعة».

قالت نويل: «إنهما لطيفان للغاية، وواسعا الاطلاع جداً. سألتقيهما في بروفينس للقيام بالمزيد من التسوق».

علقت ميرسر: «يبدو ذلك ممتعاً».

بدورها اقترحت نويل: «لم لا تأتين معي؟».

فحثتها ميرا: «يجدر بك أن تفعلي، فلن يسبب ذلك المزيد من الأضرار لروايتك».

وكالعادة قالت ليه: «كفى يا ميرا».

عندها سألتها نويل: «هل سبق لك أن زرت بروفينس؟».

«كلا، لكن لطالما رغبتُ برويتها. كم من الوقت ستبقين هناك؟».

هزت نويل كتفيها وكأن الجدول الزمني ليس مهماً ثم قالت: «شهر أو نحوه». نظرت إلى بروس فدار شيء بينهما، وكأن دعوة ميرسر لم تُناقش من قبل.

التقطت ميرسر الأمر وقالت: «أفضل الاحتفاظ بنقودي من أجل شراء طاولة الكاتب».

فأثنت ميرا على خيارها: «قرار صائب، من الأفضل لك أن تبقي هنا وتكتبي. هذا لا يعني أنك بحاجة إلى نصيحتي».

قالت ليه بلطف: «ليست بحاجة لها».

تجمّعوا حول طبق كبير من ريسوتو الروبيان وسلّة من الخبز، وبعد بضع لقمات بدأت ميرا البحث عن المشاكل فقالت وفمها مليء بالطعام وهي تضعغ¹: «هذا ما يجب أن نفعله، إذا أمكنني قول ذلك، هذا مستغرب جداً وأنا لم أفعله أبداً من قبل، وهذا سبب إضافي كي أفعله الآن، أنتم تعلمون، المغامرة في أرض مجهولة. يجب أن يكون لدينا مداخلة أدبية الآن مباشرة، حول هذه الطاولة. يا ميرسر، لقد مضى على وجودك هنا شهر أو نحوه، ولم تكتبي كلمة لعينة واحدة يمكن أن تُباع يوماً ما، وبصراحة، أنا تعبتُ نوعاً ما من شكواك بشأن عدم تحقيق أي تقدم بالرواية. لذا من الواضح تماماً لنا جميعاً أنه ليس

لديك قصة، وبما أنك لم تنشري منذ، متى، عشرة أعوام -». «
«خمسة تقريباً».

«أياً يكن. من الواضح بجلاء أنك تحتاجين إلى مساعدة. لذا أقترح أن نتدخل بصفتنا أصدقائك الجدد ونساعدك في إيجاد قصة. انظري فقط إلى كل تلك المواهب حول الطاولة هنا. بالتأكيد نحن نستطيع قيادتك إلى الوجهة الصحيحة».

قالت ميرسر: «حسناً، لا يمكن للأمر أن تزداد سوءاً».

قالت ميرا: «تفهمين ما أعنيه. إذاً نحن هنا للمساعدة». كرعت بعض الجعة من الزجاجات ثم أضافت: «الآن، من أجل هذا التدخل، نحن بحاجة إلى وضع بعض المُحدّات. أولاً والأكثر أهمية هو تحديد فيما إذا كنت تريدين كتابة رواية أدبية، أشياء لا تستطيعين التخلي عنها - اللعنة، حتى بروس لا يستطيع بيعها - أو أنك تريدين كتابة شيء أكثر شعبية. لقد قرأت روايتك وقصصك وأنا لست متفاجئة ولو قليلاً أنك لم تحققي مبيعات. سامحيني، اتفقنا؟ ففي النهاية، هذا تدخل والصراحة مطلوبة وإن كانت جارحة. مفهوم؟ هل الجميع متفقون على أقصى درجات الصراحة؟».

«عليك بها»، قالتها ميرسر بابتسامة وأوماً البقية بروؤوسهم. نحن جميعاً نستمتع بوقتنا. دعينا نسمع.

كانت ميرا تحشو فمها بشوكة مليئة بالخس وبقيت تتكلم: «أقصد، أنت كاتبة وفتاة جميلة، وبعض جملك جعلتني أقف متجمدة، وهذا شيء لا يُفترض بالجملة الجيدة أن تفعله، لكن أياً يكن الأمر بإمكانك أن تكتبي بشكل رائع وأظن أنك تستطيعين كتابة أي شيء. إذاً كيف سيكون الوضع؟ رواية أدبية أم رواية

شعبية؟».

سأل بروس وهو يبدو مستمتعاً تماماً بالمحادثة: «ألا يمكن الجمع بين النوعين؟».

أجابت ميرا: «هذا يصح بالنسبة إلى بعض الكُتاب، لكنّ بالنسبة إلى الغالبية العظمى الجواب هو لا». نظرت إلى ميرسر وقالت: «هذا شيء كنا نتجادل فيه طوال عشر سنوات تقريباً، منذ اليوم الأول الذي التقينا فيه. لكن أياً يكن الأمر، دعينا نفترض أنك ربما لن تتمكني من كتابة رواية أدبية تروق للنقاد وتحصد عوائد مالية كبيرة. وبالمناسبة، ليس ثمة حسد هنا. أنا لم أعد أكتب ولذا فإنّ حياتي المهنية قد انتهت. لست متأكدة مما تفعله ليه هذه الأيام لكنها بالتأكيد لا تنشر أي شيء».

«كفى يا ميرا».

«إذاً نستطيع أن نقول إنّ حياتها المهنية قد انتهت أيضاً، ونحن لا نهتم. نحن كبيرتان في السن ولدينا كثير من النقود، لذا ليس هناك منافسة. أنت شابة وموهوبة وسيكون مستقبلك باهراً إن عرفت ماذا يجب أن تكتبي. هذه هي المداخلة. نحن هنا للمساعدة فقط. بالمناسبة، طبق الريسوتو هذا شهى يا نويل».

سألت ميرسر: «هل يُفترض بي أن أرد؟».

«كلا، هذه مداخلة. من المُفترض أن تجلسي هناك وتستمعي إلينا بينما نجلد بأسننتنا. بروس، ابدأ أولاً. ماذا يجب على ميرسر أن تكتب؟».

«سأبدأ بسؤالك ماذا تقرنين؟».

قالت ميرسر وهي تضحك: «كل شيء إلا ما يكتبه راندي زالينسكي».

قالت ميرا: «المسكين طريح الفراش يعاني من الشقيقة ونحن نستغيبه».

قالت ليه بهدوء: «ليرحمه الله».

سأل بروس: «ما هي الروايات الثلاث الأخيرة التي قرأتها؟».

أخذت ميرسر رشفة من كأسها ثم فكرت للحظة وقالت: «لقد أحببت رواية العندليب ل-كيرستين هانا، وأعتقد أنها حققت مبيعات جيدة».

وافقها بروس فقال: «بالفعل حققت مبيعات جيدة. هناك نسخ ذات غلاف ورقي منها ولا تزال تُباع».

قالت ميرا: «لقد أحببتها، لكنك لا تستطيعين تأليف كتب حية عن الهولوكوست. إضافة إلى ذلك يا ميرسر، ما الذي تعرفينه عن الهولوكوست؟».

«لم أقل إنني أريد الكتابة عنها. لقد ألفت عشرين كتاباً، وجميعها مختلفة».

قالت ميرا: «لست متأكدة من أنها تُصنّف كرواية أدبية».

سألت ليه وهي تكشر عن أسنانها: «هل أنتِ واثقة من أنك ستميزين الرواية إذا رأيتها؟».

«هل هذه ضربة تحت الحزام يا ليه؟».

«نعم».

استعاد بروس السيطرة على الوضع بقوله: «أياً يكن الأمر، ماذا بشأن الروايتين الأخريين؟».

«بكرة الخيط الأزرق لأن تايلر، واحدة من الروايات المفضلة لدي، ورواية

لاروز للويس فريديش».

قال بروس: «جميعهن إناث».

«نعم، نادراً ما أقرأ كتباً ألفها رجال».

«هذا مثير للاهتمام بما أنّ 70 بالمائة من كل الروايات تشتريها النساء».

سألت نويل: «والكتب الثلاثة كلها حققت مبيعات، صحيح؟».

أجاب بروس: «نعم، إنهن يؤلفن كتباً عظيمة تحقق مبيعات جيدة».

قالت ميرسر: «هذه هي الخطة».

نظر بروس إلى ميرا وقال: «حسناً، سمعتن بأنفسكن. تدخل ناجح».

سألت ميرا: «ليس بهذه السرعة. ماذا بشأن الروايات الإثارة والجريمة؟».

أجابت ميرسر: «لا تناسبني. فأنا لستُ مخادعة كفاية كي أضع دلائل ثم

أجمعها لاحقاً».

«التشويق؟ القصص المثيرة؟».

«ليس تماماً. لا أستطيع كتابة حبات معقدة».

«جواسيس وعمليات جاسوسية؟».

«أنا فتاة من نواح عدة».

«رعب؟».

«هل تمزحين؟ أنا أخاف من ظلي».

«قصص الحب؟».

«لا أعرف جوهر الموضوع».

«قصص إباحية؟».

«أنا لا أزال عذراء».

أضاف بروس: «لم تعد القصص الإباحية تحقق مبيعات. يمكنك الحصول على كل ما تريد مجاناً من الإنترنت».

أطلقت ميرا زفيراً بشكل دراماتيكي وقالت: «كانت تلك أياماً مجيدة. تمكنا أنا ووليه قبل عشرين سنة من جعل الصفحات تنتفض. قصص خيالية؟ خيال علمي؟».

«لم ألمس هذه الأشياء أبداً».

«قصص عن الغرب الأمريكي؟».

«أنا أخاف الأحصنة».

«المكائد السياسية؟».

«أنا أخاف السياسيين».

«حسناً، هذا يفي بالغرض. يبدو أنه من المقدر لك أن تكتبي روايات تاريخية عن عائلات فاشلة. ابدئي العمل الآن. نحن نتوقع بعض التقدم من الآن فصاعداً».

قالت ميرسر: «سأبدأ منذ الصباح الباكر، وشكراً لك».

أجابت ميرا: «لا عليك، وبما أننا في موضوع المداخلات، هل رأى أحداً منكم آندي آدم؟ سبب سؤالي هو أنني صادفتُ طليقته في البقالية قبل بضعة أيام وبدأ أنها تعتقد أنه ليس بخير تماماً».

قال بروس: «دعينا نقل فقط إنه ليس صاحياً هذه الأيام».

«هل من شيء بإمكاننا القيام به للمساعدة؟».

«لا شيء على ما أعتقد. آندي الآن ثمل وحسب، وإلى حين يقرر أن يصحو، لن يكون أكثر من سكران. ربما يخفّض ناشره آخر مستحقّاته وهذا سيعني مشاكل أكثر. أنا قلق عليه».

راقبت ميرسر كأس نبيذ بروس. قالت إيلين عدة مرات إنه يشرب كثيراً، لكنّ ميرسر لم ترَ هذا. ففي حفل عشاء ميرا وليه والآن هذه الليلة مرة أخرى، يرتشف كأس نبيذه، ويُبَطِّئ في إعادة ملئه، وكان في أفضل حال.

بمخرج آندي من الطريق، تحدّثت ميرا بعجالة عن حياة أصدقائهم الآخرين. كان بوب كوب في قارب شراعي حول جزيرة أروبا. وجاي آر كليرود في كندا يقضي بعض الوقت منعزلاً في شاليه لأحد أصدقائه. وآمي سلايتر مشغولة مع الأولاد، أحدهم يلعب كرة قاعدة للصغار. ازداد بروس هدوءاً بشكل ملحوظ. كان حريصاً على سماع الشائعات لكنه لم يكرر أي منها.

بدأت نويل متحمسة لابتعادها عن حر فلوريدا لمدة شهر. الطقس في بروفينس حار أيضاً، لكن ليس بتلك الرطوبة كما قالت. بعد العشاء، طلبت من ميرسر مرة أخرى أن ترافقها إلى هناك، ربما ليس لمدة شهر، بل ربما لأسبوع أو نحوه. شكرتها ميرسر لكنها قالت إنها بحاجة إلى أن تعمل على الرواية. ذلك، بالإضافة إلى أنها كانت تقتصد بالمصاريف من أجل الحصول على طاولة الكاتب.

قالت نويل: «إنها لك يا عزيزتي، أحتفظ بها لأجلك».

عند الساعة التاسعة، غادرت ميرا وليه وذهبتا إلى المنزل مشياً. ساعدت ميرسر نويل وبروس في المطبخ وتمكنت من القول وداعاً قبل العاشرة. عندما

غادرت، كان بروس يحتسي القهوة في غرفة المعيشة ويقرأ كتاباً بانتباه شديد.

8

بعد مرور يومين، ذهبت ميرسر إلى وسط المدينة وتناولت الغداء في مقهى صغير ذي فناء مُظلل. فيما بعد، تجولت في ماين ستريت ولاحظت أنّ متجر نويل مغلق. ثمة لافتة مكتوبة بخط اليد على الباب تقول إنّ المالك في فرنسا من أجل شراء الأنتيكات. كانت طاولة الكاتب معروضة في الواجهة الأمامية لغرفة خالية تقريباً. ذهبت إلى المتجر المجاور وألقت التحية على بروس ثم صعدت إلى الطابق الثاني ومنه إلى المقهى حيث طلبت لاتييه وأخذته إلى الشرفة الخارجية التي تبرز فوق الشارع الثالث. وكما هو مُتوقّع، انضم إليها سريعاً.

سأل: «ما الذي أتى بك إلى وسط المدينة؟».

«الملل. يوم آخر غير مثمر على الآلة الكاتبة».

«اعتقدتُ أنّ ميرا شفت عقدة الكتابة لديك».

«أتمنى لو أنّ الأمر بهذه السهولة. هل لديك بضع دقائق لنتكلم؟».

ابتسم بروس وقال بالطبع. نظر حواليه وانتبه لوجود ثنائي في طاولة قريبة، قريب جداً لإجراء محادثة جدية فقال: «دعينا ننزل إلى الأسفل». لحقت به إلى الأسفل إلى غرفة الطبقات الأولى ثم أغلق الباب خلفهما. قال بابتسامة حاتية: «لا بدّ وأنّ هذا خطير».

قالت: «إنه دقيق نوعاً ما». أخبرته عن كتب تيسا القديمة، تلك التي «استعارتها» من مكتبة ممفيس العامة عام 1985. لقد تمرّنت على الحكاية عشرات المرات وبدأت حقيقةً مرتبكة بشأن ما يجب فعله. لم تتفاجأ من

استمتاعه بالقصة وأنه مهتم بشأن الكتب. برأيه، لا حاجة للاتصال بالمكتبة في ممفيس. بالتأكيد، تحب المكتبة أن تسترجع الكتب، لكن خسارتها قد شُطبت منذ عقود. بالإضافة إلى ذلك، ليس للمكتبة أي تقدير لقيمتها الحقيقية. قال: «ربما سوف يعيدونها إلى الرفوف للشخص التالي الذي سوف يسرقها. صدقيني، لا شيء جيد قد يحدث لهذه الكتب. يجب حمايتها».

«لكنها ليست لي حقاً كي أبيعها، صحيح؟».

ابتسم وهزّ كتفيه وكأنها كانت تفاصيل ثانوية ليست بذي أهمية ثم قال: «ما هو المثل القديم؟ الامتلاك هو تسعة أعشار القانون. لديك الكتب منذ أكثر من عشر سنوات. أقول إنها ملكك».

«لست أدري. لا يبدو الأمر صحيحاً لسبب ما».

«هل الكتب بحالة جيدة؟».

«تبدو كذلك. لستُ خبيرة. لقد اعتنيتُ بها. في الحقيقة نادراً ما ألمسها».

«هل بإمكانك رؤيتها؟».

«لستُ أدري. هذه هي الخطوة الأولى وحسب. في حال أريتك الكتب، حينئذٍ سوف نقترّب من عقد صفقة».

«دعيني أراها على الأقل».

«لستُ أدري. هل لديك العناوين في مجموعتك؟».

«نعم، لدي كل كتب جايمس لي بيركس وكل كتب كورماك».

نظرت ميرسر إلى الرفوف وكأنها تبحث عن الكتب فقال: «ليست موجودة هنا، إنها مع الكتب النادرة في الأسفل. فالهواء المالح والرطوبة قاتلة للكتب،

ولذا أحتفظ بالكتب القيّمة في سرداب، حيث درجة الحرارة مضبوطة. هل تودين رؤيتها؟».

تمكنت ميرسر من القول بشكل عادي: «ربما في وقت آخر». في الحقيقة كانت لا مبالية بشكل رائع ثم أضافت: «هل لديك فكرة عن قيمة هذين الكتابين، أنت تعلم، أرقام تقريبية؟».

أجاب بسرعة وكأنه يتوقع السؤال: «بالتأكيد». انسحب إلى وراء كومبيوتر مكتبي وضرب بعض الأزرار ثم تفحص الشاشة وأضاف: «اشتريتُ النسخة الأولى من كتاب المُدان في العام 1988 لقاء 2500 دولار، لذا ربما ثمنه أكثر من ضعف هذه القيمة. كل هذا يعتمد على حالة الكتاب، وهذا لن أعرفه إلا حين أراه. اشتريتُ نسخة أخرى في العام 2003 لقاء 3500 دولار». تابع بالبحث. لم تتمكن ميرسر من رؤية الشاشة لكنها بدت مثقلة بمجموعة واسعة. ثم أضاف: «لدي نسخة من Meridian Blood، اشتريتها من سمسار صديق في سان فرانسيسكو منذ عشر سنوات تقريباً. تسع سنوات كي أكون دقيقاً، ودفعتُ – دعينا نرَ – ألفي دولار ثمناً لها لكن هناك تشقّقاً طفيفاً في غلافها وقديمة بعض الشيء. ليست بهيئة جيدة».

قالت في نفسها، حسناً، اشترى غلافاً مزوراً، بما أنها أصبحت تعرف الآن الكثير بشأن هذه التجارة. بدلاً من ذلك، تمكنت من أن تظهر مُتفاجئة بشكل ممتع فقالت: «هل أنت جاد؟ هل هي بتلك القيمة؟».

«لا تشكّي بي يا ميرسر، هذا هو الجزء المُفضّل لدي في العمل. أجنبي عبر تجارة الكتب النادرة مالاً أكثر من بيع الكتب الجديدة. آسف إذا كان ذلك يبدو نوعاً من التفاخر، لكني أحب هذه الأشياء. إذا كنت ترغبين ببيع الكتب سأكون

سعيداً بتقديم المساعدة».

«الباركود الخاص بالمكتبة مطبوع على غلافها الورقي. ألن يؤثر ذلك على قيمتها؟».

«ليس تماماً. يمكن أن تُزال وأنا أعرف كل المرممين في هذا المجال من العمل».

وربما كل مُزوّراً. سألت: «كيف يمكنني أن أريك الكتب؟».

«ضعيها في كيس وأحضريها إلى هنا». توقف والتفت ليكون مواجهاً لها ثم قال: «أو الأفضل حتى، أن آتي إليك في الشاليه. أود رؤية المكان. لقد كنتُ أمر بالقرب منه لسنوات طويلة ولطالما اعتقدتُ أنها واحدة من أجمل الشاليهات الموجودة على الشاطئ».

«أنا لا أرغب حقيقةً في تحويلها إلى بضائع مسروقة».

9

طالت فترة الظهيرة وفي مرحلة ما لم تستطع ميرسر مقاومة إغراء الاتصال بإيلين لإبلاغها بآخر المستجدات. كانت خطتهما تتقدّم بأسرع مما تخيلاه، وبدا بروس الآن مستعداً للانقضاض على الكتب. وحقيقة أنه سيأتي إلى الشاليه كانت أروع من أن تُصدّق، على الأقل بالنسبة لإيلين.

سألت: «أين نويل؟».

«ذهبت إلى فرنسا على ما أظن من أجل التسوق. ومتجرها مغلق لفترة غير محدودة».

قالت إيلين: «رائع». لقد علمتُ أنّ نويل سافرت بالطائرة البارحة من مطار

جاسونفيل إلى أتلانتا، حيث صعدت على متن إحدى رحلات الخطوط الجوية الفرنسية الساعة 6:10 مساءً مباشرةً إلى باريس. وصلت إلى مطار أورلي الساعة 7:20 في موعدها المحدد، ثم أخذت طائرة عند الساعة 10:40 صباحاً إلى آفينيون. تبعها رجلهم المكلف بمراقبتها هناك إلى شقتها في رودالجير في القسم القديم من المدينة.

عندما وصل بروس إلى الشاليه بعد دقائق قليلة من الساعة السادسة، كانت نويل تتناول عشاءً متأخراً مع سيد فرنسي وسيم في مطعم لافورشيت، وهو مطعم صغير مشهور في شارع رو راسين.

كانت ميرسر تسترق النظر من خلال الستائر التي تغطي النافذة الأمامية عندما وصل بروس إلى الشاليه. كان يقود سيارته البورش المكشوفة، تلك التي رأتها مركونة بجانب منزل مارشبانكس، وهو يرتدي بنطالاً كاكياً قصيراً وقميص جولف. إنه بعمر الثالثة والأربعين، ذو بنية رياضية، نحيل، أسمر البشرة، ورغم أنها لم تكن قد سمعته بعد وهو يكشف عن التفاصيل العادية المملة لأي نظام تمرين، لكن من الواضح أنه يحافظ على شكله. لقد عرفت بعد حفلاتي عشاء طويلتين أنه يأكل قليلاً ويشرب باعتدال. وكذلك الأمر بالنسبة إلى نويل. الطعام الجيد مهم بالنسبة إليهما، فهما يستهلكانه بمقادير ضئيلة.

كان يحمل معه زجاجة شمبانيا، وهي دليل على أنه شخص لا يضيع الوقت. غادرت زوجته/شريكته في اليوم السابق وهو سلفاً يتحرك باتجاه أحدث فرصة بالنسبة إليه. أو هكذا اعتقدت.

قابلته ميرسر على الباب وعرفته على المكان. وضعت الكتابين على طاولة الفطور التي تحاول أن تكتب روايتها عليها. قالت: «أظن أننا سنشرب

الشمبانيا».

«إنها هدية ترحيب وحسب، ربما لوقت آخر».

«سأضعها في الثلاجة».

جلس بروس بجانب الطاولة وحدّق إلى الكتابين كأنه مفتون بهما فقال:

«هل تأذنين لي؟».

أجابت بضحكة: «بالطبع. إنها مجرد كتب مكتبة قديمة، صحيح؟».

«كلا ليست كذلك». أمسك بكتاب المُدان بلطف وداعبه كأنه يتعامل مع مجوهرات نادرة. ودون أن يفتحه، قام بتفحص الغلاف الورقي من الأمام والخلف ومن الأطراف. لمس الغلاف وقال كأنه يُتمتم بين نفسه: «غلاف الإصدار الأول، لامع وبحروف غير باهتة، ليس هناك تشققات أو شوائب في أي مكان». فتح ببطء على صفحة حقوق الطبع ثم أضاف: «نسخة جميلة جداً. أنا مُنبهَر. هل قرأتها؟».

«كلا، لكني قرأتُ بعض روايات الجرائم الغامضة لبيرك».

«اعتقدتُ أنك تفضلين الكاتبات».

«أنا أفضلهن، لكن ليس بصورة حصرية. هل تعرفه؟».

«أوه، نعم. لقد أتى إلى المتجر مرتين. رجل رائع».

«ولديك اثنان من هذه، طبعت أولى؟».

«نعم، لكني أبحث عن المزيد دائماً».

«ما الذي سوف تفعله إذا اشتريتها؟».

«هل هي للبيع؟».

«ربما. لا فكرة لديّ بأنّ هذين الكتابين قيّمان».

«سأعرض عليك خمسة آلاف لهذا الكتاب، وعندها سوف أحاول بيعه بضعف هذا المبلغ. لديّ عدد من الزبائن، جامعي كتب جديين، وبإمكاني التفكير باثنين أو ثلاثة يودون إضافته إلى مجموعاتهم. سوف نساوم لبضعة أسابيع. ربما أخفض السعر وربما يرفعونه، لكنني سوف أتمسك بسعر سبعة آلاف. وإذا لم أتمكن من الحصول على ذلك المبلغ سوف أقفل عليها في القبو لمدة خمس سنوات. الطبقات الأولى استثمار رائع لأنهم لا يستطيعون طباعة المزيد منها بعد».

كررت ميرسر قوله بذهول: «خمسة آلاف دولار».

«على الفور».

«هل أستطيع المساومة على مبلغ أكبر؟».

«بالتأكيد، لكن ستة آلاف هي حدي الأعلى».

«ولا أحد سوف يعرف أبداً من أين أنت؟ أقصد، أنهم لا يستطيعون اقتفاء

أثرها وصولاً إليّ وإلى تيسا؟».

ضحك بروس من ذاك السؤال وقال: «بالطبع لا. هذا عالمي يا ميرسر، وأنا

ألعب هذه اللعبة منذ عشرين عاماً. لقد اختفت هذه الكتب منذ عقود ولا أحد

سوف يشك بشيء. سوف أسلمها لعملائي على انفراد وسيكون الجميع

سعداء».

«ليس هناك سجلات؟».

«أين؟ من بإمكانه مواكبة كل الطبقات الأولى في البلاد؟ لا تترك الكتب آثراً يا ميرسر. يُمرّر الكثير منها مثل المجوهرات، لا يُفصح عنها دائماً، إذا كنت تعلمين ما أعنيه».

«كلا لا أعلم».

«من خارج التركات».

«أوه، فهمت. هل يمكن أن تكون مسروقة ويُعاد بيعها؟».

«هذا يحدث. سوف أرفض أي كتاب إذا كان مصدره غير موثوق تماماً، لكن من المستحيل النظر إلى كتاب والقول إنه مسروق. خذي المُدان مثلاً. كانت طبعته الأولى قليلة، ومع مرور الوقت اختفى معظمها، وعندما يحدث هذا الشيء تُصبح الكتب المتبقية ذات الحالة الجيدة أعلى قيمة. لكن لا يزال هناك الكثير منه في السوق وهي نسخ متشابهة، أو على الأقل كانت كذلك عندما خرجت من المطبعة. انتقل العديد منها من جامع كتب إلى آخر. أعتقد أنّ القليل منها قد سُرق».

«هل يمكنني أن أكون فضولية وأسأل ما هي الطبعة الأولى الأكثر قيمة بالنسبة لك؟».

ابتسم بروس وصمت للحظة ثم قال: «أنت لست فضوليه، لكن دعينا نكون متكتمين. لقد اشتريت قبل عدة سنوات نسخة أصلية من رواية الحارس في حقل الشوفان لقاء خمسين ألفاً. من النادر أن يوقع ساليانجر على تحفته، لكنه أعطى تلك النسخة إلى ناشره الذي أبقاها في عائلته لسنوات، غير ملموسة عملياً بحالة رائعة».

«كيف وجدتها؟ أنا آسفة، لكن هذا مُذهل».

«هناك شائعات منذ سنوات حول الكتاب، ربما أججتها عائلة الناشر التي طمعت بالحصول على مبلغ كبير. لقد تتبعت أثر أحد أبناء أخيه، وطرثُ إلى كليفلاند وتعقبت الرجل ثم ضايقته إلى أن باع الكتاب لي. لم يكن موجوداً في السوق أبداً، وبقدر ما أعرف، لا أحد يعرف أنه لديّ».

«وما الذي سوف تفعله به؟».

«لا شيء. أملكه فقط».

«من رآه؟».

«نويل، وبعض الأصدقاء. سأكون سعيداً لأن أريك إياه إضافةً إلى بقية المجموعة».

«أحب ذلك. بالعودة إلى العمل. دعنا نتكلم عن كورماك».

ابتسم بروس وأمسك برواية Meridian Blood ثم قال: «هل قرأتها؟».

«لقد حاولت. إنه عنيف جداً».

«أجد أنه من المُستغرب بعض الشيء أن يكون شخص مثل تيسا معجباً بكورماك مكارثي».

«كانت تقرأ طوال الوقت، ما دامت الكتب تأتي من المكتبة».

تفحص الغلاف الورقي وقال: «ثمة بعض التشققات هنا في الزاوية، ربما بسبب القدم، وهناك بعض البهتان. الغلاف بحالة جيدة إجمالاً». فتح الكتاب وتفحص الأوراق من الداخل، قلب إلى صفحة العنوان وحقوق الطباعة وقرأها باهتمام. قلب المزيد من الصفحات ببطء كي يقرأ النص. قال بلطف: «أحب هذا الكتاب، إنه الخامس لمكارثي وأول رواية له عن الغرب الأمريكي».

قالت: «لقد قرأت حوالي خمسين صفحة منه. العنف واضح وشنيع». قال بروس وهو لا يزال يُقلّب الصفحات: «بالفعل إنه كذلك». أغلق الكتاب بلطف وقال: «نسخة لأبأس بها كما نقول في المهنة. أفضل من التي لدي». «وأنت كم دفعت ثمناً لها؟».

«ألفان، قبل تسعة أعوام. سأعرض أربعة آلاف لقاء هذه النسخة وربما قد أحتفظ بها في مجموعتي وحسب. أربعة آلاف هي الحد الأعلى». «هذا يعني عشرة آلاف لقاء الكتابين. لم يكن لدي فكرة أنّهما يساويان هذه القيمة».

«أنا أعرف ماذا أفعل يا ميرسر. عشرة آلاف هي صفقة جيدة بالنسبة لك ولي أيضاً. هل تريدان البيع؟».

«لستُ أدري. أحتاج للتفكير بشأن ذلك».

«حسناً. لن أضغط عليك، لكن اسمحي لي أن أضع الكتابين في سردابي إلى أن تقرري. وكما قلت، الهواء المالح قاس جداً».

«بالتأكيد. خذ الكتابين. أمهلني يومين وسوف أحزم أمري».

«خذني وقتك. ليس هناك من عجلة. والآن، بشأن الشمبانيا».

«نعم بالطبع. لقد اقترب الوقت من الساعة السابعة».

قال بروس وهو يقف ويمسك بالكتابين: «لدي فكرة، دعينا نشربها على الشاطئ ونذهب في جولة. أنا لا أحظى بالكثير من الوقت، ليس في هذا العمل. أنا أحب المحيط ولا أحظى حتى بروئيتي معظم الأوقات».

قالت ببعض من التردد: «حسناً». ليس هناك أفضل من جولة رومانسية

بين الأمواج مع رجل يدّعي أنه متزوج. أخذت ميرسر صندوقاً كرتونياً صغيراً عن الطاولة وأعطته إياه. وضع الكتابين فيه بينما أخرجت الشمبانيا من الثلاجة.

10

استغرقت الجولة مشياً على الأقدام إلى فندق الريتز والعودة منه ساعة، وعندما عادا إلى الشاليه كان الظلام قد خيم على الكثبان الرملية. كان كأساهما فارغين ولم تتوان ميرسر في ملئهما مجدداً، فما كان من بروس إلا أن جلس على أحد الكراسي الهزازة وجلست إلى جانبه.

تحدثا عن عائلته: الموت المفاجئ لوالده، والميراث الذي أدى لشراء متجر الكتب، وأمه التي لم يرها خلال ثلاثين عاماً تقريباً، وأخته البعيدة، لا علاقات مع العمات والخالات والأعمام والأخوال والأقرباء الآخرين، الأجداد رحلوا منذ زمن طويل. كانت ميرسر تجاربه قصة بقصة، ثم حدثته عن مأساة المرض العقلي لأمها ووجودها في المستشفى. هذا شيء لم تخبر به أحداً من قبل، لكن كان من السهل التحدث مع بروس والثقة به. وبما أنّ كليهما مجروح من تحطم عائلتيهما غير العاديتين، كانا على أرضية مشتركة وشعرا بالراحة لتبادل الذكريات والتحدث بشأنها. كلما كشفنا عن أحوالهما ضحكا أكثر.

وبينما هما يشربان كأس الشمبانيا الثانية قال بروس: «أنا أخالف ميرا، يجب عليك أن لا تكتبي عن العائلات. لقد فعلت ذلك مرة، وبشكل رائع، لكن مرة واحدة تكفي».

«لا تقلق. ربما ميرا هي آخر شخص قد أتلقى النصيحة منه».

«لكن ألا تحبينها وهي بهذا الجنون؟».

«كلا، ليس بعد، لكني ازددتُ ولعاً بها. هل حقاً تملك الكثير من المال؟».

«من يعلم؟ تبدو هي وليه مرتاحتين تماماً. لقد كتبنا مئات الكتب معاً، وبالمناسبة كانت ليه أكثر انخراطاً بالروايات الرومانسي مما تعترف به. لا تزال بعض كتبهما تحقق مبيعات».

«لا بدّ وأنها جميلة».

«من الصعب الكتابة وأنت مفلسة يا ميرسر، أعرف ذلك. أعرف الكثير من الكُتّاب والنذر اليسير منهم يبيع بما يكفي كي يكتبوا طوال الوقت».

«ولذلك يقومون بالتدريس. يجدون مدرسة في مكان ما ويحصلون على راتب ثابت. لقد فعلت ذلك مرتين وربما سوف أفعلها مرة أخرى. إما ذلك أو أبيع العقار».

«لا أظن أنّ هذا خيار بالنسبة إليك».

«هل لديك أفكار أخرى؟».

«في الحقيقة لدي فكرة عظيمة. امئني كأسي وسوف أخبرك قصة طويلة».

أخرجت ميرسر الشمبانيا من الثلاجة وأفرغت الزجاجاة. أخذ بروس جرعة كبيرة من كأسه ثم قال: «بإمكاني شرب الشمبانيا على الفطور».

«وأنا أيضاً، لكنّ القهوة أرخص بكثير».

«كان لديّ صديقة في إحدى المرات، قبل وقت طويل من نويل. اسمها تاليا، فتاة حلوة ورائعة وموهوبة ومجنونة بحق. تواعدنا بشكل متقطع مدة عامين، كانت فترات اللقاء أقل من الانقطاع لأنها أصبحت تفقد اتصالها بالواقع رويداً رويداً. لم أستطع مساعدتها وكان من المؤلم مراقبتها وهي تنهار. لكن بإمكانها

أن تكتب، فقد عملت على رواية فيها إمكانية هائلة. كانت قصة مُتخيَّلة عن تشارلز ديكنز وعشيقته، ممثلة شابة اسمها إيلين تيرنان. كان ديكنز متزوجاً منذ عشرين عاماً من كاثرين، وهي امرأة صارمة بحق بالمفهوم الفيكتوري. أنجبت عشرة أطفال، وبالرغم من الجاذبية الجسدية الواضحة إلا أن الزواج لم يكن سعيداً على الإطلاق. عندما بلغ الخامسة والأربعين، وربما كان الرجل الأكثر شهرة في إنكلترا، التقى بإيلين، التي كانت فنانة طموحة بعمر الثامنة عشرة. وقعا في الحب بجنون، وهو هجر زوجته وأطفاله، رغم أن الطلاق كان مستحيلاً في تلك الأيام. لم يكن واضحاً أبداً فيما إذا عاش هو وإيلين معاً في الواقع، حتى أن هناك إشاعة قوية للغاية تفيد بأنها حملت بطفل مات أثناء الولادة. ومهما كانت التدابير، فقد تمكنا من الاختباء والتستر بشكل جيد. لكن، في رواية تاليا، كان يقومان بعلاقة محرّمة بالكامل، روتها إيلين ولم تُنشر أي تفاصيل عنها.

تعقدت الرواية عندما قدّمت تاليا علاقة مشهورة أخرى، واحدة بين ويليام فولكنر وميتا كاربينتر. التقاها فولكنر عندما كان في هوليوود يُقدّم سيناريوهات لقاء دولار واحد، وجميع الدلائل تشير إلى أنهما واقعان في الحب. وهذا تمّ تخيُّله أيضاً وعُمل بشكل جيد جداً. ولجعل الرواية عندها أكثر تعقيداً حتى، قدّمت تاليا علاقة عاطفية أخرى بين كاتب مشهور وصديقه. كان هناك قصة، قصة لم يُتحقق منها وربما ليست حقيقية، وهي أن إرنست هيمينجواي كان له علاقة حب سريعة مع زيلدا فيتزجيرالد عندما كانا يعيشان في باريس. كما تعلمين، غالباً ما تقف الحقائق عائناً أمام القصة الجيدة، ولذا اختلقت تاليا حقائقها الخاصة وكتبت أحداثاً عن علاقة كبيرة بين إيرنست وزيلدا تحدث من دون علم ف. سكوت. هناك ثلاث علاقات حب أدبية مثيرة

تحدث من خلال ثلاثة فصول مختلفة، وكان هذا كثيراً جداً بالنسبة لكتاب واحد.
«هل تركتك تقرأه».

«معظمه. بقيت تغير القصص وتعيد كتابة كامل الفصول، وكلما كتبت أكثر أصبح الكتاب أكثر تشويشاً. طلبت نصيحة، فقدمتها لها، وكانت دائماً تفعل العكس. كانت مهووسة بالكتاب وظلت تكتب مدة سنتين دون توقف. عندما تخطت المخطوطة الألف صفحة توقفت عن القراءة. كنا نتشاجر كثيراً في ذلك الوقت».

«ما الذي حدث للكتاب؟».

«قالت تاليا إنها أحرقته. وفي أحد الأيام فقدت عقلها وقالت إنها أتلفته نهائياً وإنها لن تكتب كلمة أخرى مرة ثانية. بعد مضي يومين تناولت جرعة زائدة من المخدرات في السافانا حيث كانت تعيش في ذلك الوقت».

«هذا فظيع».

«عمرها سبعة وعشرون عاماً وأكثر موهبة من كل من رأيتهم في حياتي. بعد شهر أو نحوه من جنازتها، كتبت لأمها وسألتها بلطف بالغ عما إذا تركت تاليا وراءها أي شيء. لم أسمع كلمة منها أبداً، كما لم تُذكر الرواية أبداً. أنا مقتنع بأنها أحرقتها، ثم قتلت نفسها».

«كم هذا مريع».

«كان مأساوياً».

«لم يكن لديك نسخة؟».

«أوه لا. كانت تجلب المخطوطة إلى هنا لبضعة أيام وتجعلني أقرأها بينما

تعمل. كانت متوهمة من سرقة أحدهم لتحفتها وتحفظها قريبة منها. المسكينة متوهمة من كثير من الأشياء. وفي النهاية تخلت عن أدويتها وبدأت تسمع أصواتاً ولم يكن من شيء أستطيع أفعله. بصراحة، كنتُ أحاول تجنبها في ذلك الوقت».

فكّرا بالمأساة لدقيقة أو نحوها من الوقت وهما يحتسيان الشمبانيا ببطء. كانت الشمس قد غابت وأصبحت الشرفة مظلمة. لم يذكر أي منهما العشاء، لكنّ ميرسر كانت جاهزة لتقول لا. لقد أمضيا الكثير من الوقت معاً بالنسبة ليوم واحد.

قالت: «تلك قصة رائعة».

«أي واحدة؟ ديكنز أم فولكنر أم زيلدا أو تاليا؟ هناك الكثير منها في الكتاب».

«وأنت تعطيني إياها؟».

ابتسم بروس وهزّ كتفيه ثم قال: «أقبلها أو ارفضها».

«وقصص ديكنز وفولكنر صحيحة أليس كذلك؟».

«نعم. لكن الأفضل هي قصة زيلدا وهيمينجواي. إنها قصة باريس في العشرينات من القرن العشرين، الجيل الضائع، كل ذلك التاريخ والخلفية المبهجة. بالتأكيد كانا يعرفان بعضهما. فهيمينجواي وأف. سكوت كانا صديقين ورفيقي شرب والأمريكيون كلهم يحتفلون معاً. كان هيمينجواي دائماً يتصيد النساء – تزوج من أربع نساء – ولديه جانب خفي. يمكن للقصة أن تكون شهوانية جداً إذا وقعت في أيِّ صحيحة إلى درجة أنّه حتى ميرا سوف توافق عليها».

«لا يسعني إلا أن أتمنى».

«لست واثقاً من الرواية التاريخية. هل هي تاريخ أم خيال؟ يبدو لسبب ما أنه من غير النزيه العبث بحياة أشخاص حقيقيين وجعلهم يقومون بأشياء لم يقوموا بها فعلاً. بالتأكيد هم موتى، لكن هل هذا يعطي الكتاب الحق بتخيّل حياتهم؟ وخصوصاً أمورهم الخاصة؟».

«هذا يحصل دائماً، ويحقق مبيعات».

«ربما، لكن لا أظن أن هذا مناسب لي».

«هل قرأت لهم؟ فولكنر وهيمينجواي وفيتزجيرالد؟».

«إذا اضطررت فقط».

«أنا أيضاً». ابتلع ما في كأسه ثم وضعه على الطاولة التي بينهما وقال: «أفضل أن أذهب. لقد استمتعتُ بالنزهة».

قالت: «شكراً على الشمبانيا، سأرشدك إلى الخارج».

قال: «أستطيع إيجاد الباب»، وبينما كان يمشي وراءها قبلها بلطف على قمة رأسها وأضاف: «أراك».

«ليلة سعيدة».

في الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي، كانت ميرسر تجلس بجانب طاولة الفطور تُحدّق في المحيط متجاهلةً الكومبيوتر المحمول، مستغرقة في حلم يقظة بخصوص شيء لم تستطيع وصف لو أنها سُئلت عنه، حين جفّلت من رنة هاتفها المحمول. كانت نويل تتصل من فرنسا التي يفرق توقيتها ست

ساعات. سلّمت على ميرسر بكلمة «بونجور» حارة واعتذرت لإزعاجها في وقت إبداعها لكنها أرادت الاطمئنان قبل ضياع النهار منها. قالت إنّ رجلاً اسمه جايك سوف يكون في متجرها في اليوم التالي وربما يلتقي ميرسر. جايك، الدهان ومرمم الأعمال الفنية المُفضّل لديها كان يزورها من قِـت لآخر. سوف يقوم بإصلاح خزانة ملابس خشبية في الورشة الموجودة في القبو وسوف تكون فرصة رائعة لميرسر كي تناقش معه طلاء طاولة الكاتب. سيكون المتجر مغلقاً ومقفلاً لكنّ جايك يملك مفتاحاً. شكرتها ميرسر ثم تحدثا لبضع دقائق عن أشياء في فرنسا.

ما إن قالت وداعاً، اتصلت ميرسر بإيلين شيلبي التي كانت في واشنطن. بالأمس كانت قد أرسلت إليها بريداً الإلكترونياً مفصلاً. لذا، كانت ملّمة بكافة التفاصيل، فقد بدا أنّ ميرسر ستري القبوين في اليوم نفسه.

ظهِراً، اتصلت ببروس، وأخبرته أنها قبلت عرضه بخصوص الكتابين، وأنها ستقابل جايك في الغد وستمر بمتجره كي تأخذ الشيك، وأعلمته أيضاً أنها متشوقة لرؤية نسخته من رواية الحارس في حقل الشوفان.

فعبر عن سروره بما يسمع، وعرض عليها تناول طعام الغداء معاً. فقبلت من دون تردد.

في وقت متأخر من ذلك المساء، وصلت إيلين وفريقها. وفي التاسعة من صباح اليوم التالي، تنزهت ميرسر على الشاطئ، وتوقفت أمام الممر الخشبي المؤدي إلى الشقة التي تقيم فيها إيلين، التي كانت تجلس على الدرج مع كوب من القهوة وتداعب الرمال بأصابع قدميها. كالعادة صافحتها بقوة وقالت لها:

«أحسنَتِ صنيعاً».

قالت ميرسر: «لننتظر ونر».

بعدها، دخلتا الشقة حيث كان ينتظرهما في المطبخ كل من جراهام وريك جالسين إلى طاولة المطبخ مع قهوتها وإلى جانبها صندوق كبير. علمت ميرسر لاحقاً أنه يحتوي أدوات عملها: ميكروفونات وأجهزة تنصت وإرسال وكاميرات صغيرة جداً لدرجة أنها تساءلت كيف يمكنها التقاط أي صورة. بدأ بإخراج الأجهزة المتنوعة ومناقشة مزايا وعيوب وإمكانيات كل واحد منها.

بين لحظة وأخرى انتظرت ميرسر أن تسألها إيلين إن كانت مستعدة لأن تضع إحدى هذه الكاميرات على ثيابها، وقد أزعجتها الفكرة، فانقبضت معدتها بينما كان الرجلان يواصلان شرح مزايا معداتها قالت سألت: «هل هذا قانوني؟ أنت تعلمين، تصوير أشخاص دون إذنهم؟».

أجابتها إيلين بحزم وقد غابت عن شفيتها تلك الابتسامة الواثقة التي لا تفارقها: «كلا إنه ليس قانونياً. لا تكوني سخيفة. لا يعدو الأمر كونه التقاط صورة لشخص في العلن. الإذن غير مطلوب».

هنا تدخل ريك وهو الأكبر سناً بين الاثنين وقال: «لا يمكنك تسجيل محادثة تليفونية من دون إذن، لكن الحكومة لم تُمرّر بعد قانوناً يمنع المراقبة بالكاميرا».

أضاف جراهام: «يمكن تصوير أي شيء وأي مكان سوى داخل المساكن، انظري فقط إلى كل كاميرات المراقبة التي تراقب الأبنية والأرصفت ومواقف السيارات. لا يحتاجون لإذن من أجل تصوير أي شخص».

قالت إيلين التي كانت المسؤولة والأعلى رتبةً من الرجلين: «يعجبني هذ

الوشاح ذو المشبك الحلقي الشكل. دعينا نجربه». بدا الوشاح مليئاً بالألوان الممتزجة مع بعضها ومرتفع الثمن. طوته ميرسر ثلاثة طيات ووضعته حول عنقها. أعطاهام ريك المشبك الحلقي، وهو عبارة عن مشبك ذهبي فيه أحجار كريمة مقلدة.

قال: «سنضع الكاميرا هنا تماماً وستكون مخفية عملياً».

سألت ميرسر: «ما حجم الكاميرا؟».

رفعها جراهام للأعلى، إنها صغيرة للغاية، أصغر من حبة زبيب. سألت: «هل هذه كاميرا؟».

«عالية الدقة. سنريك. أعطني المشبك الحلقي». نزعت ميرسر المشبك وأعطته إياه. وضع وجراهام نظارتي تكبير كتلك المستخدمة في العمليات الجراحية وبدأ العمل.

سألت إيلين: «هل تعرفين أين ستذهبين لتناول الغداء؟».

«كلا، لم يقل لي. سألتقي بجايك في متجر نويل عند الساعة الحادية عشرة، ثم أذهب للمتجر المجاور وأرى بروس. سيكون الغداء في وقت لاحق، لكني لا أعرف أين. كيف يُفترض بي أن أستخدم هذا الشيء؟».

«أنت لن تفعلي شيئاً، تصرفي بشكل طبيعي فقط. سيشغل ريك وجراهام الكاميرا عن بعد. س يكونان في فان قرب المتجر. ليس هناك صوت، الكاميرا صغيرة جداً، لذا اهتمي بما يُقال. ليس لدينا فكرة عما يوجد داخل القبوين لذا حاولي حفظ كل شيء في ذاكرتك. ابحثي عن أبواب أو شبابيك أو كاميرات أخرى».

أضاف ريك: «وابحثي عن الحساسات الأمنية على الأبواب المؤدية إلى

القبو. نحن شبه متأكدين أن ما من أبواب تفضي إلى الخارج. يبدو أن القبوين موجودان تحت سطح الأرض ولا وجود لسلالم في الخارج تقود إلى الأسفل».

قالت إيلين: «هذه أول نظرة لنا وربما تكون الوحيدة. كل شيء مهم. خذي بعين الاعتبار أننا نبحث عن المخطوطات، وأكداس الأوراق الأكبر من الكتب المطبوعة».

«أنا على دراية بالمخطوطات».

«بالطبع أنت كذلك. ابحثي عن دروج وخزائن، وعن أي مكان يمكن أن توضع فيه».

سألت ميرسر بعصبية بعض الشيء: «ماذا لو رأى الكاميرا؟».

زفر الرجلان. وقالت إيلين: «لن يرها، من المستحيل أن يكتشف أمرها».

أعاد ريك المشبك الحلقي لها، فأدخلت ميرسر طرفي الوشاح فيه مرة أخرى.

قال جراهام وهو يضغط بعض أزرار كمبيوتره المحمول: «سأشغلها».

قال ريك: «لو سمحت، هلاً وقفتِ ودُرتِ حول نفسك ببطء؟».

«بالتأكيد». بينما هي تفعل ذلك، كانت إيلين والرجلان يحدقان إلى شاشة

الكمبيوتر المحمول. قالت إيلين وكأنها تخاطب نفسها: «رائع جداً، ألقى نظرة يا ميرسر».

نظرت ميرسر إلى الشاشة وهي تقف بجانب الطاولة أمام الباب الرئيسي،

كانت متفاجئة من وضوح الصورة. الأريكة والتلفزيون والكرسي ذو المساند

وحتى السجادة التي أمامها، كلها ظاهرة بغاية الوضوح. قالت: «كل ذلك من

هذه الكاميرا الصغيرة».

قالت إيلين: «إنها مهمة سهلة للغاية يا ميرسر».

«في الحقيقة لا ينسجم هذا الوشاح مع أي شيء لدي».

سألت إيلين وهي تمد يدها إلى أحد الأكياس: «إذاً ماذا سترتدين؟».

أخرجت نصف دزينة من الأوشحة.

أجابت ميرسر: «ثوب صيفي قصير أحمر اللون على ما أعتقد. لا شيء مميز».

13

فتح جايك الباب الرئيسي وأقفله بعد دخولها. قدّم نفسه وقال إنه يعرف نويل منذ سنوات. بدا شخصاً نشيطاً ومن خلال ملمس يديه القاسيتين تأكدت أنه أمضى عمره يستخدم المطارق والأدوات. كان فظاً وأوضح أنّ طاولة الكاتب موجودة في القبو مسبقاً. تبعته إلى الأسفل، محاولة تذكير نفسها أنّ كل شيء أمامها يجري تصويره وتحليله. نزلت عشر درجات ويدها على الدرايزين ومنه إلى صالة مستطيلة فوضوية بدت بطول المتجر الذي تعرف تماماً أنه بعرض 42 قدماً وعمق 165 قدماً، مثل متجر الكتب المجاور. كان السقف منخفضاً، لا يتجاوز ارتفاعه الثمانية أقدام أما الأرضيات فمن الباطون. إلى جانب الجدر اصطفت كل أنواع المفروشات التي يمكن تخيلها، المحطمة وغير المكتملة. استعرضت ميرسر ما حولها بلا مبالاة، وجالت ببطء في كل الاتجاهات. قالت: «إذاً هنا تحتفظ بالأشياء الجيدة». لكن لم يكن لدى جايك حس الفكاهة. كان القبو مُضاء بشكل جيد وكانت هنا غرفة في نهاية القبو. الأكثر أهمية، هو وجود باب في الجدار بين الغرفة والقبو المجاور، ذلك القبو حيث

إيلين شيلبي وشركتها الغامضة يراهنون أنّ السيد كابل يخبئ كنزه. الجدار قديم ويبدو واضحاً أنه طلي أكثر من مرة، وهو الآن مطلي باللون الرمادي الداكن، لكنّ الباب أحدث بكثير. كان معدنياً وصلباً وهناك حساسان أمنيان في زاويته العلويتين.

علم فريق إيلين أنّ المتجرين متماثلين عملياً في العرض والطول والارتفاع والمخطط. كانا جزءاً من المبنى نفسه الذي بُني قبل مائة عام وقد قُسم إلى قسمين عندما افتُتح متجر الكتب عام 1940.

سعد ريك وجراهام الجالسان في الفان في الشارع المقابل بجانب كومبيوتراتهما المحمولة، عند رؤيتهما للباب الذي يصل القبوين ببعضهما. وإيلين الجالسة على كنبه في الشقة، كان لها رد الفعل نفسه. انطلقى يا ميرسر!

وجدت ميرسر طاولة الكاتب في وسط الغرفة، وهناك جرائد تحتها، أخذت تتفحصها بعناية وكأنها ملكية فازت بها وليست مجرد بيدق في لعبتهم. أخرج جايك لوحاً فيه ألوان طلاء وتكلما عن العديد منها، بدت ميرسر هادئة وصعبة الإرضاء تماماً. أخيراً، استقرت على لون أزرق فاتح سيطي جايك طبقة رقيقة منه كي يُعطي انطباعاً عن شيء قديم وحزين. لم يكن يمتلك ذلك اللون في شاحنته. لذا، قد يستغرق الأمر عدة أيام لإيجاده.

عظيم. بإمكانها العودة دائماً بزيارة أخرى كي تراقب تقدّمه في العمل. ومن يعرف؟ ربما يضع ريك وجراهام في المرة القادمة الكاميرا في قرطبيها.

سألت عن وجود حمام في الأسفل، فأوماً جايك برأسه نحو الخلف. أخذت وقتها في إيجاده واستخدامه، قبل أن تقفل عائدة إلى حيث كان يصقل أعلى

طاولة الكاتب بورق السنفرة. وقفت مباشرةً أمام الباب المعدني لأخذ أفضل لقطة فيديو له، لكن ربما هناك كاميرا مخفية تراقبها، صحيح؟ تراجعت متأثرةً بوعيتها لحالتها وخبرتها المتزايدة في ذلك الظرف. ربما تصلح لتكون جاسوسة جيدة لاحقاً.

تركت جايك بجانب الباب الرئيسي، ومشت حول المبنى إلى مطعم صغير حيث طلبت شايًا مثلجاً وجلست بجانب إحدى الطاولات. خلال دقيقة، دخل ريك، ودفع ثمن مشروب غازي. جلس قبالتها مبتسماً ثم قال وكأنه يهمس تقريباً: «عمل رائع».

قالت: «أعتقد أنني مخلوقة لمثل هذا العمل. هل الكاميرا تشتغل الآن؟».

«كلا، لقد أوقفت تشغيلها. سأعيد تشغيلها عندما تدخلين متجر الكتب. لا تفعلي أي شيء مختلف. الكاميرا تعمل بشكل رائع ولقد حصلت لنا على العديد من اللقطات. ما من شيء أكثر روعة بالنسبة إلينا من وجود باب يصل بين القبوين. حاولي الآن أن تقتربي قدر المستطاع من الجانب الآخر».

«هذا ليس صعباً. أفترض أننا سنغادر المتجر ونذهب لتناول الغداء. هل ستترك الكاميرا قيد العمل؟».

«كلا».

«وأنا سوف أجلس مقابل كابل على الطاولة لساعة على الأقل. أستم قلقين أن ينتبه إلى شيء».

«بعد أن تدخلني القبو، اذهبي إلى الحمام، ذلك الموجود فوق في الطابق الأرضي. اخلي الوشاح والمشبك الحلقي وضعيهما في حقيبتك. إذا قال أي شيء، أخبريه أن الوشاح جعلك تشعرين بحرّ شديد».

«هذا أفضل. من الصعب عليّ الاستمتاع بالغداء وأنا أعرف أنني أوجه الكاميرا على وجهه».

«صحيح. اذهبي الآن وسأكون خلفك مباشرة». عند الساعة 11:50 دخلت ميرسر متجر الكتب ورأت بروس يعيد ترتيب المجلات على رف بجانب الواجهة. كانت سترته القطنية اليوم مقلّمة بلون أزرق فاتح. لاحظت ميرسر حتى الآن وجود ستة ألوان مختلفة لستراته وشكّت بوجود المزيد منها. ثمة ربطة عنق على شكل فراشة ذات لون أصفر، وهو ينتعل حذاء مصنوعاً من جلد الغزال المغبر، وكما هي العادة، لا يرتدي جوارب. ابتسم وقبّلها على وجنتيها وقال إنها تبدو رائعة. تبعته إلى غرفة الطبقات الأولى، فأخذ مغلفاً عن مكتبه وقال: «عشرة آلاف دولار ثمن الكتابين اللذين استعارتهما تيساً منذ ثلاثين عاماً. ماذا يمكن لها أن تقول؟».

«ستقول (أين حصتي من الأرباح؟)».

ضحك بروس وقال: «نحن نحصل على الأرباح. لديّ عميلان يرغبان باقتناء كتاب المُدان، ولذا سأساومهما كليهما، سأساومهما وأحصل على ألفين وخمسمائة دولار ببعض الاتصالات الهاتفية».

«بهذه السهولة؟».

«كلا، هذا لا يحدث دائماً، أنا اليوم محظوظ وحسب. ولذلك أحب هذا العمل».

«لدي سؤال. تلك النسخة الأصلية لرواية الحارس في حقل الشوفان التي أخبرتني عنها. في حال قررت بيعها، كم سوف تطلب؟».

«حسناً، بدأت تحبين هذا العمل أيضاً، صحيح؟».

«كلا، على الإطلاق. ليس لديّ قدرة على ممارسة الأعمال التجارية. بدافع الفضول فقط، هذا كل شيء».

«لقد رفضت السنة الماضية عرضاً بقيمة ثمانين ألف دولار. إنه ليس للبيع، ولكن إذا اضطررتُ بطريقة ما لعرضه في السوق سأطلب مائة ألف دولار كبدائية».

«ليست صفقة سيئة».

«قلت إنك تريد رؤيته».

هزّت ميرسر كتفيها وكأنها ليست مبالية ثم قالت بشكل طبيعي: «بالتأكيد، إذا لم تكن مشغولاً جداً». من الواضح أنّ بروس يرغب بالتباهي بكتبه.

«لست مشغولاً أبداً. اتبعيني». انعطفا وراء السُّلم من خلال قسم الأطفال باتجاه القسم الخلفي من المتجر. كانت السلالم المؤدية للأسفل تقع وراء باب مقفل يدلّ مظهره أنه نادراً ما يُستخدم. هناك كاميرا تراقبه من زاوية عالية وحساس أمني يتّصل بأعلاه. فتح بروس القفل المزلاجي بمفتاح وحرك مقبضاً قديماً لم يكن مقفلاً. فتح الباب ثم أضاء أحد الأضواء. قال وهو يبدأ بالنزول: «احذري». نزلت ميرسر بحذر كما قال ثم ضغط على مفتاح آخر أسفل السلالم.

القبو مقسّم إلى قسمين على الأقل. يتضمن القسم الأمامي الأطول، السلالم والباب المعدني المؤدي إلى متجر نويل وفيه صفوف من الرفوف الخشبية القديمة التي تحمل آلافاً من الكتب غير المرغوبة بالإضافة إلى ألواح طباعة ونسخ كتب. قال بروس وهو يشير بذراعه إلى الفوضى العارمة: «هذا يُعرف بالمقبرة. هناك غرفة نفايات في كل متجر». مشياً عدة خطوات نحو القسم الخلفي من القبو وتوقفًا بجانب جدار مصنوع من الخرسانة، من الواضح أنه

أضيف بعد وقت طويل من إنشاء المبنى. كان بارتفاع وعرض امل القبو. يوجد فيه باب معدني آخر بجانبه لوحة أرقام. عندما ضغط بروس الأزرار لإدخال الرمز السري، لاحظت ميرسر وجود كاميرا معلقة على عارضة خشبية قديمة وموجهة نحو الباب. صدر صوت طقطقة وأزيز ثم عبرا الباب وأضاء بروس الأضواء. كان المكان أكثر برودة.

بدأت الغرفة مغلقة تماماً وفيها رفوف على الجدر الخرسانية، أما الأرضية فكانت من الباطون والسقف منخفض مصنوع من المواد الليفية التي لم يكن لميرسر أن تعرف كيف تصفها. لكنها صورتها من أجل الخبراء الذين معها.

خلال هذه الساعة، خمنوا عرض الغرفة وطولها بأربعين قدماً، غرفة فسيحة بطاولة جميلة في الوسط، وسقف بارتفاع ثماني أقدام بفواصل مشدودة، وهذا كله يدل على أن الغرفة محكمة الإغلاق وآمنة ومقاومة للحريق.

قال بروس: «الضوء والحرارة والرطوبة تلحق الضرر بالكتب، لذا يجب التحكم بكل هذه العوامل. لا يوجد هنا رطوبة تقريباً والحرارة دائماً خمس وعشرون درجة مئوية. ولا تصل أشعة الشمس بطبيعة الحال».

الخزائن مصنوعة من معدن قاسٍ ولها أبواب زجاجية تُظهر خلفيات الكتب. هناك ستة رفوف في كل خزانة، كما أن طرفها السفلي مرفوع عن الأرض بمقدار قدمين وأعلىها يرتفع عن رأس ميرسر بمقدار إنشين، ولذا هي بطول ستة أقدام تقريباً كما اعتقدت. سوف يوافقها ريك وجراهام على ذلك.

سألت: «أين هي الطبقات الأولى التي تخص تيسا؟».

مشى نحو نهاية الجدار الخلفي، وأدخل مفتاحاً في لوحة مجاورة للخزائن.

عندما أداره، صدر صوت طقطقة وتمّ تحرير أقفال جميع الأبواب الستة. فتح الرف الثاني من الأعلى وقال: «إنها هنا». أخرج نسختي المُدان و Blood Meridian ثم أضاف: «إنهما بأمن وسلام في منزلهما الجديد».

قالت: «آمن جداً، هذا رائع يا بروس. كم عدد الكتب الموجودة هنا؟».

«بضع مئات، لكن ليست كلها لي». أشار إلى جدار بجانب الباب وقال: «أنا أحفظ تلك للعملاء والأصدقاء. ويوجد هنا القليل برسم الأمانة. لديّ عميل يقوم بمعاملات طلاق وهو يخفي كتبه هناك مباشرةً. ربما سأستدعي للمحكمة، وهذه ليست المرة الأولى. لكني أكذب دائماً كي أحمي عميلي».

سألت وهي تشير إلى خزانة ضخمة وطويلة تتوضع في الزاوية: «وما هذه؟».

«إنها خزنة وهناك أحتفظ بالأشياء الجيدة فعلاً». كتب الرمز السري على لوحة أرقامها – كانت ميرسر حريصة على الإشاحة بنظرها – فتحرر قفل الباب السميكة. فتح بروس الباب. هناك ثلاثة رفوف في الوسط وفي الأعلى، جميعها مليئة بما ظهر أنه خلفيات لكتب، بعضها بعناوين مطبوعة من الذهب. سحب بروس أحد الكتب من الرف الأوسط وسأل: «هل تعرفين المحار؟».

«كلا».

«إنه هذا الصندوق الوقائي المُصمم خصيصاً لكل كتاب. من الواضح أنّ هذه الكتب طُبعت بقياسات مختلفة ولذا تتنوع أحجام المحارات. تعالي إلى هنا».

التفتا وذهبا إلى الطاولة الصغيرة التي في الوسط. وضع المحارة عليها ثم فتحتها وأخرج الكتاب بهدوء. كان غلافه الورقي مُغطى بغطاء شفاف لاصق.

قال: «هذه نسختي الأولى لرواية الحارس في حقل الشوفان ورثتها من أبي قبل عشرين عاماً».

«إذاً لديك نسختين منها؟».

«كلا، لدي أربع نسخ». فتح الصفحة الأخيرة، وأشار إلى تغيير طفيف في اللون ثم قال: «يوجد بعض البهتان هنا وتشقق أو اثنتين على الغلاف، لكنها نسخة شبه جيدة». ترك الكتاب والمحارة على الطاولة وعاد إلى الخزانة. عندما فعل ذلك، التفتت ميرسر باتجاهها كي يتمكن ريك وجراهام من رؤيتها من الأمام بشكل كامل. وفي أسفلها، تحت رفوف الكتب النادرة الثلاثة، يوجد أربعة دروج قابلة للسحب وجميعها مغلقة بإحكام.

إذا كانت المخطوطات بحوزة بروس، إذاً هي موجودة هنا. أو هكذا اعتقدت.

وضع محارة أخرى على الطاولة وقال: «هذه أحدث نسخة لي من الأربع، تلك التي وقّعها ساليانجر». فتح المحارة وسحب الكتاب ثم فتحه على صفحة العنوان وقال: «لا يوجد إشارة ولا تاريخ، يوجد توقيع فقط وهو كما قلت نادر تماماً. كان يرفض التوقيع على كتبه وحسب، أصبح مجنوناً، ألا تظنين ذلك؟».

أجابت ميرسر: «هذا ما يقولونه».

«إنها كتب جميلة». قال وهو لا يزال يداعب الكتاب: «إنها كذلك حقاً. أحياناً عندما أحظى بيوم سيئ، أتسلل إلى هنا، وأغلق الغرفة على نفسي وأسحب الكتب. أحاول تقمص أن يكون المرء ج. د. ساليانجر في العام 1951، عندما صدر هذا الكتاب، إنها روايته الأولى. لقد نشر بعض القصص القصيرة، اثنتين منها في صحيفة نيويورك تايمز، لكنه لم يكن مشهوراً. قام دار ليتل براون

بطباعة عشرة آلاف نسخة منه في البداية، والآن يبيع الكتاب مليون نسخة في العام بخمس وستين لغة. لم يكن لديه أي فكرة عما سيحدث لاحقاً. لقد جعله الكتاب غنياً ومشهوراً، لكنه لم يستطع التعامل مع الشهرة. يعتقد معظم الباحثين أنه انهار نوعاً ما».

«لقد درّست الكتاب قبل سنتين».

«إذا أنت تعرفينه جيداً؟».

«لا يمكنني القول إنه كاتب المفضل. مرة أخرى أقول لك، أنا أفضل الكاتبات، والأفضل هن اللواتي لا يزلن على قيد الحياة».

«وأنت ترغبين برؤية أندر الكتب لدي والتي كتبتها امرأة، سواءً ميتة أو حيّة، صحيح؟».

«بالتأكيد».

عاد إلى الخزانة، بينما كانت ميرسر تقوم بتصوير كل خطوة حتى أنها كانت تتباعد قليلاً للخلف لأخذ صور أمامية واضحة بكاميرتها الصغيرة. وجد كتابه ثم عاد إلى الطاولة. قال: «ما رأيك بكتاب فيرجينيا وولف، غرفة المرء الخاصة؟». فتح المحارة وأخرج الكتاب ثم أضاف: «صدر عام 1929. طبعة أولى لا بأس بها. وجدتها قبل اثني عشر عاماً».

«أحب هذا الكتاب. لقد قرأته في الثانوية وألهمني كي أصبح كاتبة أو على الأقل أحاول أن أكون». «إنه ليس للبيع». أعطاهما الكتاب. فتحتة بلطف وقالت: «كانت شجاعة جداً. جملتها الشهيرة هي (يجب على المرأة أن تحظى بنقود وغرفة شخصية إذا كان يجب عليها أن تكتب رواية)».

«كانت روحاً معذبة».

«لقد انتحرت. لماذا يعاني الكُتّاب إلى هذا الحد يا بروس؟». أغلقت الكتاب وأعادته إليه ثم أضافت: «هذا تصرف مدمر للغاية، حتى الانتحار».

«لا أستطيع فهم الانتحار، لكنني أفهم الشرب والعادات السيئة نوعاً ما. حاول صديقنا آندي توضيح ذلك قبل سنوات. قال إنّ سبب ذلك هو أنّ حياة الكتابة غير منضبطة على الإطلاق. ليس هناك رب عمل ولا مشرف ولا توقيت محدد للعمل. اكتب في الصباح، واكتب في الليل. اشرب عندما تريد. يعتقد آندي أنه يكتب بشكل أفضل وهو ثمل لكنني لستُ واثقاً بشأن ذلك». كان بروس يعيد وضع الكتب في محاراتها. أعادها إلى الخزانة.

سألت بتهور: «ماذا يوجد في الدروج؟».

أجاب دون أي تردد: «مخطوطات قديمة، لكنها ليست ذات قيمة كبيرة، مقارنةً بهذه الكتب. جون د. مكدونالد هو واحد من المفضلين عندي، وخاصةً سلسلته القصصية ترافيس مكجي، وقد تمكنت قبل بضع سنوات من شراء اثنتين من مخطوطاته الأصلية من جامع كتب آخر». كان يغلق الباب وهو يقول ذلك. من الواضح أنّ الدروج منطقة محظورة.

سأل: «هل رأيت ما يكفي؟».

«نعم. هذه مجموعة رائعة يا بروس. إنها عالم آخر لا أعرف عنه شيئاً».

«نادرًا ما أستعرض هذه الكتب. تجارة الكتب النادرة هي عمل هادئ. أنا واثق أنّ أحداً لا يعرف أنني أملك أربع نسخ من رواية الحارس، وأود أن أحافظ على هذا الوضع. ليس هناك سجل ولا أحد ينظر، والعديد من الصفقات تحدث في الليل».

«سرّ في بئر. لا أستطيع التفكير بأي شخص قد أرغب بالبوح إليه».

«لا تسيئي فهمي يا ميرسر. هذا كله شرعي. أنا أبلغ عن الأرباح وأدفع الضرائب وفي حال مت سوف تتضمن وصيتي هذه الممتلكات».

سألت بابتسامة: «جميعها؟».

ابتسم لها وقال: «حسناً، معظمها».

«بالطبع».

«ما رأيك بغداء عمل الآن؟».

«أتصور جوعاً».

14

تناول الفريق الغداء وهو عبارة عن بيتزا جلبوها من المطعم ثم أتبعوها بمشروبات غازية. لم يكن الطعام مهماً في تلك اللحظة. جلس ريك وجراهام وإيلين في الشقة، وراجعوا عشرات الصور الثابتة التي أخذت من فيديوهات ميرسر. هناك ثماني عشرة دقيقة من الفيديوهات المأخوذة من متجر نويل واثنين وعشرين دقيقة من متجر بروس، أربعون دقيقة من الدلائل الثمينة، كانوا متحمسين لحصولهم عليها الآن. درسوها بعناية لكن الأكثر أهمية هو أنها تُحلّل الآن بمختبرهم في بيثيسدا. تمّ إثبات الحقائق، حجم السرداب، وأبعاد الخزانة، وجود كاميرات المراقبة والحساسات الأمنية، الأبواب والأقفال ذات المزلاج، لوحات الدخول الرقمية. بلغ وزن الخزانة ثمانمائة باوند، مصنوعة من الفولاذ عيار أحد عشر، وهي مصنوعة منذ خمس عشرة سنة في مصنع في أوهايو، بيعت عبر الإنترنت وركبها أحد المقاولين من جاكسونفيل. عندما تُقفل، يتم تأمينها بخمسة أقفال بمزلاج مصنوعة من الرصاص تُغلق بأجهزة هيدروليكية. تستطيع تحمّل حرارة حتى 1550 درجة مئوية لمدة ساعتين.

فتحها لن يكون مشكلة، لكنّ التحدي الحقيقي هو فتحها دون إطلاق جرس الإنذار.

أمضوا فترة الظهيرة حول الطاولة بمناقشات طويلة وحادة معظم الوقت، وهم على اتصال مع زملائهم في بيثيسدا عبر مكبرات صوت الهاتف. كانت إيلين المسؤولة لكنها رحّبت بالتعاون. هناك كثير من الآراء قدّمها أناس أذكيا وهي تُصغي. استهلك مكتب التحقيق الفيدرالي معظم وقتهم. هل حان وقت الاتصال بالفيدراليين؟ كي يعرفوهم بالمتهم المفضّل لديهم؟ ويخبروهم كل شيء عرفوه حتى الآن عن بروس كابل؟ لم تكن إيلين تعتقد ذلك، ليس بعد على أية حال. كان منطقتها معقولاً: لم يكن هناك دلائل كافية لإقناع أي محكمة فيدرالية بأنّ كابل لديه مخطوطات مدفونة في قبوه. في الوقت الحالي، وردتهم معلومة من أحد المصادر في بوسطن، فيديو مدته أربعون دقيقة عن المكان، وبعض الصور الثابتة استُخرجت من الفيديو. وبرأي اثنين من المحامين التابعين لهم في واشنطن، لم يكن ذلك كافياً من أجل الحصول على مذكرة تفتيش.

وكالعادة، عندما يدخل الفيدراليون إلى المشهد، يتولون القيادة ويغيرون القوانين. بالنسبة للوقت الراهن، هم لا يعرفون أي شيء عن بروس كابل وليس لديهم فكرة عن جاسوسة إيلين الصغيرة التي مهّدت طريقها إلى الداخل. أرادت إيلين الحفاظ على الوضع على ما هو عليه لأطول فترة ممكنة.

أحد السيناريوهات التي اقترحها ريك لكن ببعض الحماس، دعت إلى افتعال حريق على سبيل التمويه. نُشعل نار صغيرة بعد منتصف الليل في الطابق الأرضي لمتجر الكتب، وبينما تنطلق أجهزة الإنذار وتنفجر شاشات المراقبة الأمنية، ندخل القبو من جانب متجر نويل ونقتحم ونسرق. وماذا إذا لم يكن غاتسبي موجود هناك؟ ماذا إذا كان غاتسبي وأصدقاؤه مخبئين في مكان آخر،

على الجزيرة أو في مكان آخر في البلاد؟ سوف تثور أعصاب كابل إلى درجة أنه سيشتت المخطوطات في أرجاء الكوكب، هذا إذا لم يكن قد فعل ذلك مسبقاً.

رفضت إيلين الخطة بعد وقت قصير من تفوّه ريك بها. الوقت يمر لكنه لم ينفذ بعد، وفتاتهم تقوم بعمل رائع. خلال أقل من أربعة أسابيع كسبت مودة كابل واخرقت دائرته. لقد كسبت ثقته وجلبت لهم هذه – الأربعين دقيقة من الفيديوهات القيمة ومئات الصور الثابتة. كانوا يقتربون من الحل، أو على الأقل يعتقدون ذلك. سيصبرون وينتظرون ماذا يحدث لاحقاً.

تمت الإجابة عن سؤال هام. لقد تجادلوا حول سبب التعصّب الشديد لأحد سماسرة الكتب الموجودين في بلدة صغيرة ويعمل في بناء قديم بشأن نظام المراقبة الأمنية. وبما أنه كان المتهم الرئيس بالنسبة إليهم، كان كل شيء يفعله يُنظر له بكثير من الشك. تلك القلعة الصغيرة في قبوه تُستخدم لحماية غنائم تجارته غير الشرعية، صحيح؟ ليس بالضرورة. هم يعلمون الآن أن هنا كثيراً من الأشياء القيمة هناك. بعد الغداء، أبلغت ميرسر عن وجود حوالي خمسين كتاباً في محارات واقية مصفوفة بشكل مرتب في رفوف الخزانة بالإضافة إلى النسخ الأربع لرواية الحارس في حقل الشوفان وكتاب غرفة المرء الخاصة. السرداب نفسه يحوي عدة مئات من الكتب.

كانت إيلين منخرطة في هذا العمل منذ أكثر من عشرين عاماً وهي مذهولة من مخزون كابل من الكتب. لقد تعاملت مع أصحاب دور الكتب النادرة الموجودة وهي تعرفهم جيداً. عملهم هو البيع والشراء وهم يستخدمون كاتالوجات ومواقع إلكترونية وكل أساليب التسويق من أجل تقوية تجارتهم. كانت مجموعاتهم كبيرة ومُروّجاً لها بشكل جيد. غالباً ما تساءلت هي وفريقها إن كان سمساراً صغيراً مثل كابل يستطيع جمع مليون دولار لقاء مخطوطات

فبتزجبرالد. لكن الآن، تمت الإجابة عن هذا السؤال أيضاً. كان لديه الوسائل.

الفصل السابع فتاة عطلة نهاية الأسبوع

1

كان الدعوة مخصصة للعشاء، عشاء جاف. جاف لأنّ آندي كان مدعواً أيضاً وبروس مُصر على كون الليلة من دون كحول. وجاف أيضاً لأنّ الكاتبة التي تقوم برحلة ترويجية لكتابها، واسمها سالي أرانكا، أقلعت عن الشراب قبل بضع سنوات وتفضل ألا تكون بجواره

أخبر بروس ميرسر على الهاتف أنّ آندي كان على وشك الذهاب إلى مركز معالجة الإدمان مرة أخرى، وأنه يحاول جاهداً البقاء صاحبياً إلى حين ذهابه إلى مركز الحجر. كانت ميرسر متلهفة للمساعدة ووافقت بسعادة على تلك القواعد.

لقد سحرت الأنسة جمهورها البالغ خمسين شخصاً في حفل التوقيع عندما ناقشت عملها، وقرأت مختصراً عن آخر رواياتها. لقد صنعت اسماً لها في قصص الجريمة عبر سلسلة قصصية تقوم على محققة خاصة في سان فرانسيسكو. اطلّعت ميرسر على الكتاب بسرعة خلال فترة بعد الظهر، وبينما

كانت تراقب وتستمع لأداء سالي أدركت أنّ بطلّة الرواية تشبه المؤلّفة كثيراً: في بداية الأربعينات من العمر، تتعافى من الإدمان على الكحول، مطلقة من دون أطفال، حيوية وظريفة، بارعة وقوية، وبالطبع، جذابة للغاية. كانت تنشر مرة في العام وتقوم بجولات ترويجية بشكل مكثف، ودائماً تأتي إلى باي بوكس وعادةً عندما تكون نويل خارج البلدة.

بعد حفل التوقيع، مشى الأربعة في الشارع إلى لو روشيه، وهو مطعم فرنسي صغير له سمعة طيبة. طلب بروس على الفور زجاجتين من المياه الغازية، وأعطى قائمة النبيذ إلى النادلّة. جال آندي بنظره على الطاولات الأخرى، وبدا متلهفاً لخطف كأس من النبيذ، لكن بدلاً من ذلك، أضاف شريحة من الليمون إلى كأس الماء الخاص به وهدأ. كان يتفاوض مع ناشره على آخر عقد له، عقد يعطيه دفعة مقدّمة أقل مما حصل عليه في عقده الأخير. بأسلوبه المميز والساخر روى آندي كيف أنه انتقل من ناشر إلى آخر إلى أن أصبحت كل نيويورك قلقة منه. خلال تناول المقبلات، تحدثت سالي عن الإحباط الذي رافق بداياتها، حيث رفضت روايتها الأولى من قبل عشرات وكلاء الأعمال وعدد أكبر من الناشرين، لكنها ظلت تكتب وتشرب. انهار زواجها الأول، عندما ضبطت زوجها يخونها، عمت الفوضى حياتها. وبعد ذلك، رُفِضت روايتها الثانية والثالثة. لحسن الحظ، تدخل بعض الأصدقاء، وبفضل إرادتها القوية توقفت عن معاقرة الشراب، وتحولت في روايتها الرابعة إلى عالم الجريمة، وابتكرت بطلتها، وفجأةً، بدأ الوكلاء بالاتصال بها. كما عُرضت وبيعت حقوق الرواية لتتحول إلى فيلم، وأصبحت حالتها جيدة وهي تتقدم إلى الأمام. الآن، وبعد ثماني روايات، ترسّخت السلسلة وأصبحت شهيرة.

رغم أنها سردت قصة نجاحها بتواضع، إلا أنّ ميرسر لم تستطع تجنب

الشعور بوخزة من الحسد. فقد كانت سالي تكتب كل الوقت، اختفت الوظائف ذات المردود القليل والقروض التي أخذتها من أهلها، وكانت تصدر رواية كل سنة، بدا كل ذلك سهلاً للغاية. بإمكان ميرسر الاعتراف أنّ كل كاتب التقت به يحمل نزعة وضيعة من الحسد، كانت تلك طبيعة هذه السلالة.

أثناء تناول الأطباق الرئيسية تحول الحديث عن الشراب، واعترف آندي أنه يواجه مشاكل. أبدت سالي تعاطفها، وبدأت متماسكة وناصحة. لقد أقلعت عن معاقرة الشراب منذ سبع سنوات، وهذا ما أنقذ حياتها ومهنتها، شكرها آندي على اندفاعها لدعمه ونصحه، أما ميرسر فشعرت وكأنها تحضر اجتماع مجموعة دعم للمقلعين عن معاقرة الشراب.

بدا بروس معجباً جداً بالآنسة أرانكا، ومع مرور الوقت أدركت ميرسر أنها تحظى باهتمام أقل منها. قالت ميرسر في نفسها، لا تكوني سخيّة، إنهما يعرفان بعضهما منذ سنوات. لكن ما إن أدركت ذلك لم تستطع التغاضي عنه، وأصبح الأمر جلياً بالنسبة إليها على الأقل. لقد لمس بروس سالي عدة مرات، بعض التربيّات الحنونة على الكتف بيده التي طال بقاؤها هناك.

بعد العشاء، لم يتناولوا الحلوى، بل غادروا بعد أن دفع بروس الفاتورة، وبينما هم يمشون في الشارع الرئيسي قال إنه يريد الذهاب إلى متجر الكتب ليتفقد الحارس الليلي. رافقته سالي، وتمنى الجميع ليلة سعيدة، ووعدت سالي أن تبقى على تواصل معهم عبر الإيميل. وبينما كانت ميرسر تبتعد، قال آندي: «مهلاً، هل لديك وقت لتناول الشراب؟».

توقفت ميرسر وقالت: «كلا يا آندي، هذه ليست فكرة جيدة. ليس بعد العشاء».

«حسناً، قهوة، وليس شراباً كحولياً».

كانت الساعة قد تخطت التاسعة بقليل، ولم يكن لدى ميرسر شيء لتقوم به في الشاليه. ربما قد يساعده تناول القهوة معه. عبرا الشارع، ودخلا أحد المقاهي الخالية، أعلمتهما النادلة أن المقهى سيُغلق في غضون ثلاثين دقيقة، فطلبا كوبين من القهوة الخالية من الكافيين، وجلسا إلى إحدى الطاولات في الهواء الطلق. كان متجر الكتب في الجهة المقابلة من الشارع. بعد بضع دقائق، رأت بروس وسالي يغادران ويخفتان متجهين صوب منزل مارشبانكس.

قال آندي: «ستمضي الليلة في منزله، كثيرون من الكتاب يفعلون الأمر عينه».

سألت ميرسر: «ماذا بشأن نويل؟».

«هناك أشخاص مفضلون لدى بروس، ولنويل أشخاصها المفضلون. ثمة غرفة دائرية في أعلى البرج تُعرف باسم غرفة الكاتب. يحصل فيها الكثير من النشاطات».

بالرغم من أنها فهمت ما يقصد إلا أنها قالت: «لست واثقة من أنني أفهم».

«لديهما زواج مفتوح يا ميرسر، والخيانة مقبولة، وربما يُشجّع عليها حتى. أعتقد أنهما يحببان بعضهما لكن ليس لديهما قواعد».

«أستغرب هذا».

«لكنهما لا يستغربانه، يبدوان سعيدين».

أخيراً، يتم التحقق من بعض شائعات إيلين.

قال: «أحد أسباب قضاء نويل وقتاً طويلاً في فرنسا هو أنّ لديها صديقاً حميماً هناك منذ فترة طويلة. أظن أنه متزوج أيضاً.»

«أوه لمّ لا. بالطبع هو كذلك.»

«وأنتِ لم يسبق لك أن تزوجتِ أبداً، صحيح؟»

«صحيح.»

«حسناً، جربت الزواج مرتين، ولست متأكداً أنني أستطيع التشجيع عليه. هل تواعدين أحداً؟»

«كلا. لقد رحل آخر صديق لي منذ سنة.»

«هل التقيتِ بأحد مثير للاهتمام هنا؟»

«بالتأكيد. أنت وبروس ونويل وميرا ولية وبوب كوب. يوجد كثير من الأشخاص المهمين هنا.»

«هل من شخص تودين مواعده؟»

كان أكبر منها بخمسة عشر عاماً على الأقل، مدمناً على الشراب، مشاكساً في الحانات ويحمل ندوباً تثبت ذلك. رجلاً شرساً لا يهتم بشيء. قالت: «هل تحاول مواعدي يا أندي؟»

«كلا. كنتُ أفكر بتناول العشاء معك في وقت ما.»

«ألسَتِ ذاهباً إلى، كيف تقولها ميرا، مركز المعالجة من الإدمان؟»

«بعد ثلاثة أيام، وأنا أحاول جاهداً أن أبقى من دون شراب حتى ذلك الحين. ليس الأمر بالسهل. في الواقع، أنا أحتسي هذه القهوة الفاترة الخالية من الكافيين، وأحاول الادعاء أنها كأس مزدوجة من الفودكا مع الثلج. أكاد أتذوق

طعمها. وأنا أضيع الوقت لأنني لا أريد الذهاب إلى المنزل رغم أنه لا يوجد نقطة شراب هناك. سأمر بمتجري كحول وأنا في طريقي للمنزل، لا يزالان مفتوحان، وسأضطر لبذل جهد كبير كي لا أركن سيارتي أمام أي منهما». كان صوته يتلاشى.

«أنا آسفة يا أندي».

«لا داعي للأسف، لا تدعي نفسك فريسة أمر كهذا، إنه مريع».

«أتمنى لو أنني أستطيع المساعدة».

«تستطيعين. ادعي لي، اتفقنا؟ أكره أن أكون بهذا الضعف». وقف فجأة، وكأنه يريد التخلص من القهوة والمحادثة، وبدأ يمشي. حاولت ميرسر قول شيء لكنها لم تجد الكلمات المناسبة، راقبته إلى أن اختفى عند الناصية.

كانت الشوارع هادئة، متجر الكتب والحلويات وحدهما لا يزالان مفتوحين بالإضافة إلى المقهى. كانت سيارتها مركونة في الشارع الثالث، ولسبب ما تجاوزتها، واستمرت بالمشي إلى أن مرّت بمنزل مارشبانكس. كانت غرفة الكاتب أعلى البرج مضاعة، مشت بتؤدة، فلاحظت أن الأنوار قد أطفئت وكأن ذلك حصل لأن أحداً شاهدها هناك.

اعترفت أنها كانت فضولية، لكن هل يمكن الاعتراف بنوع من الغيرة؟

2

بعد مُضي خمسة أسابيع في الشاليه، حان الوقت للابتعاد لعدة أيام. كانت كوني وزوجها وفتاتان مراهقتان في طريقهم لتمضية عطلتهم السنوية التي تمتد لأسبوعين على الشاطئ. دعت كوني ميرسر بأدب، ويكاد يكون من باب الواجب الانضمام إليهم لكن لم يكن ذلك ممكناً. علمت ميرسر أنّ الفتاتين لن

تقوما بشيء سوى التحديق إلى هاتفيهما طوال اليوم، ولن يتحدث زوجها سوى عن متجر اللبن المُجمّد الذي يملكه. رغم أنه كان متواضعاً بشأن نجاحه إلا أنه يعمل من دون توقف. تعلم ميرسر أنه سيستيقظ عند الساعة الخامسة كل صباح، ليحتسي القهوة بينما يرسل إيميلاته، ويتفقد الشحنات وما إلى ذلك، وربما لن يتسنى له الوقت لتبليل قدميه بمياه المحيط. على سبيل الدعابة ذكرت كوني أنه لم يسبق لزوجها أن أمضى معهم كامل الأسبوعين، فدائماً هناك أمور تستدعي عودته المسرعة إلى ناشفيل كي ينقذ عمله.

ستكون الكتابة مستحيلة، رغم أنه بالسرعة التي تكتب فيها لن تتأخر أبداً.

لم تكن الأختان متقاربتين لأسباب عدة ليس أقلها فارق السن، فكوني تكبر ميرسر بتسع سنوات كما أنهما عاشتا طفولتيهما بشكل مستقل تقريباً بسبب تواجد أمهما في المصحة وانشغال أبيهما بنفسه. لقد غادرت كوني المنزل في عمر الثامنة عشرة إلى الكلية في جامعة سانت مارتين ولم تعد أبداً. أمضت صيفاً واحداً مع تيسا وميرسر، لكن في ذلك الوقت كانت مولعة بالفتيان وضجرة من المشي على الشاطئ ومراقبة السلاحف والقراءة المتواصلة، وغادرت عندما ضبطتها تيسا وهي تدخن الماريجوانا.

الأختان تتراسلان الآن مرة في الأسبوع عبر البريد الإلكتروني، وتحدثان هاتفياً مرة في الشهر، وتبقيان الأمور متفائلة ومقبولة. في بعض الأحيان، كانت ميرسر تزور كوني عندما تكون قريبة من ناشفيل. ولكن لم يحدث أن زارتها في المنزل نفسه مرتين، فدائماً ما كانت عائلة كوني تنتقل إلى بيوت أكبر وفي أحياء أكثر جمالاً. كانوا يلاحقون شيئاً ما، حلماً غامضاً، ولطالما تساءلت ميرسر أين سيكونون عندما يجدون هذا الشيء. كلما جنوا نقوداً أكثر، كلما ازداد إنفاقهم، وميرسر التي تعيش في حالة بانسة، تعجبت من

استهلاكهم.

ثمة حدث لم يُناقش أبداً، وبشكل أساسي لأنه لن يؤدي إلى شيء سوى الضغينة. فكوني حظيت بالدراسة لأربع سنوات في كلية خاصة دون اقتراض فلس واحد من صندوق القرض الطلابي، بفضل والدهما، هيربرت، وعمله في بيع سيارات فورد. لكن في الوقت الذي التحقت فيه ميرسر في جامعة سيواني كان والدهما قد بدأ يتجه نحو الإفلاس. لقد استاءت من حظ أختها لسنوات طويلة، ولم يكن من اللائق تذكيرها أنها لم تعرض يوماً مساعدة أختها بفلس واحد. الآن، وقد سدد القرض الطلابي بقدرة قادر، كانت ميرسر مصممة على تجاوز استيائها. لكن ربما يكون ذلك أحد التحديات، حيث منازل كوني تزداد كبراً كل سنة بينما ميرسر لم تكن متأكدة أين ستنام بعد بضعة شهور.

في الحقيقة، لم تُرد ميرسر أن تُمضي الوقت مع أختها. كانتا تعيشان في عالمين مختلفين وتزدادان بعداً عن بعضهما. لذا، شكرت أختها على الدعوة للإقامة مع عائلتها، وعندما رفضت ميرسر الدعوة شعرت الأختان بالارتياح. قالت إنها ربما تغادر الجزيرة لبضعة أيام، فهي تحتاج إلى استراحة وما إلى ذلك، ربما تذهب لرؤية أحد الأصدقاء. حجزت لها إيلين جناحاً صغيراً في أحد الفنادق على الشاطئ التي تقدّم المبيت والإفطار على بعد ميلين شمال الشاليه، لأنه ميرسر لم يكن لها مخططات للذهاب إلى أي مكان. كانت الخطوة التالية هي خطوة كابل، ولم يكن بإمكانها تحمّل البعد عن الجزيرة.

يوم الجمعة، الرابع من تموز، نظفت ميرسر الشاليه ثم حشت حقيبتين قماشيتين بملابسها وأدوات التجميل وبعض الكتب، وبينما كانت تستعد للخروج فُكّرت في تيسا وكم كانت هي، ميرسر، قريبة خلال الأسابيع الخمسة الماضية. لقد بقيت بعيدة عن المكان لأحد عشر عاماً، وعادت بخوف كبير، لكنها تمكنت

في وقت قصير من أن تضع جانباً شناعة موت تيسا والعيش على الذكريات العزيزة على قلبها. كانت مغادرة الآن، والسبب وجيه، لكنها ستعود بعد أسبوعين، وستبقى، ولكن لكم من الوقت، يبدو أنّ أحداً لا يعرف تماماً. هذا يعتمد على السيد كابل.

قادت سيارتها لخمس دقائق في شارع فيرناندو إلى الفندق الذي يقدم المبيت والفقور، ويُدعى نُزل المنارة. ثمة منارة في وسط الفناء، تتذكرها بشكل جيد من أيام طفولتها. كان النُزل عبارة عن مبنى من طراز كايب كود فيه عشرين غرفة للإيجار وبوفيه مفتوح للفقور. كانت حشود المصطافين تتدفق على الجزيرة. وقد علق النُزل لافتة «لا يوجد شاغر».

بوجود غرفة خاصة بها وبعض النقود في جيبها، ربما تستقر وتكتب قليلاً.

3

في وقت متأخر من صبيحة يوم السبت، عندما كان الشارع الرئيسي يزدحم بباعة السوق الأسبوعية والأرصفة تحتشد بالمصطافين الباحثين عن الحلوى والآيس كريم وربما عن طاولة لتناول الغداء، دخل ديني متجر باي بوكس للمرة الثالثة خلال أسبوع واحد، واستعرض قسم الروايات البوليسية. وبقبعته المموّهة وبنطاله القصير وقميصه الممزق، عبر بسهولة كواحد من الزوار ذوي اللباس الرديء الذين لا يلفتون انتباه أحد إليهم. كان هو ورووكر في البلدة منذ أسبوع، يستكشفان النقاط المهمة ويراقبان كابل. ففي حال لم يكن كابل في متجره، يكون في مكان ما وسط المدينة يتناول الغداء أو يقوم بجولات لتنفيذ مهام محددة، أو يكون في منزله الجميل، لوحده في العادة. لكنها كانا حريصين، لأنّ كابل يحب الشعور بالأمان. فمنزله ومتجره متخمان بالكاميرات والحساسات ومن يعلم بأي شيء آخر. أي حركة خاطئة يمكن أن تكون كارثية.

كانا ينتظران ويراقبان، يذكران نفسيهما بأن يكونا صبورين، لكن صبرهما كاد ينفد. فأخذ المعلومات عن طريق التعذيب من جويل ريبكوف، بالإضافة إلى تهديد أوسكار ستاين في بوسطن، كان عملاً سهلاً مقارنةً بما يواجهانه الآن. العنف الذي نجح من قبل ربما لن يوتي أكله بشكل جيد الآن. في ذلك الوقت كانا بحاجة لاسمين فقط. الآن يريدان البضاعة. الاعتداء على كابل أو زوجته أو شخص يهتم له يمكن بسهولة أن يؤدي إلى رد فعل يخرب كل شيء.

4

يوم الثلاثاء، 5 تموز، غادرت الحشود، وخلا الشاطئ مجدداً. استيقظت البلدة ببطء تحت شمس متوهجة محاولة التخلص من مخلفات عطلة نهاية أسبوع طويلة. كانت ميرسر تجلس على أريكة ضيقة تقرأ كتاباً بعنوان الزوجة الباريسية، عندما وصلها بريد إلكتروني. إنه من بروس ويقول فيه: «تعالى إلى المتجر عندما تزورين البلدة في المرة القادمة».

ردت عليه: «حسناً. هل هناك شيء؟».

«دائماً. لدي شيء لك. هدية صغيرة».

«أشعر بالملل. سأكون هناك خلال ساعة أو نحوها».

عندما وصلت كان المتجر خالياً، أومأت موظفة الاستقبال برأسها، لكنها بدت شديدة النعاس لتتكلم. صعدت السلالم إلى الطابق الثاني، وطلبت لاتييه، ثم وجدت صحيفة. بعد دقائق، سمعت وقع خطى تصعد السلالم، وعرفت أنه بروس. إنه يرتدي بذلة قطنية ومقلّمة باللون الأصفر، ويضع ربطة عنق صغيرة على شكل فراشة بلون أخضر وأزرق، إنه أنيق دائماً، جلب قهوة، وخرجا إلى الشرفة التي تبرز فوق رصيف الشارع الثالث، لم يكن هناك أحد

سواهما. جلسا إلى طاولة في الظل تحت مروحة سقفيه، واحتسيا القهوة. سلمها بروس هديته، من الواضح أنها كتاب ملفوف بورقة المتجر البيضاء والزرقاء. مرّقت ميرسر الورقة ونظرت إليه. نادي الحظ المبهج لآيمي تان. قال: «إنه طبعة أولى وموقع، لقد ذكرتها كواحدة من الكاتبات المعاصرات المفضلات لديك، لذا اقتفيت أثرها».

عجزت ميرسر عن الكلام. لم يكن لديها فكرة عن ثمن الكتاب، ولم تكن على وشك أن تسأل، لكنه طبعة أولى قيّمة. قالت: «لا أعلم ماذا أقول يا بروس».

«(شكراً) دائماً تنفع».

«تبدو غير مناسبة. لا أستطيع أن أقبله حقيقةً».

«تأخرت كثيراً، لقد اشتريته وقدمته لك. سمّه هدية ترحيب بك في الجزيرة».

«إذاً شكراً، على ما أظن».

«على الرحب والسعة. كانت الطبعة الأولى ثلاثين ألف نسخة. لذا، هذا الكتاب ليس نادراً جداً. لقد بيع منه نصف مليون نسخة بغلاف ورقي مؤخرًا».

«هل زارت آيمي متجرك؟».

«كلا. لا تقوم بالكثير من الجولات الترويجية».

«هذا لا يُصدّق يا بروس. لم يكن يجدر بك فعل هذا».

«لكني فعلت، والآن بدأت مجموعتك».

ضحكت ميرسر، ووضعت الكتاب على الطاولة ثم قالت: «أنا لا أحلم تماماً

بجمع الطبقات الأولى. إنها غالية قليلاً بالنسبة إليّ».

«حسناً، أنا لم أكن أحلم بأن أكون جامعاً للكتب أيضاً. لقد حدث الأمر وحسب». نظر إلى ساعته وسأل: «هل أنت في عجلة من أمرك؟».

«أنا كاتبة ليس لها موعد نهائي».

«جيد. أنا لم أرو هذه القصة منذ سنوات عديدة، لكن هكذا بدأت مجموعتي». أخذ رشفة من كوبه، وأسند ظهره على كرسيه، ووضع كاحله على ركبته، وأخبرها قصة اكتشاف الكتب النادرة لوالده المتوفي وإخفاء بعضها لنفسه.

5

تطور الأمر من شرب القهوة إلى دعوة لتناول الغداء، فمشيا إلى مطعم بجوار المرفأ، وجلسا في الداخل حيث كان الهواء أكثر برودة. وكعادته في غداءات العمل، طلب بروس زجاجة نبيذ، كانت زجاجة اليوم تشابليز، وافقت ميرسر، وطلبا سلطة ولا شيء آخر. تحدث عن نويل، قال إنها تتصل يوميا، وإنّ البحث عن الأنتيكات يجري بشكل جيد.

فكرت ميرسر أن تسأله عن حال صديقها الفرنسي. مرة أخرى، وجدت الأمر صعب التصديق بأن يكونا بهذا الانفتاح بعلاقتهما. ربما ليس الأمر غريباً في فرنسا، لكنّ ميرسر لم تعرف ثنائياً يرغب بالتشارك إلى هذا الحد أبداً. بالتأكيد تعرف أشخاصاً يخونون، لكن عندما يُمسك بهم، يحدث كل شيء ماعدا القبول. من ناحية، كانت معجبة تقريبا بقدرتهما على تبادل الحب بما يكفي للسماح للآخر بأن يبتعد متى شاء، لكن من ناحية أخرى تريد باحتشامها الجنوبي أن تحكم عليهما بسبب فسادهما.

قالت مغيرة الموضوع: «لدي سؤال. في كتاب تاليا، وبالتحديد في قصة زيلدا فيتزجيرالد وهيمينجواي، كيف بدأت؟ ما كان مشهدها الافتتاحي؟».

ابتسم بروس بينما كان يمسح فمه بمنديله ثم قال: «حسناً، حسناً. أخيراً، هناك تقدم. هل أنت جادة بشأن القصة؟».

«ربما. لقد قرأت كتابين عن عائلة فيتزجيرالد وعائلة هيمينجواي في باريس وطلبتُ مزيداً منها».

«طلبتُ؟».

«نعم من موقع أمازون. آسفة. إنها أرخص بكثير، أنت تعلم؟».

«سمعت ذلك. اطلبي مني وسأقدم لك حسماً 30 بالمائة».

«لكني أحب أن أقرأ الكتب الإلكترونية أيضاً».

«الجيل الشاب». ابتسم وارتشف من كأسه وقال: «دعيني أفكر. لقد مرّ وقت طويل، اثنا عشر عاماً، وربما ثلاثة عشر عاماً. كما أنّ تاليا أعادت كتابة الرواية مرات عديدة وغالباً ما كنتُ مشوشاً».

«من خلال كل ما قرأت حتى الآن، كانت زيلدا تكره هيمينجواي، فقد اعتقدتُ أنه شرس وقاسٍ وله تأثير سيئ على زوجها».

«ربما كان هذا صحيحاً. يبدو أنّ هناك مشهداً في رواية تاليا عندما كانا في جنوب فرنسا. هادلي، زوجة هيمينجواي، كانت في الولايات المتحدة لسبب ما، وإيرنست وسكوت كانا يُكثران الشرب. في الحياة الواقعية، لقد اشتكى هيمينجواي عدة مرات من عدم قدرة سكوت على احتمال المشروب. نصف زجاجة من النبيذ كافية لتفقدته الوعي، بينما كان لهيمينجواي قدرة عالية على

الشرب دون أن يثمل وبإمكانه التفوق على أي أحد في الشرب، لقد أدمن سكوت الكحول بمرحلة متقدمة وهو في العشرين من عمره كما أنه لم يتمهل في الشرب أبداً. كان دائم الاستعداد للشرب صباحاً وظهراً ومساءً. كان هيمينجواي وزيلدا يتغازلان. وأخيراً حصل على فرصتهما بعد الغداء عندما أُغمي على سكوت وهو في أرجوحة شبكية، فعلاها في غرفة ضيوف على بعد أقل من ثلاثين قدم من الرجل بينما كان غطيته يصلهما. شيء من هذا القبيل، لكن مرة أخرى، هذا خيال، لذا اکتبي ما تشائين. أصبحت العلاقة متقدة نوعاً ما بينما كان إيرنست يشرب أكثر وسكوت يحاول مجاراته. عندما يُغمي عليه، يُسرع صديقه إيرني وزوجته زيلدا إلى أقرب سرير من أجل علاقة سريعة. كانت زيلدا مُتيمّة بإيرنست، وبدا إيرنست مجنوناً بها، لكنه كان يستدرجها لأسباب واضحة. كان في ذلك الوقت زير نساء مُتسلسل. عندما عادوا إلى باريس، وعندما عادت هادلي من الولايات المتحدة، أرادت زيلدا متابعة المتعة، لكن إيرنست كان قد ملّ منها. قال أكثر من مرة أنه مجنون. ولذا نبذها وهجرها فكرهته منذ ذلك الحين. وهذه يا عزيزتي، هي الرواية باختصار شديد».

«وأنت تظن أنّ هذه تحقق مبيعات؟».

ضحك بروس وقال: «يا إلهي، لقد أصبحت قرصانة حقيقية خلال الشهر المنصرم. أتيت إلى هنا بطموحات أدبية والآن تحلمين بالعوائد المادية».

«لا، أريد العودة إلى الصفوف الدراسية يا بروس، ولكن لا يبدو أن كليات كثيرة تلاحقني لتغريني بعقد عمل معها. لا أملك شيئاً سوى عشرة آلاف دولار، مجاملة منك ومن عزيزتي تيسا. أحتاج إما لأبيع بعض الكتب أو أقنع عن الكتابة».

«نعم، ستحقق مبيعات. أنتِ ذكرتِ الزوجة الباريسية، قصة جميلة عن هادلي وهيمينجواي في تلك الأيام، وحققت مبيعات جيدة جداً. أنتِ كاتبة جميلة يا ميرسر، وبإمكانك الخروج من عنق الزجاجة».

ابتسمت وأخذت رشفة من كأسها ثم قالت: «شكراً. إنني بأمس الحاجة إلى تشجيع».

«ألسنا جميعاً نحتاج إليه؟».

للحظات ران الصمت بينهما، رفع بروس كأسه، ونظر إلى النبيذ ثم قال: «هل تحبين نبيذ تشابليز؟».

«إنه لذيذ».

«أنا أحب النبيذ، أحبه كثيراً. لكن بالنسبة إلى الغداء، إنه عادة سيئة. إنه يُبطئ فترة الظهيرة حقاً».

قالت محاولة تخفيف الأمر عليه: «لهذا اخترعوا القيلولة».

«بالفعل. لديّ شقة صغيرة في الطابق الثاني، خلف المقهى نوعاً ما، وهي البقعة المثالية لقيلولة ما بعد الغداء».

«هل هذه دعوة يا بروس؟».

«ربما».

«هل هذه أفضل جملة لديك لاجتذاب النساء (مرحباً حبيبتي، تعالي نأخذ قيلولة معاً)؟».

«لقد نجحت من قبل».

«حسناً، لن تنجح الآن». التفتت حولها، ولمست أطراف فمها بالمنديل ثم

أضافت: «أنا لا أعاشر الرجال المتزوجين يا بروس. أعني، أني فعلت ذلك، في مناسبتين، ولم تكن أي منهما ممتعة بشكل خاص. الرجال المتزوجون لديهم أعباء لا أهتم للتعامل معها. إضافةً إلى أني أعرف نويل وأحبها كثيراً».

«وأكد لك أنها لا تهتم لذلك».

قال ذلك مبتسماً، وكانت ابتسامته على وشك أن تتحول إلى قهقهة، وكأن لا فكرة لديها عما تتكلم عنه وأنه سيكون سعيداً بإخبارها. هو أيضاً، نظر حوله ليتأكد من عدم قدرة أحد على السماع، ومال إلى الأمام وأخفض صوته: «نويل في فرنسا، في آفينيون، وعندما تذهب إلى هناك تقيم في شقتها التي تملكها منذ سنوات عديدة. وفي نهاية الشارع تماماً، هناك شقة أكبر يملكها صديقها جان لوك. وجان لوك هذا متزوج من امرأة ثرية أكبر منه. جان لوك ونويل مقربان من بعضهما منذ عشر سنوات على الأقل. في الحقيقة، التقته قبل أن ألتقي بها. إنهما يأخذان القيلولة معاً ويتناولان العشاء ويتسكعان، حتى أنهما يسافران معاً وزوجته العجوز لا تمنع بذلك».

«إذاً زوجته موافقة؟».

«بالطبع. إنهما فرنسيان. الوضع كله هادئ وسري وحضاري للغاية».

«وأنت لا تمنع؟ حقاً هذا أمر غريب».

«كلا، لا أمانع على الإطلاق. تلك هي الحالة وحسب. أتعلمين يا ميرسر، لقد عرفت منذ سنوات عديدة أني ببساطة لا أصلح للارتباط بامرأة واحدة، لست متأكداً من أن أي إنسان يمكنه ذلك حقيقةً، لكني لن أجادل في هذا الأمر. في الوقت الذي دخلت فيه إلى الكلية، أدركتُ أن هناك كثيراً من النساء الجميلات، وما من طريقة لأكون سعيداً مع واحدة فقط، لقد جرّبت العلاقات

العاطفية، وارتبطت بخمس أو ست صديقات، لكن لم ينجح شيء، لأنني لا أستطيع مقاومة امرأة جميلة أخرى، بغض النظر عن عمرها. لحسن الحظ، وجدت نويل، لأنها تشعر بالشيء نفسه حيال الرجال. لقد تدمر زواجها قبل سنوات لأن لديها صديقاً في الخفاء وكانت تعاشر طبيبها». «لذا عقدتما اتفاقاً؟».

«لم نتصافح، لكن في الوقت الذي قررنا فيه الزواج كنا نعرف القواعد. الباب مفتوح على مصراعيه، كن متكثماً وحسب». هزت ميرسر رأسها، وأشاحت بنظرها ثم قالت: «أنا آسفة، أنا لم ألتق بثنائي بهذه الترتيبات من قبل أبداً». «لست متأكداً من أن الأمر بهذه الغرابة».

«إنه في غاية الغرابة، أنت تعتقد أنه طبيعي لأنك تفعله. اسمعني، لقد أمسكت بأحد أصدقائي يخونني ذات مرة، واستغرقت سنة كي أتجاوز الأمر، إنني لا أزال حتى يومي هذا أكرهه». «لقد أوضحت وجهة نظري. أنت تأخذين الموضوع بجدية بالغة. ما الذي تشكّله علاقة عابرة بين الحين والآخر؟».

«علاقة عابرة؟ زوجتك تعاشر صديقها الفرنسي منذ عقد من الزمان على الأقل، وأنت تسمي هذا علاقة عابرة؟». «كلا، هذا أكثر من علاقة عابرة، لكن نويل لا تحبه. الأمر كله يتعلق بالصحة».

«يا للهول. إذاً في الليلة الماضية عندما كانت سالي أرانكا في البلدة، هل

كانت هذه علاقة عابرة أم صحبة؟».

«من يهتم؟ تأتي سالي إلى هنا مرة في السنة ونحن نحظى ببعض المرح. سمّه ما شئت».

«ماذا لو كانت نويل هنا؟».

«إنها لا تهتم يا ميرسر، اصغي لي. إذا اتصلتِ بنويل الآن تماماً وأخبرتها أننا نتناول الغداء ونتحدث بشأن أخذ قيلولة وسألتها عن رأيها بالأمر، أراهنك أنها ستضحك وتقول: مهلاً، لقد مرّ أسبوعان على غيابي، ما الذي أحرّكما؟ هل تريدان الاتصال بها؟».

«كلا».

ضحك بروس وقال: «أنتِ متزمّنة للغاية».

لم تكن ميرسر تنظر إلى نفسها على أنها متزمّنة أبداً، في الواقع كانت تعتقد أنها مُنفتحة إلى حد ما ومتقبّلة لأي شيء تقريباً. لكن في تلك اللحظة شعرت بنوع من التحفّظ وكرهت ذلك. فقالت: «كلا أنا لستُ كذلك».

«إذا دعينا نذهب إلى السرير».

«أنا آسفة، لا أستطيع أن أكون بهذه العفوية حيال هذا الأمر».

«حسناً. أنا لا أضغط عليك. عرضتُ عليكِ أخذ قيلولة صغيرة وحسب، هذا كل شيء».

ضحكا، لكن التوتر كان جلياً. وعرفا أنّ المحادثة لم تنته بعد.

حل الظلام عندما التقتا على الشاطئ في آخر الممر الخشبي للشاليه. المدّ

منخفض والمحيط واسع وخالي، وضياء البدر يتلأأ فوقه. كانت إيلين حافية القدمين، وخلعت ميرسر صندلها. تنزهتا على طول الشاطئ؛ مجرد صديقتين قديمتين تدردشان.

بناءً على التعليمات، كانت ميرسر مستفيضة بإيميلاتها الليلية، حتى أدق التفاصيل لما تقرأه وما تحاول أن تكتبه. كانت إيلين تعرف كل شيء تقريباً رغم أن ميرسر لم تذكر جهود كابل لمعاشرتها. ربما لاحقاً، بناءً على ما يمكن أن يحدث.

سألت ميرسر: «متى وصلت إلى الجزيرة؟».

«اليوم بعد الظهر. لقد أمضينا اليومين الأخيرين في المكتب مع فريقنا، جميع خبرائنا؛ الفنيين، وموظفي العمليات، وحتى رئيسي في العمل، مالك الشركة».

«لديك رئيس؟».

«أنا أدير هذا المشروع، لكن رئيسي يتخذ القرارات النهائية، عندما نصل إلى هناك».

«تصلون إلى أين؟».

«لست متأكدة الآن. هذا هو الأسبوع السادس، وبصراحة، لسنا متأكدين ما هي الخطوة التالية. لقد كنت رائعة يا ميرسر، وتقدمك خلال الأسابيع الخمسة الأولى، لم يكن شيئاً أقل من مذهل. نحن سعداء للغاية. لكن، الآن بما أننا نملك الصور والفيديوهات، وبما أنك شققت طريقك داخل دائرة كابل الضيقة، نحن نناقش خطواتنا التالية. مستوى الثقة لدينا مرتفع جداً، لكن أمامنا طريقاً طويلاً».

«سنصل إلى هناك».

«نحن نعشق ثقتك».

«شكراً»، قالتها ميرسر بحسم، لقد ملّت من المديح. أضافت: «لديّ سؤال. لست واثقة أنه من الحكمة متابعة المناورة في هذه الرواية بشأن زيلدا وهيمينجواي. تبدو ملائمة جداً، حيث كابل يجلس فوق مخطوطات فيتزجيرالد. هل نحن نسير في الطريق الصحيح؟».

«لكنّ الرواية كانت فكرته».

«ربما هي الطعم الذي وضعه لي، طريقته في اختباري».

«هل لديك أي سبب لتعتدي أنه يشك بك؟».

«لا، لقد تمكنت من قضاء وقت مع بروس، وأظن أنني أستطيع قراءة أفكاره، إنه ذكي جداً، وحيوي وكارزماتي، كما أنه صريح ومن السهل التحدث إليه. ربما هو مُخادع في بعض جوانب عمله، لكن ليس عندما يتعامل مع أصدقائه. بإمكانه أن يكون صريحاً للغاية ولا يتحمّل الحمقى، لكن ثمة لطف أصيل لديه. أنا معجبة به يا إيلين، وهو كذلك، ويريد أن نقترّب من بعضنا أكثر. لو أنه مرتاب، أعتقد أنه كان شعر بشيء ما».

«أنتما تخططان للتقارب أكثر؟».

«سنرى».

«إنه يكذب بشأن زواجه».

«صحيح. دائماً يشير إلى نويل على أنها زوجته. أفترض أنك على حق عندما تقولين إنهما ليسا متزوجين».

«لقد أخبرتكِ كل ما نعرفه. ليس هناك سجلات لهما في فرنسا أو هنا بشأن تقدمهما للحصول على رخصة زواج. أعتقد ربما أمكنهما الزواج في أحد البلدان الأخرى، لكن هذا ليست قصتهما».

«لا أعلم كم سنكون قريبين من بعضنا، ولست متأكدة أنه يمكن تخطيط ذلك. ما أسعى لقوله، أعتقد أنني أعرفه جيداً بما يكفي كي أقتفي أثر أي شك».

«حسناً، التزمي بهذه الرواية. سوف تؤمن لك فرصة التحدث حول فيتزجيرالد. حتى إنها فكرة جيدة أن تكتبي الفصل الأول وتدعيه يقرأه. هل بإمكانك القيام بذلك؟».

«بالتأكيد. هذا كله خيال. لا شيء حقيقي في حياتي هذه الأيام».

7

كان المسعى التالي لبروس عفويًا بقدر الذي سبقه، لكنه نجح. اتصل بميرسر بعد ظهر يوم الخميس، وقال إن مورت جاسبر، الناشر الأسطوري ومالك ريبلي برس، موجود في البلدة مع آخر زوجاته. يأتي جاسبر إلى الجزيرة كل صيف تقريباً ويقدم مع بروس ونويل. سيكون هناك عشاء صغير، يجمعهم أربعتهم فقط في وقت متأخر من يوم الجمعة، طريقة ممتعة لإنهاء الأسبوع.

بعد عدة أيام من وجودها في نُزل المبيت والإفطار، أُصيبت ميرسر برهاب الأماكن المغلقة، وتلَهفت للخروج من المكان، كانت متلهفة لاسترجاع الشاليه الخاص بها، وتعدّ الأيام حتى تعود كوني وعصبتها إلى منزلهم. ولتجنّب الكتابة، كانت ميرسر تمشي على الشاطئ طوال اليوم، وتحرص على أن تبقى بعيدة عن الشاطئ مسافة أميال، وتكون متيقظة كي لا ترى أحداً يعرفها.

ربما يساعد اللقاء مع مورت جاسبر مسيرتها المهنية المنحسرة يوماً ما. لقد اشترى جاسبر ريبلي برس منذ ثلاثين عاماً لقاء مبلغ زهيد من المال، وحوّل الدار الصغيرة غير المربحة إلى دار نشر كبيرة، بقيت مستقلة بتحدٍ. وبعين ثاقبة ملؤها الموهبة، جمع ودعم مجموعة من الكتاب المعروفين بطموحاتهم الأدبية المتنوعة، بالإضافة إلى قدرة كتبهم على تحقيق مبيعات جيدة. وكنوع من الارتداد إلى عصر النشر الذهبي، تمسك مورت بتقاليده في قضاء ثلاث ساعات على وجبات الغداء وحفلات الغداء المتأخرة في شقته الكائنة في أبر ويست سايد. ما من شك أنه الشخصية الأكثر بهجة في عالم النشر، ولم يُظهر أي علامات ضعف، حتى وهو يقترب من السبعين من عمره.

بعد ظهر يوم الجمعة، أمضت ميرسر ساعتين على النت، وهي تقرأ مقالات قديمة عن مورت، لم تكن أي منها مملة ولو قليلاً. ذُكر في إحداها أنه دفع منذ فترة مليوني دولار مقدماً لشخص محترف غير مشهور لقاء رواية وأول طبعة للرواية باعت عشرة آلاف نسخة. لم يكن لديه أي ندم ودعا ذلك بـ «الصفقة». وتناولت مقالة أخرى زواجه الأخير من امرأة بعمر ميرسر. اسمها فيبي وكانت محررة في ريبلي برس.

التقت فيبي بها عند الباب الرئيسي لمنزل مارشبانكس عند الساعة 8:00 مساءً يوم الجمعة، وبعد ترحيب لطيف حذرتها من أنّ «الشباب» قد بدأوا بالشرب مسبقاً. بينما كانت ميرسر تتبعها داخل المطبخ سمعت صوت خلّاط كهربائي. كان بروس يُعدّ كوكتيل الرّم مع الليمون في الشرفة الخلفية مرتدياً بنطالاً قصيراً وقميص غولف. قبل ميرسر على وجنتيها، وقدمها إلى مورت الذي حياها بضمّة عنيفة وابتسامة. كان حافي القدمين وثنية قميصه الطويل تصل إلى ركبتيه. قدّم بروس الكوكتيل لها وللآخرين، ثم جلسوا على كراسٍ

هزاة حول طاولة صغيرة فيها أكوام من الكتب والمجلات.

من الواضح للعيان أنه في مواقف كهذه، كما في كل المواقف الأخرى، يُتوقع من مورت أن يبدأ بالكلام. وهذا مناسب لميرسر. بعد الرشفة الثالثة، شعرت بالإثارة وتساءلت عن مقدار الرّم الذي أضافه بروس للوصفة. بدا مورت غاضباً بشدة بشأن السباق الرئاسي والحالة المُقلقة للسياسات الأمريكية، موضوع لم تكن ميرسر تهتم به، لكن بدا أن بروس وفيبي منهمكان به، وتمكنا من التفاعل بما يكفي كي يحمله على المتابعة.

«هل تمانعون إذا دخنت؟». لم يسأل مورت أحداً بذاته وهو يمد يده إلى علبة جلدية على الطاولة. أشعل كل من مورت وبروس سيجاراً أسود وسرعان ما خيم دخان أزرق فوقهما. أحضر بروس الإبريق وملاً الكؤوس مرة أخرى. خلال فترة انقطاع مورت النادرة عن الكلام، تمكنت فيبي من التدخل فقالت: «حسناً يا ميرسر، يقول بروس إنك تعملين على رواية».

علمت ميرسر أنّ هذا سيحدث في وقت ما خلال الأمسية. ابتسمت وقالت: «بروس لطيف في تعابيره، أنا الآن أحلم أكثر مما أعمل».

نفخ مورت غيمة من الدخان وقال: «الظهور الأول لرواية مطر تشرين الأول كان جيداً. رائعة للغاية. من نشرها؟ لا أستطيع أن أتذكر».

قالت ميرسر بابتسامة متسامحة: «حسناً، لقد رفضتها ريبلي برس».

«فعلناً فعلناً ذلك، تصرف أحمق، لكن من ناحية أخرى هذا هو النشر. يكون تخمينك صحيحاً حول بعض الكتب وخاطئاً حول بعضها الآخر، هذا كله جزء من العمل».

«نشرتها نيوكومب، وكان بيننا بعض الخلافات».

شخر معبراً عن عدم موافقته وقال: «مجموعة من المهرجين. ألم تتركهم؟».

«نعم. عقدي الحالي مع دار فايكينغ. أعلمتي وكيلتي في آخر مرة اتصلت فيها إني متأخرة ثلاث سنوات».

ضحك مورت بشدة وقال: «ثلاث سنوات فقط! سأكون محظوظاً جداً. كنتُ أصرخ على دوج تانينبوم في الأسبوع الماضي لأنه من المفترض به أن يُسلم روايته قبل ثماني سنوات. يا للكُتاب!».

تدخلت فيبي قائلةً: «هل تتكلمين عن عمك؟».

ابتسمت ميرسر وهزت رأسها قائلةً: «ليس هناك كثير من الأشياء للحديث عنها».

سأل مورت بلهجة أمرة: «من هو وكيل أعمالك؟».

«جيلدا سافيتش».

«أحب تلك الفتاة. لقد تناولت الغداء معها الشهر الماضي».

كادت ميرسر أن تقول إنها سعيدة جداً باستحسانك لها، الرّم يقوم بعمله. قالت: «لم تذكر اسمي أليس كذلك؟».

زمر مورت مرة أخرى ثم كرع مشروبه وقال: «لا أستطيع أن أتذكر. كان غداءً طويلاً». سألت فيبي عن نويل وهذا شغلهم لبضع دقائق. لاحظت ميرسر عدم وجود نشاط في المطبخ، لا إشارة تدل على تحضير الطعام. عندما استأذن مورت لدخول الحمام، عاد بروس مرة أخرى للخلاط من أجل تحضير كوكتيل آخر. تحدّثت الامراتان عن الصيف والعطلات وما شاكل. سيغادر مورت وفيبي

غداً ويتوجهان إلى أرخبيل كيز لمدة شهر. كان النشر بطيئاً في شهر تموز وخاملاً تماماً في شهر آب. وحسناً، بما أنه الرئيس، يمكنهما مغادرة المدينة لمدة ستة أسابيع.

عندما عاد مورت، واستقر على كرسيه مع مشروبه الطازج والسيجار، رنّ جرس الباب واختفى بروس. عاد مع صندوق كبير ووضعه على الطاولة ثم قال: «أفضل سمك تاكو في الجزيرة».

سأل مورت بذهول: «أنت تقدّم لنا تاكو كطلب خارجي من المطعم؟ لا أصدق هذا. أنا أطعمك في أفضل المطاعم في نيويورك وبالمقابل أحصل على هذا».

قال بروس: «آخر مرة تناولنا الغداء في المدينة أخذتني إلى ذلك المطعم المرعب والقريب من مكتبك، وكان طبق روبن سيئاً جداً لدرجة أنني كدتُ أتقيأ. كما أنني دفعتُ الفاتورة».

قال مورت وهو يقطع التاكو لنصفين: «أنت مجرد بائع كتب يا بروس. الكُتّاب يحصلون على وجبات فاخرة. في المرة القادمة التي تكونين فيها في المدينة يا ميرسر سادعوك إلى مطعم ثلاث نجوم».

«موعد»، قالت وهي تعرف أنه لن يحدث أبداً. بالمعدل الذي يُفرغ به كأسه، لن يتذكر الكثير بحلول الصباح. بدأ بروس بإطلاق العنان لنفسه أيضاً، فقد شرب أكثر بكثير مما رآته يفعل حتى الآن.

ارتشفت ميرسر مشروبها المُثلّج، وحاولت أن تتذكر كم كأساً شربت. وكون بروس يقوم بملئه باستمرار، من الصعب المحافظة على العد. بدأت تترنح وشعرت أنها بحاجة للتخفيف من وتيرة الشرب. أكلت تاكو، وبحثت عن

زجاجة ماء أو حتى بعض النبيذ، لكن لم يكن هناك شيء في الشرفة. فقط إبريق الكوكتيل بانتظارهم.

ملاً بروس كووسهم، وبدأ برواية قصة عن الكوكتيل، مشروبه الصيفي المفضل. في العام 1948، ذهب أحد الكتاب الأمريكيين واسمه أ. إي. هوتشنر إلى كوبا ليقتفي أثر إيرنست هيمينجواي، الذي عاش هناك في أواخر الأربعينات وبداية الخمسينات من القرن العشرين. تصادقا بسرعة، وفي العام ، بعد بضع سنوات من موت هيمينجواي، نشر هوتشنر كتاباً شهيراً بعنوان بابا هيمينجواي.

وكما هو متوقع قاطعه مورت بقوله: «لقد التقيتُ بهوتشنر، لا أظن أنه توفي، ربما قارب المئة من السنين».

أجاب بروس: «دعنا نفترض أنك التقيت الجميع يا مورت».

أياً يكن الأمر، خلال زيارة هوتشنر الأولى التي كانت كنوع من مقابلة صحفية، كان هيمينجواي متردداً. ألح هوتشنر عليه. أخيراً، التقيا في حانة ليست بعيدة عن منزل هيمينجواي. قال هيمينجواي على الهاتف إن المكان مشهور بالكوكتيل الخاص به. بالطبع، تأخر هيمينجواي. لذا بينما هوتشنر جالس بانتظاره، طلب كوكتيل. كان لذيذاً وقوياً وبما أنه لم يكن كثير الشرب، فقد تناوله ببطء. مرت ساعة، وكان البار حاراً ورطباً. لذا، طلب كأساً أخرى. عندما شرب نصفها، أدرك أنه بدأ يرى الأشياء بشكل مزدوج. وأخيراً، عندما وصل هيمينجواي تعامل الناس معه كشخص مشهور. من الواضح أنه أمضى كثيراً من الوقت هناك. تصافحا ووجدا طاولة ثم طلب هيمينجواي كوكتيل الرّم والليمون المثلج، تسلى هوتشنر بكأسه الطازجة بينما كان هيمينجواي يكرع

كأسه عملياً، ثم كرع كأساً أخرى، وخلال الكأس الثالثة، لاحظ إيرنست أن صديقه الجديد على الشرب لم يكن يشرب. لذا، تحدّى رجولته وقال إذا كان يرغب بالتسكع مع إيرنست هيمينجواي العظيم، فمن الأفضل له أن يتعلم كيف يشرب كرجل. تشجّع هوتشنر، ومضى في الشرب، فأصبحت الحانة تدور بسرعة أمام عينيه. فيما بعد، بينما حاول هوتشنر بشجاعة إبقاء رأسه مرفوعاً، فقد هيمينجواي الاهتمام بمحادثتهما، وبدأ يلعب الدومينو مع السكان المحليين مع كوكتيل طازج، في مرحلة ما – فقد هوتشنر الإحساس بالوقت – وقف هيمينجواي وقال إنه حان وقت العشاء. اضطر هوتشنر لمجاراته. وفي الطريق إلى الخارج، سأل هوتشنر: «كم كأس كوكتيل شربنا؟».

فكر الساقى للحظة ثم قال بالإنكليزية: «أربعة لك وسبعة لبابا».

قال هوتشنر وهو لا يكاد يُصدّق: «شربت سبعة كؤوس كوكتيل؟».

ضحك إيرنست، وكذلك فعل السكان المحليون ثم قال: «سبعة كؤوس هي لا شيء يا صديقي. الرقم القياسي هنا هو ست عشرة كأساً، وأنا أحمله بالطبع».

بدأت ميرسر تشعر وكأنها في الكأس السادسة عشرة.

قال مورت: «أذكر أنني قرأت رواية بابا عندما كنتُ في غرفة البريد في راندوم هاوس». ملأ فمه بالتاكو وأعاد إشعال سيجاره ثم أضاف: «هل لديك طبعة أولى منها يا بروس؟».

«لديّ نسختان، واحدة بحالة جيدة، والأخرى أقل جودة. أنت لا ترى الكثير منها هذه الأيام».

سألت فيبي: «هل هناك أي عمليات شراء مثيرة للاهتمام مؤخراً؟».

قالت ميرسر في نفسها: «ماعدًا مخطوطات فيتزجيرالد المسروقة من

جامعة برينستون». لكنها لم تكن ثملة بما يكفي لتتطرق بذلك. أصبح جفناها أكثر ثقلاً.

أجاب بروس: «ليس تماماً. لقد حصلت مؤخراً على نسخة من رواية المُدان».

وحتى لا يظهر بمظهر المُتفوق عليه – وربما ليس هناك أحد في تاريخ دور النشر في نيويورك عاش قصص الشراب أو سمعها من مصادر موثوقة – اندفع مورت بحكاية عاصفة عن مشاجرة لأحد السكارى في شقته عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل عندما لم يتمكن نورمان مايلر من إيجاد المزيد من الرّم وبدأ يرمي الزجاجات الفارغة على جورج بليمتون. كان الوضع مضحكاً جداً إلى درجة أنه من الصعب أن يُصدّق، وكان مورت راوياً بارعاً للقصص.

وجدت ميرسر نفسها تترنح من النعاس، وآخر صوت تتذكره كان صوت الخلاط وهو يهدر من أجل دفعة أخرى من الكوكتيل.

8

استيقظت في سرير غريب ضمن غرفة دائرية، وللتواني القليلة الأولى، خافت من التحرك لأنّ أي حركة قد تزيد من حدة الخفقان في جبهتها. كانت عيناها تحرقانها، لذلك أغمضتهما. فمها وحلقها جافان. هناك حركة في معدتها تُنذر بأنّ الأمور قد تزداد سوءاً. حسناً، إنه صداع الكحول، لقد مرّت بهذا من قبل، ونجت منه، يمكن أن يكون يوماً طويلاً لكن مهلاً، ما هذا بحق الجحيم؟ لم يجعلها أحد تشرب كثيراً. تمالكي نفسك يا فتاة. تلك المقولة القديمة من الجامعة: «إذا كنت ستصبح أحمق عليك أن تكون قوياً».

كانت مستلقية على سرير سميك من الريش الناعم وحولها طبقات من

الملاءات الوثيرة من كل جانب. لا شك أنها تحمل لمسة نويل. لقد استثمرت ميرسر نقودها المكتسبة حديثاً في ملابس داخلية أكثر جمالاً، وفي تلك اللحظة المريحة ارتاحت لأنها كانت ترتديها. تمنيت أن يكون بروس قد انبهر بها، فتحت عينيها مرة أخرى، رمشت عدة مرات، وتمكنت من التركيز، فرأت سروالها القصير وبلوزتها مرتبان بأناقة على كرسي قريب، أسلوبه في قول إن خلع الملابس حصل بطريقة منتظمة، وليس اندفاعاً إلى الفراش بعد تمزيق وانتزاع الملابس. أغمضت عينيها مرة أخرى، وغاصت أكثر داخل الأغطية.

لا شيء بعد تلاشي صوت الخلاط. حسناً، ما هي المدة التي نامت فيها في كرسيها على الشرفة بينما كان الآخرون يتبادلون القصص ويشربون ويتغامزون وهم يضحكون عليها؟ هل كانت قادرة على المشي، غير متوازنة وربما ببعض المساعدة، أم هل اضطر بروس لحملها إلى برج الطابق الثالث؟ هل أغمي عليها حقاً، أم أنها غرقت في النوم فقط ثم وُضعت في السرير؟

تحركت معدتها مرة أخرى. بالتأكيد لم تُفسد حفلتهم الصغيرة في الشرفة بمشهد استفراغ لا يُوصف ولن يقوم بروس أو الآخرين بذكره أبداً؟ لقد جعلها التفكير بهذه الحادثة حتى أكثر شعوراً بالغثيان. نظرة أخرى إلى سروالها القصير وبلوزتها. يبدو أنهما خاليتان من اللطخ، لا أثر لأي فوضى.

ثم فكرة مواسية. كان مورت أكبر من فيبي بأربعين سنة وحقق مسيرة مهنية من لا شيء. لقد تفوق على كثير من السُّكاري وعانى من صداع الكحول أكثر من كل مؤلفيه مجتمعين معاً، ولذا لا شيء يزعجه. ربما كان سعيداً بذلك. من ذا الذي يهتم للناس؟ لن تراها ميرسر مرة أخرى، ثم أنّ العيش مع مورت جعلها تختبر كل شيء. من المؤكد أنّ بروس اختبر كل شيء.

نقرة خفيفة على الباب، ودخل بروس إلى الغرفة. كان يرتدي ثوب حمام، ويحمل زجاجة ماء مع كأسين صغيرتين. قال بهدوء: «حسناً، صباح الخير». ثم جلس على طرف السرير.

أجابت: «صباح الخير. أنا حقاً أريد بعضاً من هذا الماء».

قال وهو يملأ الكأسين: «وأنا أيضاً». كرعاهما ثم سكب المزيد.

سأل: «كيف تشعرين؟».

«لست جيدة تماماً. وأنت؟».

«ليلة طويلة».

«كيف وصلت إلى هنا؟».

«لقد غفوت في الشرفة، وساعدتك في الوصول إلى السرير. لم تكن فيبي

بعيدة في الخلف، ثم أشعلت أنا ومورت سيجاراً آخر وبقينا نشرب».

«هل حطمتما رقم هيمينجواي؟».

«كلا، لكن بدا وكأننا اقتربنا منه».

«أخبرني يا بروس، هل جعلت من نفسي أضحوكة؟».

«على الإطلاق. غلبك النعاس. لم يكن باستطاعتك قيادة السيارة، ولذا

وضعتك في السرير».

«شكراً. أنا لا أذكر كثيراً مما حصل».

«ليس هناك كثير لتتذكره. جميعنا ثملنا».

أفرغت كأسها وهو ملاًها مرة أخرى. أوامت برأسها نحو سروالها القصير

وبلوزتها ثم سألت: «من الذي خلع هذه الملابس عني؟».

«أنا فعلت. إنها متعة حقيقية».

«هل تحرشت بي؟».

«كلا، لكنني فكرتُ بالأمر».

«يا لك من سيد نبيل».

«دائماً. اسمعي، هناك مغطس كبير في الحمام. لم لا تأخذين حماماً ساخناً وطويلاً، وتستمري في شرب الماء، وأنا سأذهب لتحضير الفطور. أحتاج لبعض البيض واللحم المقدد وأظن أنك تحتاجين لذلك أيضاً. تصرفي وكأنك في منزلك. مورت وفيبي مستيقظان وسيغادران قريباً. عندما يرحلان، سأجلب الفطور لك في السرير. اتفقنا؟».

ابتسمت وقالت: «يبدو هذا جيداً. شكراً».

غادر وأغلق الباب. لديها خياران، الأول، بإمكانها أن ترتدي ملابسها وتنزل بيسر إلى الطابق السفلي، وتحاول تجنب مورت وفيبي، وتخبر بروس أنها تريد أن تذهب ثم تنطلق في طريقها. لكن الرحيل بسرعة لم يكن فكرة جيدة. كانت تحتاج للوقت، الوقت لتستجمع قواها، والوقت لترى فيما إذا كانت معدتها استقرت، والوقت لترتاح وحتى لتنام قليلاً. كما لم تكن متأكدة من أنه يجب عليها قيادة السيارة. لم تكن فكرة العودة إلى جناحها الصغير في نزل المبيت والإفطار جذابة أيضاً، لكن فكرة حمام ساخن وطويل كانت لا تقاوم في تلك اللحظة.

الخيار الثاني هو اتباع خطة بروس، تلك التي ستجعله إلى جانبها في

السريير نهاية المطاف. لقد قررت ذلك، وصلت إلى درجة كونه أمراً محتوماً.
سكبت كأس ماء أخرى ونهضت من السريير. تمطت وأخذت نفساً عميقاً،
فشعرت بحال أفضل. ليس هناك شعور بالغثيان. ذهبت إلى الحمام وفتحت
الصنابير، ووجدت الصابون السائل الذي يصنع الفقاقيع. الساعة الإلكترونية
الموجودة على الرف تشير إلى 8:20. برغم مشاكلها الجسدية الواضحة إلا
أنها نامت عشر ساعات تقريباً.

أراد بروس بالطبع أن يطمئن عليها، كي يرى كيف تجري أمور الاستحمام.
دخل إلى الحمام وهو لا يزال يرتدي رداء الحمام ثم وضع زجاجة ماء فوار
أخرى بجانب المغطس وسأل: «كيف حالكِ؟».

أجابت: «أفضل بكثير». كانت الفقاعات تغطي معظم جسدها العاري لكن
ليس كله. فنظر إليها نظرة استحسان طويلة وابتسم ثم قال: «هل تريدين
شيئاً؟».

«كلا، أنا بخير».

«أنا مشغول في المطبخ. خذي وقتك». ثم ذهب.

9

بقيت في المغطس لمدة ساعة، ثم نهضت وجففت نفسها. وجدت رداء
حمام مماثلاً على الباب فارتدته. وفي أحد الجوارير، وجدت مجموعة من
فراشي الأسنان الجديدة. فتحت واحدة ونظفت أسنانها، وشعرت بحال أفضل
بكثير. أمسكت ملابسها الداخلية، ووجدت حقيبة يدها بجانب سروالها القصير
وبلوزتها. أخرجت الآي باد ونفضت الوسائد، ثم دخلت السريير وعادت لتصفح
الإنترنت.

كانت تقرأ عندما سمعت ضجيجاً بجانب الباب. دخل بروس بصينية فطور ووضعها بجانبها ثم قال: «لحم مقعد وبيض مقلي، فطائر مع مربى، وقهوة ثقيلة، وكوكتيل الشمبانيا، لأسباب وجيهة».

قالت: «لست متأكدة من أني أريد المزيد من الكحول في هذه المرحلة». كان مظهر الطعام ورائحته شهية.

«مشروب هير أوف ذا دوج. إنه جيد لك». اختفى للحظة ثم عاد وهو يحمل صينية له. عندما جلس بجانبها، صينيته إلى جانب صينيتها، وهما يرتديان ردائي حمام متشابهين، رفع كأسه الطويلة وقال: «نخبك». أخذاً رشفة ثم بدأ يأكلان.

قالت: «إذاً هذه هي غرفة الكاتب سيئة السمعة؟».

«هل سمعتِ بها؟».

«مكان دمار العديد من الفتيات المسكينات».

«جميعهن راغبات تماماً».

«إذاً ما يُقال صحيح. أنت تأتي بالفتيات ونويل تأتي بالفتيان؟».

«صحيح. من أخبرك بشأن ذلك؟».

«منذ متى يحتفظ الكُتاب بالأسرار؟».

ضحك بروس، وأدخل قطعة لحم مقعد في فمه. بعد رشفتين من كوكتيل الشمبانيا الخاص بها، عاد الشعور بالحماس فقد اختلطت بقايا الرّم من الليلة الماضية مع الشمبانيا الطازجة. لحسن الحظ، هدأ الحمام الطويل معدتها وكان الطعام شهياً. أوامت برأسها نحو الجدار المنحني الطويل المليء برفوف الكتب

من الأرض حتى السقف ثم سألت: «إذاً ما هذا؟ المزيد من الطبقات الأولى؟».

«خليط، لا شيء ذو قيمة حقيقية. بعض النثریات التي لا قيمة لها».

«إنها غرفة جميلة، من الواضح أنها من لمسات نويل».

«دعينا ننسها في الوقت الحالي. ربما هي الآن تحظى بغداء طويل مع جان

لوك».

«وهذا الأمر لا يزعجك؟».

«ولا بأي شكل من الأشكال. كفى يا ميرسر، لقد تحدثنا بهذا الأمر من

قبل».

تناولا طعامهما بصمت لبضع دقائق، وتجاهل كلاهما القهوة لكن ليس
كوكتيل الشمبانيا. بدأ يُمسد فخذها بلطف من تحت الأغطية.

قالت: «لا أستطيع أن أتذكر آخر مرة... وأنا مصابة بالصداع الكحولي».

«أوه، أنا أقوم بذلك دائماً. إنه أفضل علاج في الحقيقة».

«أظن أنك تعرف».

نهض عن السرير ووضع صينيته على الأرض ثم قال: «انهي كأسك».

ف فعلت. رفع صينيته ووضعها جانباً ثم خلع رداء الحمام ورماه، وساعدها في

خلع رداءها.

كانت إيلين شيلبي تعمل في مكتبها المنزلي في وقت متأخر من صباح

السبت عندما اتصل جراهام من جزيرة كامينو ليقول: «الطائرة حطت على

الأرض. يبدو أن فتاتنا أمضت الليل في المنزل الكبير».

قالت: «تابع كلامك».

«لقد ركنت سيارتها في الجهة المقابلة للشارع حوالي الساعة الثامنة ولاتزال هناك. غادر ثنائي آخر هذا الصباح، لا أعرف اسمهما. ميرسر وكابل في الداخل. المطر ينهمر بغزارة هنا، إنه الصباح المثالي لإجراء تغييرات، انطلقى يا فتاة».

«لقد حان الوقت. أطلعني على آخر المستجدات دائماً».

«سأفعل».

«سأكون هناك الاثنين».

كان ديني ورووكر يراقبان أيضاً. لقد اقتفيا أثر رخصة قيادة ميرسر من لوحة سيارتها التابعة لكارولاينا الشمالية وعرفا خلفيتها. عرفا اسمها وتاريخ عملها السابق، وإقامتها الحالية في نُزل المنارة، وسيرتها الذاتية المتعلقة بالنشر، وملكيته الجزئية لشاليه الشاطىء، وعرفا أنّ نويل بونيت كانت خارج البلدة وأنّ متجرها مغلق. لقد عرفا كل ما يمكن أن يعرفاه، عدا ما يجب فعله بالضبط لاحقاً.

اشتدت العاصفة، وأصبحت مجرد عذر آخر للبقاء في السرير. لم يكن بإمكان ميرسر أن تكتفى. وبروس، المحترف المُخضرم، كان لديه الدافع والقدرة التي وجدتها مذهلة في ذلك الوقت. بعد ساعة أو اثنتين انهارا أخيراً وغرقا في النوم. عندما استيقظت، كان قد ذهب. ارتدت رداء الحمام ونزلت فوجدته في المطبخ مرتدياً سترته القطنية المعتادة، وهو نشيط ومستعد ليوم قاسٍ آخر في بيع الكتب. تبادلا القبل وعلى الفور انسلت يداه داخل رداها.

قال: «يا له من جسد رائع».

«هل ستتركني؟».

قبلاً بعضهما مرة أخرى وتعانقا لوقت طويل. ابتعد عنها ببطء وقال:
«أحتاج لتفقد المتجر. البيع بالتجزئة عمل لعين، أنت تعلمين؟».

«متى سوف تعود؟».

«قريباً. سأجلب الغداء وسأأكل في الشرفة».

قالت بتصنّع: «أريد أن أذهب».

«تذهبين إلى أين؟ تعودين إلى نزل المنارة؟ كفي يا ميرسر، ابقِي هنا
وسوف أعود بسرعة كبيرة. إنها تُمطر بغزارة، والرياح تعصف، أظن أننا تحت
تأثير عاصفة هوجاء. اللعنة، الوضع خطير في الخارج. سوف ننسل داخل
السريـر ونقرأ طوال فترة بعد الظهر».

«أنا متأكدة من أنك لا تفكر بشيء سوى القراءة».

«أبقي رداء الحمام عليك وسوف أعود».

تبادلا القبل مرة أخرى وتعانقا أيضاً. أخيراً، تمكن من الفكك منها. قبّلها
على خدّها وقال وداعاً ثم غادر. سكبت ميرسر فنجان قهوة وأخذته إلى الشرفة
الخلفية حيث جلست على أرجوحة وشاهدت المطر. ببعض الجهد تمكنت من
التفكير بنفسها كساقطة، امرأة سيئة يُدفع لها كي تستخدم جسدها لتقوي
خداعها، لكن قلبها لم يكن مشاركاً في ذلك. كان بروس كابل زير نساء ميؤوس
منه قد يعاشر أي امرأة بغض النظر عن دوافعها. الآن كانت هي. والأسبوع
القادم ستكون هناك امرأة أخرى. هو لا يهتم أبداً للوفاء أو الثقة. لم يجب عليها

أن تهتم؟ هو لا يطلب أي التزام، ولا يتوقعه، ولا يعطيه بالمقابل. بالنسبة إليه، هذا كله متعة مادية، وبالنسبة إليها، في الوقت الحالي، الأمر صحيح كذلك. طردت أي إحساس بالذنب وفي الواقع ابتسمت وفكرت بعطلة نهاية أسبوع نشيطة في سريره. لم يتأخر كثيراً. تناولوا غداءً مؤلفاً من سلطة ونبيد، وسرعان ما شقّا طريقهما إلى البرج من أجل جولة أخرى. خلال إحدى الاستراحات، أحضر بروس زجاجة شارودنيه ورواية سميقة. قرّرا القراءة في الشرفة الخلفية وهما يجلسان على كرسيين هزازين ويصغيان لصوت المطر. هو يحمل روايته وهي تحمل الآي باد الخاص بها. سألها: «هل حقاً تستطيعين الاستمتاع بقراءة كتاب في هذا الشيء؟».

«بالتأكيد. الكلمات هي نفسها. هل جرّبت أحدها من قبل؟».

«لقد أعطاني موقع أمازون جهازاً من تلك الأجهزة منذ سنوات. لم أستطع التركيز وحسب. يمكن أن أكون محايداً».

«بلا مزاح. أتساءل لماذا؟».

«ماذا تقرئين؟».

«لمن تُقرع الأجراس. أنا أنتقل بين هيمينجواي وف. سكوت، وأحاول قراءة كل كتبهما. لقد أنهيت قراءة آخر الأثرياء المُتنفذين البارحة».

«و؟».

«إنها رواية مميزة حقاً، بالنظر إلى المكان الذي كان فيه عندما كتبها. في هوليوود، يحاول كسب بعض المال ويفشل جسدياً وعاطفياً. وهو شاب صغير جداً. مأساة أخرى».

«كانت تلك آخر رواية له، تلك التي لم يُنتهها؟».

«هذا ما يقولونه. يا لها من موهبة ضائعة».

«هل هذا تمرين من أجل الرواية؟».

«ربما. لا أزال غير متأكدة. ماذا تقرأ؟».

«إنها تُدعى التسونامي المفضل بالنسبة إليّ، أول رواية لشخص لا يستطيع الكتابة بشكل جيد».

«يا له من عنوان مريع».

«نعم، وهي لا تتحسن بأي شكل من الأشكال. لقد قرأتُ خمسين صفحة وبقي لي ستمائة، وها أنا أصارع. يجب أن يكون هناك قاعدة في النشر تجعل الروايات الأولى محددة بثلاثمائة صفحة ألا تعتقدين ذلك؟».

«أظن ذلك. روايتي كانت 280 صفحة فقط».

«كانت روايتك رائعة».

«شكراً. إذاً هل ستنتهيها؟».

«أشك في ذلك. أنا أقرأ مئة صفحة من أي كتاب، وعندئذٍ إذا لم يستطع الكاتب شدّ انتباهي فسوف أضع الكتاب جانباً. هناك كثير من الكتب الجيدة التي أريد قراءتها فلا أضيع وقتي بكتاب سيئ».

«الأمر نفسه معي، لكنّ حدودي هي خمسين صفحة. أنا لا أفهم أبداً الناس الذين يقرأون كتاباً لا يحبونه فعلاً، ويصممون على إنهائه لسبب غير معلوم. كانت تيسا مثلهم. قد ترمي الكتاب بعد قراءة الفصل الأول، ثم تمسكه وتشدّ على نفسها وتصارع لإنهاء أربعمائة صفحة إلى أن ينتهي. لم أفهم ذلك أبداً».

«أنا لم أفهم الأمر». أخذ رشفة من النبيذ، وهدق إلى الفناء الخلفي، ثم أمسك بالرواية. انتظرت حتى قلب صفحة ثم سألت: «هل لديك قواعد أخرى؟». ابتسم ثم وضع الرواية وقال: «أوه يا عزيزتي ميرسر، لدي قائمة بذلك. تُدعى (قواعد كابل العشرة لكتابة الرواية)، دليل رائع لكيفية جمع الأمور مع بعضها وضعها خبير قرأ أكثر من أربعة آلاف كتاب».

«هل تشرك أحداً فيه؟».

«أحياناً. سأرسله لك بالإيميل، لكنك لا تحتاجين إليه حقيقةً».

«ربما أحتاجه. أنا أحتاج إلى شيء ما. أعطني تلميحاً أو اثنين».

«حسناً، أنا أكره المُقدّمات. لقد أنهيت لتوي رواية لأحد الأشخاص الذين يقومون بجولة ترويجية وسيأتي إلى هنا في الأسبوع القادم. إنه يبدأ كتابه دائماً بمقدمة نموذجية، شيء دراماتيكي مثل قاتل يترصد امرأة أو إحدى الجثث، ثم يترك القارئ معلقاً، تذهب للفصل الأول، وهو بالطبع، لا علاقة له بالمقدمة، ثم إلى الفصل الثاني، وهو بالطبع لا علاقة له لا بالفصل الأول ولا بالمقدمة، ثم بعد حوالي ثلاثين صفحة يصف القارئ بالعودة إلى الحدث الذي في المقدمة، الذي يكون حينها قد نسي».

«أحب هذا، استمر في الكلام».

«هناك خطأ آخر يرتكبه المبتدئون وهو تقديم عشرين شخصية خلال الفصل الأول. خمس شخصيات تكفي، ولن تشوّش قارئك. ثم، إذا شعرت أنك بحاجة للاستعانة بالقاموس، ابحثي عن كلمة لها ثلاث مترادفات أو أقل. لدي مفردات سهلة ولا شيء يزعجني أكثر من كاتب يتباهى بكلمات كبيرة لم أسمع عنها من قبل. ثم، رجاءً، استخدم علامات الاستفهام في الحوار، وإلا

فسيكون المعنى مُحيرًا. القاعدة رقم خمسة: معظم الكُتّاب يستطردون كثيراً، لذا ابحتي دائماً عن أشياء لتختصرها، مثل أن تتخلصي من الجمل والمشاهد غير الضرورية. بإمكانني قول المزيد».

«أرجو أن تفعل. ينبغي عليّ أن أدون ملاحظات».

«كلا، لا ينبغي عليك أن تفعلي ذلك. أنت لست بحاجة إلى نصيحة. أنت كاتبة رائعة يا ميرسر، أنت بحاجة لقصة فقط».

«شكراً لك يا بروس. أنا بحاجة إلى التشجيع».

«أنا جدّي للغاية، وأنا لا أجاملك».

«حقاً».

ضحكا وأخذوا رشفة من النبيذ. توقف المطر، ولف ضباب كثيف المكان. سألته: «هل كتبت مرة من قبل؟».

هزّ كتفيه وأشاح بنظره ثم قال: «حاولت، عدة مرات، لكنني لم أنه ما كتبتة أبداً. إنه ليس اختصاصي. ولهذا أحترم الكُتّاب الجيدين منهم أياً يكن الأمر. أنا أرحب بهم وأحب أن أروّج لكل الكتب، لكن هناك كثيراً من الهراء في السوق. وأنا مُحبط من أناس مثل آندي آدم الذين يمتلكون الموهبة لكنهم يضيعونها بعادات سيئة».

«هل سمعت أخباراً عنه؟».

«ليس بعد. إنه محتجز بعيداً من دون أي تواصل. ربما سيتصل بعد أسبوع. إنها المرة الثالثة أو الرابعة له في مركز إعادة التأهيل، وأظن أنّ الأحداث ضده. فهو في أعماقه لا يريد أن يقلع عن الشرب».

«هذا محزن جداً».

«يبدو أنك تشعرين بالنعاس».

«لا بدّ وأنه النبيذ».

«دعينا نأخذ قيلولة».

تمكنا ببعض المجهود من الجلوس على إحدى الأراجيح الشبكية، وتثبيت نفسيهما عليها وهما متعانقان. وبينما هما يتأرجحان بلطف سألته: «هل هناك خطط لهذه الليلة؟».

«كنتُ أفكر بالشيء نفسه».

«لكنني بدأتُ أشعر بالملل من هذا المكان».

«حسناً، العشاء أمر لا مفر منه».

«لكنك رجل متزوج يا بروس، وأنا مجرد فتاة عطلة نهاية الأسبوع بالنسبة إليك. ماذا لو رأنا أحد؟».

«أنا لا أهتم يا ميرسر، ونويل لا تهتم. لم يجب عليك أن تهتمي؟».

«لستُ أدري. يبدو الأمر غريباً وحسب أن أتناول العشاء في مكان جميل ليلة السبت مع رجل متزوج».

«من قال إنه مكان جميل؟ إنه مكب نفايات، مطعم أكالات بحرية يقع بجانب النهر، طعام رائع، وأنا أوكد لك أنّ لا أحد هناك يشتري كتباً».

قبّلته ووضعت رأسها على صدره.

بدأ يوم الأحد بالطريقة نفسها التي بدأ فيها يوم السبت، لكن من دون صداد كحولي. قدّم بروس طعام الفطور في الفراش، كعك مُحلّى مع النقانق، وأمضيا ساعتين يتصفحان جريدة النيويورك تايمز. عندما اقترب وقت الظهر، احتاجت ميرسر لاستراحة. كانت على وشك توديعه عندما قال بروس: «اسمعي، لدي نقص في الأيدي العاملة في المتجر فترة بعد ظهر اليوم وسيكون المكان مزدحماً. يجب أن أذهب للعمل».

«فكرة جيدة. بما أنني الآن أعرف قواعد كتابة الرواية، أريد أن أقوم بعمل بعض الأشياء».

«تسعدني دائماً خدمتك»، قالها بابتسامة ثم قبلها على خدّها. حملا الصينيتين إلى المطبخ، ووضعوا الصحون في الغسالة، واختفى بروس داخل الجناح الرئيسي في الطابق الثاني، وعادت ميرسر إلى البرج، حيث ارتدت ملابسها بسرعة، وغادرت من دون وداع آخر.

لو أنها أنجزت أي شيء خلال عطلة الأسبوع هذه، فهو لم يكن واضحاً. لم تكن هناك من أجل الجنس ولم تكن هناك كي تكتب روايته، لقد دُفع لها كثير من المال كي تجمع أدلة وربما لتحلّ جريمة. وبهذا الخصوص، شعرت وكأنها أنجزت القليل فعلاً.

في جناحها، ارتدت البيكيني، نظرت إلى نفسها بإعجاب في المرآة، وحاولت تذكر كل الأشياء العجيبة التي قالها عن جسدها. كان نحيلاً ومُسمراً وهي فخورة إلى حد ما لأنها استخدمته أخيراً. ارتدت قميصاً قطنياً أبيض، وحملت صندلها، ثم ذهبت في نزهة طويلة على الشاطئ.

اتصل بروس عند الساعة السابعة من مساء الأحد، قال إنه يفتقدها بشدة
وإنه لا يستطيع تمضية الليل من دونها، وسألها إن كانت تستطيع المجيء إلى
المتجر لشرب كأس عند الإغلاق؟

بالتأكيد. ما الشيء الآخر الذي يجب أن تفعله؟ كانت جدر جناحها الصغير
الشنيع تضيق عليها، ولم تكن قد كتبت أكثر من مائة كلمة.

دخلت المتجر قبل بضع دقائق من الساعة التاسعة. كان بروس يحاسب آخر
زبون ويبدو أنه يعمل لوحده. عندما غادر الزبون، أغلق الباب بسرعة وأطفأ
الأضواء. قال: «اتبعيني»، وقادها إلى الطابق الثاني ومنه إلى المقهى حيث
يقوم بإطفاء الأضواء في كل مكان يذهب إليه. فتح باباً لم تكن قد انتبهت إليه
من قبل ودخلا شقته.

قال وهو يُشعل الأضواء: «كهفي الخاص. لقد عشت هنا طيلة السنوات
العشر الأولى التي امتلكتُ فيها المتجر. في ذلك الوقت كان يشغل الطابق الثاني
كله، لكن فيما بعد أتى المقهى. اجلسي». أشار إلى أريكة جلدية ضخمة، تشغل
الجدار بأكمله مُغطاة بالوسائد واللحف. ثمة شاشة كبيرة مقابل الأريكة
موضوعة على طاولة متينة وقليلة الارتفاع، ويوجد حولها بالطبع، رفوف
ملينة بالكتب.

سألها وهو يخطو خلف كشك لوجبات خفيفة ويفتح البراد: «شمبانيا؟». «
بالطبع».

أخرج زجاجة وبسرعة نزع السدادة ثم ملاً كأسين طويلين وقال: «نخبك». «
طرقا الكأسين ببعضهما وكرع معظم ما في كأسه ثم قال وهو يمسح فمه
بظهر يده: «لقد كنتُ حقاً بحاجة إلى كأس من الشراب».

«هذا واضح. هل أنت بخير؟».

«يوم صعب. اتصل أحد الموظفين، وقال إنه مريض، لذا عملتُ في الطابق الأرضي». أفرغ كأسه ثم أعاد ملأها. خلع سترته، وفكّ ربطة عنقه، وأرخى ثنية قميصه، ثم خلع حذاءه المصنوع من جلد الغزال المغبر. اتجها نحو الكنبه وغاصا فيها.

سألها وهو يُفرغ كأسه مرة أخرى في جوفه: «كيف كان يومك؟».

«كالعادة. تنزهتُ على الشاطئ، وتشمست، وحاولت الكتابة، ثم عدتُ إلى الشاطئ، وحاولت أن أكتب أكثر، وأخذت قيلولته». «آه، حياة الكتابة. أنا أحسدك».

«تمكنتُ من تقليص مقدمة روايتي وإضافة علامات استفهام لحواري، والتخلص من الكلمات الكبيرة، وسأختصر المزيد منها لكن ليس هناك ما يكفي لاختصاره».

ضحك بروس وأخذ كأساً أخرى ثم قال: «أنت رائعة، هل تعرفين ذلك؟».

«وأنت محتال يا بروس. لقد أغويتني صباح البارحة و...».

«في الواقع، حدث ذلك في الصباح والظهر والليل».

«وهنا نمضي مرة أخرى. هل كنت دائماً رجلاً نبيلاً بهذا الشكل؟».

«نعم. دائماً. لقد أخبرتك يا ميرسر، أنا ضعيف تجاه النساء. عندما أرى امرأة جميلة، لا أفكر إلا بشيء واحد، وهذه حالي منذ أيام الجامعة. وعندما ذهبتُ إلى جامعة أوبرن وكنتُ فجأة محاطاً بآلاف الفتيات الجميلات، أصبحتُ طائشاً».

«هذا ليس صحيحاً. هل فكرت بالخضوع لعلاج نفسي؟».

«ماذا؟ من يحتاج لذلك؟ هذه لعبة بالنسبة إليّ، ويجب أن تعترفي أنني لعبتها بشكل جيد إلى حد ما».

أومأت برأسها، وأخذت رشفة ثالثة من كأسها. كانت كأسه فارغة، ولذا ملأه مرة أخرى. قالت: «اهدأ أيها القوي»، لكنه تجاهلها. وعندما عاد إلى الأريكة سألته: «هل وقعت في الحب ولو لمرة في حياتك؟».

«أنا أحب نويل وهي تحبني. وكلانا سعيد جداً».

«لكنّ الحب هو ثقة والتزام ومشاركة في كل مناحي حياتكما».

«أوه، نحن نتشارك كثيراً، صدقيني».

«أنت حالة ميؤوس منها».

«لا تكوني بلهاء يا ميرسر. نحن لا نتكلم عن الحب، نحن نتكلم عن الفعل المادي، عن متعة جسدية خالصة. أنت لستِ على وشك التورط مع رجل متزوج وأنا لا أومن بالعلاقات العاطفية. سوف نقوم بذلك متى شئتِ أو أنه بإمكاننا التوقف في الحال. وسنبقى أصدقاء من دون قيد أو شرط».

«أصدقاء؟ كم عدد صديقاتك؟».

«لا صديقة لي. ربما بعض المعارف. انظري، لو أنني عرفت أنك تخططين لتحليل شخصيتي لما كنتُ اتصلتُ بك».

«لمَ اتصلت؟».

«ظننتُ أنكِ اشتقتِ إلي».

ضحكا فجأةً وضع بروس كأسه على الطاولة، وأخذ كأسها ثم وضعها

بجانِب كَأسه، أَمسِك بيدها وقال: «تعالِي معي. لديّ شيء أريك إياه».

«ما هذا الشيء؟».

«مفاجأة. هيا. إنها في الأسفل».

قادها حافي القدمين إلى خارج الشقة عبر المقهى ومنها إلى الطابق الأول ثم إلى باب القبو. فتحه وأدار مفتاح الإنارة، ثم نزلاً عبر السلم الخشبي إلى القبو. أشعل ضوءاً آخر، ثم أدخل الرمز السري الذي فتح قفل السرداب.

قالت بصوت يكاد لا يُسمع: «من الأفضل أن يكون شيئاً جيداً».

«لن تصدقي». فتح باب السرداب المعدني السميك، ودخل ثم أشعل ضوءاً آخر. مشى باتجاه الخزانة، وأدخل رمزاً سرياً آخر، وانتظر لحظة كي تفتح الأقفال الهيدروليكية. فُكَّ قفل الباب بصوت طقطقة عالٍ ثم فتحه بلطف. راقبت ميرسر كل شيء وهي قريبة قدر الإمكان. فهي تعلم أنه من المُتوقع منها أن تكتب كل التفاصيل لإيلين والفريق. بدأ الجزء الداخلي للسرداب والخزانة مثلما رأتهما في المرة الماضية. سحب بروس واحد من الجوارير الأربعة السفلية. كان هناك صندوقان خشبيان متماثلان، قدرتهما لاحقاً بمساحة أربعة عشر إنشاً ومصنوعان مما اعتقدت أنه خشب الأرز. أخرج واحداً منهما وخطا نحو الطاولة الصغيرة في وسط السرداب. ابتسم لها وكأنه يكشف عن كنز نادر.

كان سطح الصندوق العلوي مربوطاً بثلاث مفصلات صغيرة، فرفعه بلطف. ثمة شيء في الداخل بدا أنه صندوق من الكرتون لونه رمادي. رفعه بحرص ووضعهُ على الطاولة. قال: «هذا يُدعى صندوق تخزين المحفوظات، وتستخدمه معظم المكتبات، وكذلك جامعو الكتب المهمون. لقد أتى من جامعة برينستون». فتح الصندوق ثم قال بفخر: «المخطوط الأصلي لرواية آخر

الأثرياء المُتنفذين».

ارتخى فكّ ميرسر وهي تحدّق بذهول وتقترب من الصندوق. حاولت أن تتكلم لكنها لم تجد الكلمات.

يوجد في الصندوق رزمة أوراق ذات حروف باهتة، ربما بسماكة أربعة إنشات، من الواضح أنها قديمة للغاية. في الواقع لم يكن هناك عنوان للصفحة، بدا وكأنّ فيتزجيرالد بدأ بالفصل الأول وهو يفكر بترتيب الأمور لاحقاً. لم يكن خطّ يده جميلاً، وبدا عصياً على القراءة، وكان قد بدأ بوضع ملاحظات في الهوامش منذ البداية. لمس بروس أطراف المخطوط وتابع كلامه: «عندما مات فجأةً في العام 1940، لم تكن الرواية قد اكتملت بعد، لكنه عمل على الخطوط العريضة، وترك خلفه كمية كبيرة من الملاحظات والملخصات. كان لديه صديق مُقرب يُدعى إدموند ويلسون، يعمل محرراً وناقداً، جمع أجزاء القصة مع بعضها، ونشرها بعد سنة. اعتبرها العديد من النقاد كأفضل عمل لفيتزجيرالد، وهو كما قلتِ، رائع نظراً لحالته الصحيّة التي كان فيها».

قالت: «أنت تمزح، صحيح؟».

«أمزح بشأن ماذا؟».

«هذا المخطوط. هل هو الذي سُرق؟».

«نعم، لكنني لست من سرقه».

«حسناً. ماذا يفعل هنا؟».

«إنها قصة طويلة جداً، ولن أضجرك بالتفاصيل التي لا أعلم معظمها. لقد سُرقت المخطوطات الخمسة كلها في الخريف الماضي من مكتبة فايرستون في

جامعة برينستون. كان هناك عصابة من اللصوص وقد شعروا بالخوف عندما أمسك مكتب التحقيقات الفيدرالي باثنين منهما على الفور تقريباً. خبأ الآخرون غنيمتهم واختفوا. دخلت المخطوطات بهدوء إلى السوق السوداء. ومن هناك بيعت كل واحد منها بشكل منفصل. لست أدري مكان المخطوطات الأربعة الباقية لكني أظن أنها هربت إلى خارج البلاد».

«لماذا أنت متورط في الأمر يا بروس؟».

«الأمر معقد، لكني لست متورطاً إلى حد كبير. هل تودين لمس الصفحات؟».

«كلا. لا أحب أن أتواجد هنا. هذا الوضع يجعلني متوترة».

«اهديني. أنا فقط أخبئ هذا المخطوط لأحد الأصدقاء».

«لا بدّ وأنه صديق مهم».

«إنه كذلك. نحن أصدقاء منذ زمن طويل وأنا أثق به ثقة عمياء. إنه يعمل على وساطة لصفقة مع أحد جامعي الكتب في لندن».

«وماذا ستستفيد من هذا الأمر؟».

«سأحصل على بعض الدولارات».

ابتعدت ميرسر وذهبت إلى الجانب الآخر من الطاولة ثم قالت: «يبدو أنك تخاطر كثيراً من أجل بضعة دولارات. أنت تستحوذ على ملكية مسروقة. وهذه جريمة قد تسبب سجنك لوقت طويل».

«إنها جريمة فقط في حال تم القبض عليك».

«وأنت جعلتني الآن متواطئة في هذا المخطط يا بروس. أود الذهاب الآن».

«كفى يا ميرسر، أنت متزمتة للغاية. لا مكافأة من دون مخاطرة. وأنت لست متواظنة في أي شيء، لأنه لن يعرف أحد أبداً. كيف يمكن لأي شخص أن يُثبت أنك رأيتِ هذا المخطوط على الإطلاق؟».

«لست أدري. من رأى هذا أيضاً؟».

«نحن الاثنان فقط».

«نويل لا تعرف؟».

«بالطبع لا. فهي لا تهتم. هي تدير عملها وأنا أدير عملي».

«وجزاء من عملك هو الإتجار غير المشروع بالكتب والمخطوطات المسروقة؟».

«أحياناً». أغلق صندوق تخزين المحفوظات، وأعادته إلى مكانه في الصندوق الخشبي، ثم أعاده بحذر إلى الجارور وأغلقه.
قالت: «أريد الذهاب حقاً».

«حسناً، حسناً. لم أتوقع أنك ستفزعين. قلتِ للتو إنك أنهيتِ قراءة رواية آخر الأثرياء المُتنفذين وظننتُ أنك ستبهرين».

«أنبهر، حسناً. ربما أكون احترت وخفت لدرجة الموت، الكثير من الأشياء حالياً، لكني لستُ منبهرة يا بروس. هذه أمور جنونية».

أقفل الخزانة، ومن ثم السرداب، وبعدها صعدا السلالم وأطفأ الأضواء. توجهت ميرسر نحو الباب الرئيسي في الطابق الأرضي. سألتها: «إلى أين أنت ذاهبة؟».

«أنا ذاهبة. أرجوك افتح قفل الباب».

أمسك بروس بها، وأدارها نحوه ثم ضغط عليها بيده بشدة وقال:
«اسمعي، أنا آسف، اتفقنا؟».

ابتعدت عنه وقالت: «أريد الذهاب. لن أبقى في هذا المتجر».

«مهلاً، أنت تبالغين في رد فعلك يا ميرسر. دعينا نصعد للطابق الثاني
ونتهي زجاجة الشمبانيا».

«كلا يا بروس، أنا لست في مزاج جيد الآن. لا أستطيع تصديق ذلك».

«أنا آسف».

«أنت قلت هذا من قبل، افتح قفل الباب من فضلك الآن».

أخرج مفتاحاً وفتح القفل. أسرعت إلى الخارج دون أي كلمة أخرى ومشت
نحو سيارتها.

14

وُضعت الخطة بناءً على افتراضات وتوقعات ولم تكن الآمال كبيرة، لكنها
نجحت الآن. أصبح لديهم الدليل، والجواب الذي طالما سعوا إليه، لكن هل
بإمكانها التنفيذ؟ هل بإمكانها اتخاذ الخطوة التالية الحاسمة وإجراء الاتصال
الذي سيؤدي ببروس إلى السجن للسنوات العشر القادمة؟ فكرت بفشلته ودماره
والإذلال الذي يلحق به، ورعبه جراء الإمساك به بالجرم المشهود، والقبض
عليه، واستدعائه للمحكمة ومن ثم سجنه. ما الذي سيحدث لمتجر كتبه الجميل
والهام؟ ولمنزله؟ ولأصدقائه؟ ولمجموعته العزيزة من الكتب النادرة؟ سيكون
لخيانتها عواقب وخيمة، وستؤدي إلى الإضرار بأكثر من شخص واحد. ربما
يستحق كابل كل ما سيحدث له، لكن ليس موظفوه، ولا أصدقائه، ولا حتى
نويل.

حتى منتصف الليل، كانت ميرسر على الشاطئ، تلفت نفسها بوشاح، وأصابع قدميها مغروزة في الرمال، تحدق إلى المحيط الذي يضيئه نور القمر، وتسال نفسها مرة أخرى لماذا قالت نعم لإيلين شيلبي. عرفت الجواب، لكنّ النقود بدت أقل أهمية بكثير الآن. فالدمار الذي كانت على وشك التسبب به أكبر بكثير من المال الآتي من ورائه. الحقيقة هي أنها معجبة ببروس كابل، وابتسامته الجميلة وسهولة التعامل معه ووسامته، وخفة دمه وذكائه، وتقديره للكُتاب، ومهارته كعشيق، وحضوره أمام الآخرين، وأصدقائه، وسمعته، وهيبته التي بدت أحياناً جاذبة. كانت مبتهجة بشكل سري لكونها قريبة جداً منه، وأنها تُعتبر من ضمن دائرة علاقته الضيقة، ونعم، أن تكون مجرد واحدة أخرى في سلسلته الطويلة من النساء. لقد حظيت بسببه خلال الأسابيع الستة الماضية، بمتعة أكثر مما عاشتها خلال السنوات الست الماضية.

ثمة خيار في الوقت الراهن هو أن تبقى صامتة وحسب، وتسمح للأشياء بأن تأخذ مجراها الطبيعي. ستستمر إيلين وعصابتها وربما مكتب التحقيق الفيدرالي، بالقيام بما يجب عليهم القيام به مهما يكن. بإمكان ميرسر أن تُغرق في العواطف وتتظاهر بالإحباط وأنها غير قادرة على تحقيق أكثر من ذلك. لقد شقّت طريقها نحو السرداب الموجود في القبو، وقدمت كثيراً من الأدلة. اللعنة، حتى أنها عاشرت الرجل وربما تفعل ذلك مرة أخرى. لقد فعلت ما بوسعها حتى الآن وستستمر في التعاون. ربما يقتصر دوره على نقل رواية آخر الأثرياء المُتنفذين كما قال وحسب، من دون أي أثر، إلى السوق السوداء الواسعة الغموض، ويكون سردابه خالياً عندما يأتي الفيدراليون. ستنتهي شهرها الستة عما قريب وتغادر الجزيرة وهي تحمل ذكريات عزيزة. حتى إنها ربما تعود لقضاء عطلات الصيف في الشاليه، أو الأفضل حتى، أن تعود في رحلة

ترويجية يوماً ما مع رواية جديدة جيدة. ومن ثم رواية أخرى.

لم يكن الاتفاق معها مشروطاً بعملية ناجحة. فيجب أن يُدفع لها بغض النظر عن النتيجة. في الوقت الحالي أصبح قرضها الطلابي من الماضي. ونصف الأجر في البنك. وهي متأكدة أنّ النصف الآخر سيصل حسب الوعد.

لقسم طويل من الليلة، أقنعت نفسها بأن تبقى صامتة، دعي أيام الصيف الكسولة تمر، لا تهزّي القارب. سيأتي الخريف قريباً وستكون في مكان آخر.

هل كان هناك خطأ وصواب من الناحية الأخلاقية؟ لقد وافقت أن تشارك في خطة هدفها النهائي هو اختراق عالم كابل وإيجاد المخطوطات. هذا ما فعلته أخيراً، رغم أنه حصل فقط بسبب حماقته التي لا تُصدّق. لقد نجحت العملية التي كانت ميرسر في خضمّها. ما هو الحق الذي تمتلكه الآن لتشكّك بشرعية الخطة؟ لقد تورط بروس عمداً بمؤامرة التخلص من المخطوطات، وبيعها من أجل الحصول على ربح وإبقائها بعيداً عن مالكةا الشرعي. لم يكن هناك معايير أخلاقية مع بروس كابل. لديه سمعة في التعامل مع الكتب المسروقة وقد اعترف لها بذلك. كان يعرف المخاطر، وبدا أنه يقبلها بحماس، سيُقبض عليه عاجلاً أو آجلاً، إما بسبب هذه الجريمة أو بسبب أخرى لاحقة.

بدأت تمشي عند الخط الفاصل بين الماء والرمال، كانت الأمواج الهادئة تدفع بزبد البحر بهدوء إلى الرمال، ولم يكن هناك غيوم ويمكن رؤية الرمال البيضاء عن بعد أميال. وفي الأفق، كانت أضواء عشرات قوارب الصيد تتلألأ في البحر الساكن. ومن دون أن تعي، وصلت إلى الميناء الشمالي، حيث هناك ممر خشبي طويل يمتد بعيداً داخل المياه. لقد تجنبت القدوم إلى هذه المنطقة منذ عودتها إلى الجزيرة لأنه المكان الذي سُحبت إليه جثة تيسا. لماذا كانت

حفيدتها موجودة هناك الآن؟

صعدت السلالم ومشيت إلى نهاية الميناء، حيث اتكأت على أحد الأسوار وحدقت إلى الأفق. ماذا كانت تيسا لتفعل؟ حسناً، بدايةً، لن تورط تيسا نفسها في مثل هذه الورطة أبداً. لن تسمح لنفسها أبداً أن تتعرض للخطر، ولن يُغريها المال أبداً. مع تيسا، الحق هو الحق والخطأ هو الخطأ وليس هناك مناطق رمادية. كان الكذب خطيئة، كلماتك هي كلماتك، والصفقة هي صفقة، بغض النظر عن الصعوبات التي تسببها للآخرين.

قلقت ميرسر مع احتدام المعركة. أخيراً قررت، في ساعة مريعة من الصباح، أنّ أفضل طريقة للبقاء صامتة هي إعادة النقود والابتعاد. لكن حتى عندها، ستحتفظ بسر تعود ملكيته لأناس آخرين، للأشخاص الطيبين. ستكون تيسا مليئة بالحقد لو أنها تراجعت الآن.

عند الساعة الثالثة فجراً خلدت إلى سريرها، وليس هناك أمل في النوم.

وفي الخامسة بالضبط، أجرت الاتصال.

15

كانت إيلين مستيقظة، تحتسي أول كوب قهوة بهدوء في الظلام وزوجها هاجع إلى جانبها. تقتضي الخطة القيام برحلة أخرى إلى جزيرة كامينو، الرحلة العاشرة أو الحادية عشرة حتى الآن. ستستقل الطائرة نفسها من مطار ريغان الدولي إلى جاكسونفيل، حيث سيكون إما ريك أو جراهام في انتظارها. سيلتقون في منزلهم الآمن على الشاطئ ويسيّمون الأمور. ثمة حماسة هناك لأنّ فتاتهم أمضت عطلة نهاية الأسبوع مع هدفهم. بالتأكيد علمت بشيء ما. سيستدعونها للقاء في وقت متأخر من فترة بعد الظهر ويحصلون على آخر

الأخبار.

لكن عند الساعة 5:01، ذهبت كل الخطط أدراج الرياح.

عندما رنّ جرس هاتف إيلين عرفت المتّصل، فنهضت من السرير وذهبت إلى المطبخ. قالت: «الوقت مبكر قليلاً بالنسبة إليك».

قالت ميرسر: «إنه ليس ذكياً بقدر ما ظننا. لديه مخطوط رواية آخر الأثرياء المتنفذين، وقد أراني إياه الليلة الماضية. إنه موجود في سردابه، تماماً كما اعتقدنا».

أغمضت إيلين عينيها وقالت: «هل أنت متأكدة؟».

«نعم. بناءً على النسخ التي أريتني إياها، أنا متأكدة تماماً».

جلست إيلين على أحد كراسي طاولة الفطور وقالت: «أخبريني كل شيء».

16

اتصلت إيلين برئيس وحدة الممتلكات النادرة في مكتب التحقيق الفيدرالي لامار برادشو عند الساعة السادسة، وأيقظته. التقيا بعد ساعتين في مكتبه الكائن في مبنى هووفر في جادة بنسلفانيا من أجل إحاطة كاملة. وكما توقعته، كان برادشو وفريقه منزعجين من أنّ إيلين وشركتها وضعوا معاً مخططاً سرياً للتجسس على بروس كابل، أحد المشبوهين الذين تناقشوا بشأنه في الشهر المنصرم. كان كابل موجوداً على لائحة مكتب التحقيقات الفيدرالي بالإضافة إلى مجموعة أخرى، لكن فقط بسبب سمعته، لم يأخذه برادشو على محمل الجد. يكره مكتب التحقيقات الفيدرالي القيام بتحقيقات خاصة موازية، لكن في الوقت الحالي لن يكون التشاحن بشأن مناطق النفوذ مثمراً. لقد اضطر برادشو أيضاً للتنازل عن كبريائه لأنّ إيلين شيلبي وجدت البضاعة المسروقة مرة

أخرى. أُرْسِيَتْ هَدَنَةٌ سَرِيْعَةٌ، وَسَادَ السَّلَامُ، وَوُضِعَتْ خَطَطٌ مُشْتَرَكَةٌ.

17

عند الساعة السادسة استيقظ بروس كابل في شقته الكائنة فوق المتجر، شرب القهوة، وقرأ لمدة ساعة قبل النزول إلى الطابق السفلي إلى مكتبه في غرفة الطبقات الأولى، شغل كومبيوتره، وبدأ بمراجعة مخزونه. كان الجزء المزعج في عمله هو تحديد الكتب التي لن تُباع والتي يجب إعادتها لناشريها. كل كتاب يُعاد يعني فشلاً من جهته، لكن بعد عشرين عاماً ازداد اعتياداً على هذه العملية، تجوّل مدة ساعة في المتجر، يسحب الكتب من الرفوف ومن الطاولات ويرتبها في أكداص صغيرة في المخزن.

عند الساعة 8:45 كما هي العادة، عاد إلى شقته، وأخذ حماماً على عجل، ثم ارتدى إحدى ستراته القطنية، وعند الساعة التاسعة تماماً فتح الباب الرئيسي، وصل اثنان من الموظفين أولاً، وحدد لهما بدقة ما يجب عليهما القيام به. بعد مضي ثلاثين دقيقة، ذهب إلى القبو، وفتح قفل الباب المعدني المؤدي إلى منطقة تخزين متجر نويل. كان جايك هناك مسبقاً يقوم بدقّ المسامير في الجانب الخلفي لأحد الكراسي القديمة. لقد انتهى العمل بطاولة الكاتب الخاصة بميرسر وهي موضوعة جانباً.

بعد المجاملات، قال بروس: «رغم كل شيء، لن تشتري صديقتنا الأنسة الطاولة. تريد نويل شحنها إلى أحد العناوين في فورت لودرديل. توقف عما تقوم به وجد صندوقاً».

قال جايك: «بالتأكيد، اليوم؟».

«نعم، إنه عمل مُستعجل. قمّ به على الفور».

عند الساعة 11:06، أقلت إحدى الطائرات من مطار دالاس الدولي وعلى متنها إيلين شيلبي واثنان من مساعديها، بالإضافة إلى لامار برادشو وأربعة عملاء خاصين. وفي الطريق، تكلم برادشو مرة أخرى مع النائب العام في فلوريدا، كما اتصلت إيلين بميرسر التي كانت مُحفّية في إحدى المكتبات المحلية تحاول الكتابة. قالت إنها أدركت استحالة أن تكون مبدعة في نُزل المبيت والإفطار. اعتقدت إيلين أنه من الأفضل لها أن تبقى بعيدة عن متجر الكتب لبضعة أيام، وأكدت ميرسر لها أنه لا خطط لديها للاقتراب منه. لقد رأث ما يكفي من بروس وهي بحاجة إلى استراحة.

عند الساعة 11:20، ركنت شاحنة مغلقة مجهولة في الشارع الرئيسي لسانتا روزا مقابل متجر الكتب. يوجد في داخلها ثلاثة عملاء ميدانيين تابعين لمكتب جاكسونفيل. وجّهوا كاميرا فيديو على الباب الرئيسي لمتجر باي بوكس وبدأوا بتصوير كل من يدخل ويخرج. ثمة شاحنة مغلقة أخرى فيها عميلان ميدانيان، ركنت في الشارع الثالث وبدأت عملية المراقبة. كانت مهمتهم تصوير ومراقبة كل شحنة تدخل وتخرج من المتجر.

عند الساعة 11:40، دخل أحد العملاء وهو يرتدي بنطالاً قصيراً وينتعل صندلاً من الباب الرئيسي وتجول لعدة دقائق. لم يرَ كابل. اشترى نسخة صوتية لرواية الحمامة الوحيدة نقداً ثم غادر المتجر. فتح أحد الفنيين في الشاحنة المغلقة الأولى الصندوق، وأخرج الأقراص المدمجة الثمانية، وركّب كاميرا صغيرة وبطارية.

عند الساعة 12:15، غادر كابل المتجر مع شخص مجهول ومشيا في الشارع ليتناولوا الغداء. بعد خمس دقائق، دخلت عميلة أخرى ترتدي بنطالاً قصيراً وتنتعل صندلاً أيضاً، المتجر وبحوزتها علبة رواية الحمامة الوحيدة الصوتي. اشترت قهوة من الطابق الثاني، وأمضت بعض الوقت، ثم عادت إلى الطابق الأرضي، واختارت كتابي جيب. عندما ذهب الموظف إلى القسم الخلفي من المتجر، أعادت العميلة بمهارة صندوق رواية الحمامة الوحيدة إلى خزانة الملفات الصوتية وأخذت الصندوق المجاور له وهو فيلم بعنوان الفيلم الأخير. دفعت ثمن كتابي الجيب والفيلم، ثم سألت الموظف عن مكان جميل لتناول الغداء، كان العملاء في الشاحنة المغلقة الأولى يحدقون إلى أحد الكومبيوترات المحمولة. ومن الداخل، أصبح بإمكانهم الآن أخذ صورة أمامية واضحة لكل شخص يدخل المتجر. تمنوا فقط أن لا يرغب أحد بالاستماع إلى الأقراص المدمجة للحمامة الوحيدة في أي وقت قريب.

عند الساعة 12:31، حطت الطائرة في المطار الصغير داخل جزيرة كامينو، على بعد عشر دقائق من وسط بلدة سانتا روزا. كان ريك وجراهام هناك للقاء إيلين ومساعدتها. أقلت عربتا نقل رباعيتا الدفع برادشو وطاقمه. ولأنه يوم الإثنين، كانت غرف الفنادق متوفرة، لبضعة أيام على أية حال، وحُجز للعديد منهم في أحد الفنادق قرب المرفأ، على بعد أقل من خمس دقائق مشياً من متجر الكتب. أخذ برادشو الجناح الأكبر وجّهز مركز قيادته. كانت الكومبيوترات المحمولة مُرتبة على إحدى الطاومات، وصور المراقبة الأمنية من الكاميرات تُعرض باستمرار.

بعد غداء سريع، وصلت ميرسر إلى الجناح، وبعد التعارف، أجفلت من مشهد رجال الشرطة، وشعرت بالغثيان لفكرة أنها أطلقت العنان لكل أولئك

الناس من أجل الإمساك ببروس كابل الغافل عما يحدث.

استجوبها برادشو بوجود إيلين وعميل خاص آخر اسمه فانو. أعادت سرد قصتها، ولم تترك شيئاً سوى التفاصيل الحميمة لعطلة نهاية الأسبوع التي قضتها مع بروس، علاقة عابرة رومانسية إلى حد ما بدت الآن، مثل علاقة جنسية منذ زمن طويل تشعر بالحنين إليها. أراها برادشو سلسلة من صور عالية الدقة خاصة بمخطوطات فيتزجيرالد التقطتها جامعة برينستون قبل سنوات. كانت إيلين تمتلك مجموعة الصور نفسها ولقد رأتها ميرسر كلها من قبل. نعم، نعم، برأيها، ما رآته الليلة الماضية في سرداب القبو كان رواية آخر الأثرياء المُتنفذين الأصلية.

نعم، ربما تكون مزورة. كل شيء ممكن، لكنها لم تكن تعتقد ذلك. لم يكون بروس بهذه الحمائية من أجل مخطوط مزور؟

عندما كرّر برادشو أحد الأسئلة للمرة الثالثة، وفعل ذلك بنبرة ريبة، غضبت ميرسر وسألت: «ألسنا في الفريق نفسه هنا؟».

تدخل فانو وخفف من حدة الموقف بقوله: «بالطبع يا ميرسر، نحن فقط بحاجة إلى أن نفعل كل شيء بشكل صحيح».

«لقد فعلته بالشكل الصحيح، اتفقنا؟».

بعد أخذ ورد لمدة ساعة، اقتنعت ميرسر بأنّ إيلين شيلبي أدكى وأكثر سلاسة من برادشو وفانو. لكنّ إيلين قامت بتسليمها لمكتب التحقيقات الفيدرالي ولا شكّ أنهم سيستلمون زمام الأمور حتى النهاية. خلال إحدى الاستراحات، تلقى برادشو مكالمة من أحد مساعدي النائب العام في جاكسونفيل وأصبحت الأمور محتدمة. بدا وكأنّ قاضي المحكمة الفيدرالية هناك

يُصر على جلسة استماع مغلقة بحضور «الشاهدة»، بدلاً من السماح «للشاهدة» بالشهادة عبر الفيديو. هذا أزعج برادشو وفانو، لكنهما لم يستطيعا فعل شيء.

وُضعت ميرسر عند الساعة 12:15 في إحدى السيارات حيث ريك وراء المقود وجراهام يجلس في المقعد الأمامي بينما إيلين معها في المقعد الخلفي. لحقا بسيارة دفع رباعي مليئة بعملاء مكتب التحقيق الفيدرالي وانطلقوا من الجزيرة باتجاه جاكسونفيل. وعلى الجسر فوق نهر كامينو، كسرت ميرسر الجليد بقولها: «حسناً، قولوا لي، ما الذي يحصل؟».

حدّق ريك وجراهام إلى الأمام ولم ينبسا ببنت شفة. تتحنّت إيلين وقالت: «هذا كله هراء فيدرالي. العميل الفيدرالي برادشو غاضب من النائب العام في هذه المقاطعة، ويبدو أنّ الجميع غاضب من قاضي المحكمة الفيدرالية الذي يُصدر مذكرات التفتيش. كانوا يعتقدون أنّ لديهم تفاهماً يقضي ببقائك في الجزيرة والإدلاء بأقوالك عبر الفيديو. يقول برادشو إنهم يفعلون ذلك طوال الوقت، لكن لسبب ما يريد هذا القاضي الفيدرالي سماعك بشكل شخصي. لذا نحن في طريقنا إلى المحكمة».

«محكمة؟ لم تقولي أي شيء أبداً بخصوص الذهاب إلى المحكمة».

«مبنى المحكمة الفيدرالية. ربما سنلتقي بالقاضي بشكل شخصي في مكتبه أو شيء من هذا القبيل. لا تقلقي».

«من السهل عليك قول هذا. لديّ سؤال. إذا ما قبض على كابل، هل يمكنه الذهاب إلى المحكمة رغم أنه أمسك به بالجرم المشهود مع المخطوط المسروق؟».

نظرت إيلين للأمام وقالت: «جراهام، أنت المُحامي».

شخر جراهام وكأنما قالت نكتة. وقال: «لدي شهادة حقوق لكني لم أستخدمها أبداً. لكن لا، لا يُمكن إجبار أي متهم على الاعتراف بالذنب. ولهذا، يمكن لأي شخص مُتهم بجريمة ما أن يصرّ على المحاكمة. لكن لن يحدث ذلك، ليس في هذه الحالة».

«ولمَ لا؟».

«في حال كان المخطوط لدى كابل، سيضغطون عليه بشكل هائل إلى أن يدلي بما لديه من معلومات. إنّ استعادة المخطوطات الخمسة أكثر أهمية بكثير من معاقبة اللصوص والمحتالين. سيعرضون على كابل كل أنواع الصفقات الجيدة كي يُفرغ ما في جعبته ويدلّهم على بقية المخطوطات. ليس لدينا فكرة عما يعرفه، لكن بإمكانك المراهنة على أنه سيبدأ بتقديم الأدلة والمعلومات كي ينقذ نفسه».

لكن ماذا لو فرضنا أنه استمر في المحاكمة، عندها لن يكون هناك سبيل كي أُستدعى كشاهدة، صحيح؟».

بقي ثلاثتهم صامتين بينما كانت ميرسر تنتظر. وبعد صمت طويل ومزعج قالت: «اسمعي يا إيلين، أنتِ لم تذكرني أي شيء بشأن الذهاب إلى المحكمة أبداً، وأنتِ متأكدة تماماً أنكِ لم تخبريني أي شيء أبداً عن إمكانية إدلائي بالشهادة ضد كابل. لن أفعل هذا».

حاولت إيلين تهدئتها فقالت: «لن تضطري للشهادة يا ميرسر، صدقيني. أنتِ تقومين بعمل رائع ونحن فخورون بك جداً».

انتفضت ميرسر وقالت بقسوة أكثر مما قصدت: «لا تتذكري عليّ يا إيلين».

لم يتحدث أحد لفترة طويلة من الوقت لكنّ التوتر بقي قائماً. كانوا في الطريق السريع رقم 95 باتجاه الجنوب وعلى مشارف جاكسونفيل.

كان مبنى المحكمة طويلاً ومتعدد الطبقات وكثير الزجاج. انعطفوا عند أحد المداخل الجانبية وركنوا في أحد المواقف المحجوزة. أحاط عملاء مكتب التحقيق الفيدرالي بميرسر وكأنها بحاجة لحماية. ازدحم المصعد بالمرافقة القادمة معها. بعد دقائق، دخلوا مكاتب النائب العام لفلوريدا، ثم أخذوا إلى إحدى غرف الاجتماعات حيث بدأ الانتظار. أخرج برادشو وفانو هاتفيهما الخليين وبدأ بمحادثات بصوت منخفض. كانت إيلين تتكلم مع مكتب بيثيسدا، وريك وجراهام يجريان اتصالات هامة، أما ميرسر فقد جلست وحيدة بجانب الطاولة الكبيرة من دون أن تتحدث إلى أي كان.

بعد مضي عشرين دقيقة أو نحوها، دخل شاب يرتدي بذلة سوداء – اللعنة، جميعهم كانوا يرتدون بذلات سوداء – وعرف عن نفسه بجاينواي، وأنه مساعد النائب العام. وضّح للمجموعة بأنّ القاضي، فيليبي، مشغول بجلسة استماع مهمة جداً، وربما، يستغرق الأمر بعض الوقت. قال جاينواي إنه يود إخفاء شهادة ميرسر، إذا كان هذا مناسباً.

هزّت ميرسر كتفيها. هل لديها خيار حقاً؟

غادر جاينواي ثم عاد مع اثنين يرتديان بذلات سوداء قدّما نفسيهما. صافحتهما ميرسر. إنها متعة حقيقية.

أخرجوا بعض الأوراق القانونية، وجلسا في الجهة المقابلة لها من الطاولة. بدأ جاينواي بطرح الأسئلة، وكان من الواضح فوراً أنه لا يعرف سوى القليل عن القضية. قامت ميرسر بملأ الفراغات ببطء وألم.

عند الساعة 4:50، لحق كل من برادشو وفانو وميرسر بجاينواي إلى غرفة القاضي آرثر فيليبي الذي استقبلهم وكأنهم يتعدون حدود منطقتهم. لقد أمضى يوماً حافلاً وبدا منزعجاً. جلست ميرسر قرب طرف طاولة طويلة أخرى إلى جانب أحد موظفي المحكمة الذي طلب منها رفع يدها اليمنى وأن تقسم على قول الحقيقة. ثمة كاميرا فيديو موضوعة على حامل ثلاثي وموجهة على الشاهدة. جلس القاضي فيليبي في الطرف الآخر مثل ملك على عرشه.

وجه برادشو وجاينواي الأسئلة لها طوال ساعة، وهي روت القصة نفسها للمرة الثالثة على الأقل ذلك اليوم. عرض برادشو صوراً كبيرة للقبو وللسرداب وللخزنة التي داخله. قاطعهما فيليبي باستمرار عبر طرح أسئلته الخاصة، وكثرت معظم شهادتها أكثر من مرتين. لكنها حافظت على هدوئها، حتى إنها سعت لفكرة أن بروس كابل كان أكثر إثارة للإعجاب من أولئك الأشخاص، الأشخاص الطيبين.

عندما انتهت، لخصوا ما جرى، ثم شكروها على وقتها وجهودها. كادت أن تقول لا داعي لذلك، فقد دفع لي كي أكون هنا، وسُمح لها بالانصراف، فغادرت المبنى على عجل مع إيلين وجراهام وريك. عندما أصبح المبنى الفيدرالي وراءهم أخيراً، سألت ميرسر: «حسناً، ماذا سيحصل لاحقاً؟».

أجابت إيلين: «إنهم يحضرون مذكرة التفتيش الآن. كانت شهادتك رائعة والقاضي مقتنع».

«إذاً متى يهاجمون متجر الكتب؟».

«قريباً».

الفصل الثامن التسليم

1

لقد مرت عشرة أيام على وجود ديني في الجزيرة، وبدأ صبره ينفد. راقبه ورووكر وعرفا تحركاته، إنها مهمة بسيطة ورتيبة. واقتفيا أثر ميرسر أيضاً وعرفا عاداتها، وتلك مهمة روتينية سهلة أخرى.

نجح التخويف مع أوسكار ستاين في بوسطن، وربما كانت هذه أدواتهما المُقتنعة الوحيدة. وكما هو الحال مع ستاين، لا يستطيع كابل اللجوء إلى الشرطة. في حال كانت المخطوطات لديه، يمكنهما إجباره على عقد صفقة، وإن لم تكن لديه من شبه المؤكد أنه يعرف مكانها.

في العادة، يغادر كابل المتجر حوالي الساعة السادسة مساءً إلى المنزل. عند الساعة 5:50 من بعد ظهر يوم الاثنين، دخل ديني المتجر وتظاهر أنه يتجول في المكان. من حسن الحظ، وهو حظ كابل، أنه كان مشغولاً في القبو ولم يكن موظفوه يعرفون شيئاً عن الأمر.

لكنّ ديني نفذّ حظه. فبعد أشهر من التحرك بسلاسة في المطارات والجمارك والنقاط الأمنية، واستخدامه لبطاقات هوية وجوازات سفر مزوّرة، والتتكرّر، والدفع نقداً قدر الإمكان ثمناً للغرف والإيجارات، كان يظن نفسه أنه

ذكي للغاية، هذا إن لم يكن فائق الذكاء، لكن حتى أذكي المحتالين يُقبض عليهم عندما يتخلون عن حذرهم.

على مدى سنوات، عمل مكتب التحقيقات الفيدرالي من أجل تطوير تقنيته الخاصة بالتعرف إلى الوجوه، من خلال برنامج يعرف باسم فايس برينت. يستخدم البرنامج خوارزمية لحساب المسافة بين عينيّ الهدف وأنفه وأذنيه، وخلال أجزاء صغيرة من الثانية، يقارن ما توصل إليه مع بنك صور الموضوع، كان بنك الصور هذا صغيراً نسبياً في «ملف غاتسبي»، وهو الاسم المستعار الذي أطلقه مكتب التحقيقات الفيدرالي على قضية المخطوطات المسروقة. فهو يحتوي على مجموعة صور للصوص الثلاثة في مكتب استقبال مكتبة فايرستون، بما فيهم جيرى ستينجاردن ومارك دريسكول المعتقلين، كذلك فيه عدة مئات من الصور لرجال معروفين أو مشتبه بهم لكونهم نشطين في عالم القطع الفنية المسروقة والتحف والكتب.

عندما دخل ديني المتجر، التقطت الكاميرا الموجودة في صندوق الأقراص المدمجة للحمامة الوحيدة الصوتي صورة لوجهه، بما أنها تلتقط صور أوجه كل الزبائن بشكل روتيني منذ ظهر ذلك اليوم. أرسلت الصورة إلى الكمبيوتر المحمول في الجزء الخلفي من الشاحنة المغلقة الموجودة مقابل الشارع، والأكثر أهمية، أنها أرسلت إلى مختبر مكتب التحقيقات الفيدرالي الجنائي في كوانتيكو، فيرجينيا. كان هناك تطابق، وخلال ثوانٍ من دخوله المتجر، أصدر البرنامج إنذاراً، لقد تم التعرف إلى ديني بأنه لص غاتسبي الثالث.

لقد قبض على اثنين. أما تري، اللص الرابع، فكان جسده لا يزال يتحلل في قعر البحيرة في بوكونوس، ولن يعثر عليه. أما أحمد، اللص الخامس، فلا يزال مختبئاً في أوروبا.

بعد خمس عشرة دقيقة، غادر ديني المتجر، وانعطف عند ناصية الشارع، ثم دخل سيارة هوندا أكورد موديل 2011. تتبعتها الشاحنة المغلقة الثانية من بعيد، ثم وجدتھا مركونة في مرأب سيارات نُزل نسيم البحر على الشاطئ، وهو بعيد بمقدار مئة ياردة عن نُزل المنارة، وبدأت عملية المراقبة.

استؤجرت سيارة الهوندا أكورد من إحدى الوكالات في جاكسونفيل والتي لم تكن تمنع بالدفع نقداً. كان الاسم على طلب الإيجار ويلبر شيفليت، ولقد ظنّ مدير الوكالة أنّ رخصة القيادة الصادرة عن ولاية ماين بدت مزيفة واعترف بذلك لمكتب التحقيقات الفيدرالي. دفع شيفليت ألف دولار نقداً بدل إيجار السيارة لمدة أسبوعين وتغاضى عن التأمين.

دُهل مكتب التحقيقات الفيدرالي من هذا التطور، ومن حظهم السعيد. لكن لماذا يتسكّع واحد من اللصوص داخل متجر الكتب بعد مرور ثمانية أشهر على حادثة السرقة؟ هل كان يراقب ميرسر أيضاً؟ هل لديه ارتباط بكابل؟ كان هناك عديد من الأسئلة المحيرة للتعامل معها لاحقاً، لكن في الوقت الحالي، هناك مؤشر قوي أنّ ميرسر كانت على حق. على الأقل توجد إحدى المخطوطات في القبو.

عند غروب الشمس، خرج ديني من الغرفة رقم 18 وخرج روكر من الغرفة المجاورة. مشياً مسافة مئة ياردة إلى إحدى الحانات المعروفة التي تقدّم المشاوي وأكلا الشطائر وشرباً الجعة. بينما كانا يأكلان، دخل عملاء مكتب التحقيق الفيدرالي إلى مكتب نُزل نسيم البحر، وسلّموا المدير مذكرة بحث، فوجدوا في الغرفة رقم 18 حقيبة رياضية تحت السرير، فيها مسدس عيار 9 ميليمتر وستة آلاف دولار وبعض رخص القيادة المزيفة من ولايتي تينيسي ووايومينغ. لكن لا شيء كشف عن هوية ويلبر الحقيقية. لم يجد العملاء أي

شيء قيماً في الغرفة المجاورة.

عندما عاد ديني ورووكر إلى النُّزل، أُلقي القبض عليهما، واقتيدا بصمت كامل عبر سيارتين منفصلتين إلى مكتب التحقيقات الفيدرالي في جاكسونفيل. أخذت بصماتهما ودُفع بمجموعة البصمات تلك إلى بنك المعلومات، وعند الساعة 10:00 مساءً، عُرِفَت الحقيقة. كشفت بصمات ديني العسكرية عن اسمه: دينيس آلن دوربان، عمره ثلاثة وثلاثون عاماً من مواليد ساكرامنتو. لقد نال سجل رووكر الإجرامي منه: براين باير، عمره تسعة وثلاثون عاماً ومولود في جرين باي، ويسكونسون. رفض كلاهما التعاون وتمّ سجنهما. قرّر لمار برادشو إخفاءهما لبضعة أيام وعدم نشر خبر القبض عليهما.

كانت ميرسر مع إيلين وجراهام وريك في المنزل الآمن يلعبون الورق ويمضون الوقت. تمّ إعلامهم بخبر القبض على الرجلين لكنهم لم يعلموا بالتفاصيل. اتصل برادشو عند الساعة الحادية عشرة فتحدث مع إيلين، وملاً معظم الأجزاء الناقصة. من الواضح أنّ الأمور تحدث بسرعة، وتم العثور على أجوبة كثير من الأسئلة. كان الغد هو اليوم المُنتظر. وبما يخص ميرسر، قال برادشو: «أخرجيها من الجزيرة».

2

طيلة الثلاثاء تابعوا مراقبة المتجر عن قرب ولم يجدوا شيئاً خارجاً عن المألوف. ما من لصوص يحومون حول المتجر ولا طرود مشبوهة تُشحن. سلمت شركة يو بي أس ستة صناديق كتب عند الساعة 10:50، وغادرت من دون أي حمولة. تواجد كابل في الطابق الثاني وفي الطابق الأرضي، وانهمك بمساعدة الزبائن والقراءة كديده في مكانه المُفضّل، وبالطبع غادر لتناول الغداء عند الساعة 12:15، وعاد بعد ساعة.

عند الساعة الخامسة، دخل لامار برادشو وديري فانو المتجر، وطلباً من كابل التحدث قليلاً. قال برادشو بهدوء: «مكتب التحقيقات الفيدرالي». لاحقاً به إلى غرفة الطبقات الأولى حيث أغلق الباب، وعندما طلب منهما إظهار شارتيهما أظهرها له. سلّمه فانو مذكرة التفتيش وقال: «نحن هنا من أجل تفتيش القبو».

سأل بروس وهو لا يزال واقفاً: «حسناً، وما هو الشيء الذي تبحثان عنه؟».

أجاب برادشو: «مخطوطات مسروقة، من مجموعة ف. سكوت فيتزجيرالد، من ممتلكات مكتبة جامعة برينستون».

ضحك بروس وقال دون تضييع أي وقت: «هل أنتما جادان؟».

«هل نبدو كذلك؟».

أشار إلى مذكرة التفتيش وقال: «أظن ذلك. هل تمانعان بأن أقرأ هذه؟».

«تفضل. ومن الآن، لدينا خمسة عملاء في المتجر بمن فيهم نحن».

«حسناً، تصرفوا كأنكم في منزلكم. هناك قهوة في الطابق الثاني».

«نعلم ذلك».

جلس بروس في مكتبه، وقرأ مذكرة التفتيش. أخذ وقته وقلب الصفحات، وأعطى انطباعاً جيداً بأنه غير قلق. عندما أنهى قراءتها قال: «حسناً، إنها واضحة تماماً». وقف وفكر بما سيفعله لاحقاً ثم قال: «إنها محددة بتفتيش السرداب والقبو، صحيح؟».

أجاب برادشو: «هذا صحيح».

«هناك كثير من الأشياء القيّمة في الأسفل، وحسناً، أنتم مشهورون بتخريب أي مكان تدخلون إليه وبحوزتكم مذكرات تفتيش».

قال فانو: «أنت تشاهد التلفاز كثيراً. نحن نعلم ماذا نفعل، وإذا تعاونت معنا لن يعلم أي شخص آخر في المتجر أننا هنا».

«أشك في ذلك».

«دعنا نذهب».

قادهما بروس وهو يمسك بالمذكرة إلى القسم الخلفي من المتجر حيث التقوا بثلاثة عملاء آخرين، جميعهم يرتدون ملابس عادية. تجاهلهم بروس، وفتح قفل الباب المؤدي إلى القبو. رفع أحد قواطع الإنارة وقال: «انتبهوا لخطواتكم». أضاء كثيراً من أجهزة الإنارة داخل القبو، ووقف بجانب باب السرداب حيث أدخل الرقم السري، فتح الباب، وأشعل الأضواء وعندما دخل العملاء الخمسة أشار بيده إلى الجدران وقال: «هذه كلها طبقات أولى نادرة. لا أعتقد أنها ذات أهمية». أخرج أحد العميلين كاميرا فيديو، وبدأ تصوير الجزء الداخلي للسرداب.

قال برادشو وانصاع له بروس: «افتح الخزانة». عندما فتح بابها، أشار إلى الرفوف العلوية وقال: «هذه نادرة جداً. هل تودون رؤيتها؟».

أجاب برادشو: «ربما في وقت لاحق. دعنا نبدأ بهذه الجوارير الأربعة».

كان يعرف بالضبط ماذا يريد.

سحب بروس الجارور الأول. كان فيه صندوقان مصنوعان من خشب الأرز، تماماً كما أبلغت ميرسر. رفع أحدهما ووضعها على الطاولة، ثم فتحه من الأعلى وقال: «هذا هو المخطوط الأصلي لرواية أشد حلقة من الكهرمان،

نشرها جون د. مكدونالد في العام 1966. لقد اشتريته قبل عشر سنوات ولديّ الفاتورة التي تثبت ذلك».

حام برادشو وفانو فوق المخطوط. سأل فانو: «هل تمنع بلمسه؟». كانا خبيرين ويعرفان ما يفعلان.
«تفضلاً».

كان المخطوط مطبوعاً والصفحات بحالة جيدة، قلباً صفحته وسرعان ما فقدنا الاهتمام. سأل برادشو: «والصندوق الآخر؟».

أخرج بروس الصندوق الثاني، ووضعه بجانب الأول ورفع الغطاء ثم قال: «هذا مخطوط آخر لـ مكدونالد، المطر الفضي الوحيد، منشور في العام 1985. أيضاً أمتلك الفاتورة التي تثبت شرائي له».

هذا المخطوط أيضاً كان مطبوعاً بآلة كاتبه، وكانت هنا ملاحظات على هوامشه. وللمساعدة أكثر قال: «عاش مكدونالد في قارب ولم تكن الكهرباء متوفرة دائماً. استخدم آلة طباعة يدوية قديمة ماركة أندروود وكان دقيقاً في عمله. مخطوطاته أنيقة للغاية».

لم يهتما حقيقةً، لكنهما قلباً بعض الصفحات.

سأل بروس مازحاً: «لست متأكداً، لكن ألا يكتب فيتزجيرالد مخطوطاته الأصلية بخط يده؟». لم يكن هناك جواب.

عاد برادشو إلى الخزانة وقال: «الجارور الثاني».

سحبه بروس فاقترب الاثنان ليُلقيَا نظرة. كان فارغاً. وكذلك الأمر بالنسبة إلى الثالث والرابع. ذُهل برادشو ونظر باستغراب إلى فانو الذي كان يحدث إلى

الجوارير الفارغة بذهول مطلق.

قال برادشو المصدوم: «أفرغ محتويات الخزنة».

قال بروس: «لا مشكلة، لكن من الواضح، بالنسبة إليّ على الأقل، أنّ شخصاً أعطاكما بعض المعلومات المغلوطة. أنا لا أتاخر بالأشياء المسروقة ولم أقرب من مخطوطات فينترجيرالد».

قال برادشو مرة أخرى متجاهلاً كلامه: «أفرغ الخزنة».

أعاد بروس مخطوطتي مكدونالد إلى الجارور العلوي، ثم مدّ يده إلى الرف العلوي، وأخرج العلبة الحافظة التي تحتوي رواية الحارس في حقل الشوفان وقال: «هل تريد رؤيتها؟».

أجاب برادشو: «نعم».

فتح بروس العلبة الحافظة بحرص وأخرج الكتاب. رفعه أمامهما كي يرياه ويصوره ثم أعاده إلى مكانه وقال: «وأنتم تريدون رؤيتها كلها؟».

«هذا صحيح».

«إنها مضيعة للوقت. إنها روايات منشورة، وليست مخطوطات».

«نعلم ذلك».

«هذه العُلب الحافظة مصنوعة خصيصاً لكل كتاب وصغيرة جداً لتحتوي مخطوطاً».

كان هذا واضحاً، لكن لم يكن الوقت مهماً كما أنّ البحث كان مطلوباً. قال برادشو وهو يشير إلى الرفوف الموجودة في الخزنة: «التالي».

أخرج بروس الكتب بصورة منهجية واحداً تلو الآخر، فتح العُلب الحافظة

وعرض الكتب ثم وضعها جانباً. وبينما كان يقوم بعمله بسعادة، هزّ برادشو وفانو رأسيهما، وحدّقا إلى بعضهما، وحرّكا أعينهما، وبديا بشكل عام حائرين ومخدوعين.

عندما وُضعت العُلب الحافظة الثماني والأربعون جميعها على الطاولة، أصبحت الخزنة فارغة إلا من مخطوطي مكدونالد الموجودة في الجارور العلوي. اقترب برادشو من الخزنة، وكأنه يبحث عن حجيرات سرية، لكن من الواضح أنه ليس هناك مكان لذلك. حكّ فكّه، ومرّر أصابعه عبر شعره الخفيف. سأل فانو: «ماذا بشأن هذه؟». وأشار إلى خزائن الكتب الموجودة على الجدار.

قال بروس: «إنها طبعات أولى نادرة، كتب نُشرت منذ زمن طويل. إنها مجموعة أمضيت عشرين عاماً في جمعها. مرة أخرى، إنها روايات وليست مخطوطات. أفترض أنكما تريدان رؤيتها أيضاً».

قال فانو: «أوه لمّ لا؟».

أخرج بروس المفاتيح، وفتح أقفال خزائن الكتب. انتشر العملاء، وبدأوا بفتح الأبواب الزجاجية لخزائن الكتب، وهم يتفحصون صفوف الكتب ولا يجدون شيئاً ولو حتى مشابهاً من بعيد لأحد المخطوطات الضخمة. راقبهم بروس باهتمام وهو متلهف للتدخل في حال أُخرج أحد الكتب، لكنهم كانوا محترفين وفي غاية الحرص، وبعد مضي ساعة في السرداب انتهى التفتيش ولم يُسفر عن شيء. فُحص كل إنش فيه. وهم في طريقهم لمغادرة السرداب، سحب بروس الباب، وأغلقه لكنه لم يقفله.

نظر برادشو في أرجاء القبو إلى الرفوف المكدسة بالكتب القديمة

والمجلات وألواح الطباعة ثم سأل في محاولة أخيرة ويأسسة لإيجاد شيء ما: «هل تمنع بأن نلقي نظرة؟».

قال بروس: «حسناً، بحسب المذكرة، التفتيش محدد بالسرداب، لكن لم لا تفضل بإلقاء نظرة. لن تجد شيئاً».

«حسناً، أنت موافق».

«بالتأكيد. لم لا؟ دعنا نمضي مزيداً من الوقت».

انتشروا في كامل أرجاء غرفة المهملات، وبحثوا ونظروا لمدة نصف ساعة، وكأنهم يحاولون تأخير الأمر الذي لا مفر منه. الاعتراف بالهزيمة أمر غير قابل للتفكير به، لكنهم استسلموا أخيراً. لحق بروس بهم إلى أعلى السلم، ومنه إلى الباب الرئيسي. مدّ برادشو يده وقال: «نأسف للإزعاج».

صافحه بروس وقال: «حسناً، هل انتهى الأمر بالنسبة إليّ، أو أنني لا أزال مشتبهاً به؟».

أخرج برادشو بطاقة عمل من جيبه وسلمها لبروس ثم قال: «سأتصل بك غداً وأجيبك عن سؤالك».

«عظيم. هذا أفضل، سأطلب من محاميّ الاتصال بك».

«افعل ذلك».

عندما غادروا، التفت بروس ولاحظ اثنين من الموظفين وراء طاولة الاستقبال يحدقان. قال: «إدارة مكافحة المخدرات تبحث عن مختبر لتصنيع المخدرات. عودا إلى العمل الآن».

تقع أقدم حانة في الجزيرة واسمها صالون القرصان، على بعد ثلاثة أحياء شرق متجر الكتب. التقى بروس محاميه مايك وود هناك بعد حلول الظلام لتناول الشراب. جلسا عند إحدى الزوايا ووصف بروس وقائع التفتيش بينما كانا يتناولان الشراب. مايك متمرس بما يكفي كي لا يتساءل عن احتمال معرفة بروس بأي شيء يخص المخطوطات المسروقة.

سأل بروس: «هل يمكنني معرفة إن كنت لا أزال هدفاً لهم؟».

«ربما. سأتصل بالرجل غداً، لكنني أفترض أن الجواب نعم».

«أودّ معرفة إن كنت سألاحق خلال الشهور الستة القادمة. اسمع يا مايك، سأذهب إلى جنوب فرنسا كي أتسكع مع نويل. في حال سيتعقب أولئك الأشخاص أثري في كل مكان، فأنا أرغب بمعرفة ذلك. اللعنة، سأعطيهم أرقام رحلاتي، وأتصل بهم عندما أصل إلى المنزل. ليس لدي شيء لأخفيه».

«سأخبر الرجل، لكن بالنسبة إلى الوقت الحالي، افترض أنهم يراقبون كل حركة ويستمعون لكل محادثة هاتفية ويقرؤون كل إيميل ورسالة نصية».

تظاهر بروس بالإحباط والذهول، لكنه في الواقع، عاش خلال الشهرين الماضيين وهو يفترض أنّ شخصاً ما، ربما مكتب التحقيقات الفيدرالي أو أي شخص آخر، كان يراقب ويصيخ السمع.

في اليوم التالي، يوم الأربعاء، اتصل مايك وود بلامار برادشو على هاتفه الخليوي أربع مرات، وفي كل مرة كان المجيب الصوتي بانتظاره. ترك عدة رسائل على هاتفه، لكنه لم يتلقَ ردّاً. اتصل برادشو يوم الخميس وأكد أنّ السيد كابل كان موضع اهتمام، لكنه لم يعد هدفاً لتحقيقاتهم.

أبلغ مايك برادشو أنّ موكله سيغادر البلاد قريباً، وأعطاه أرقام رحلاته،

واسم الفندق الذي سيقم فيه في نيس لبضعة أيام مع زوجته. شكره برادشو على المعلومات، وقال إن مكتب التحقيقات الفيدرالي ليس مهتماً بسفرات كابل الخارجية.

4

يوم الجمعة، سَفَر ديني دوربان وبرايان باير، المعروف أيضا باسم جو رووكر، بالطائرة إلى فيلادلفيا، ثم اقتيدا بالسيارة إلى ترينتون حيث اتُّخذت الإجراءات القانونية بحقهما، وأودعا في زنزانتين منفصلتين. بعدئذ، اقتيد ديني إلى إحدى غرف الاستجواب، وأجلس بجانب طاولة، ثم قُدّم له كوب من القهوة، وطلب منه الانتظار. قاد العميل الخاص مكروجر، مارك دريسكول ومحاميه جيل بيتروشييلي إلى الرواق خارج غرفة الاستجواب، ومن خلال إحدى النوافذ التي تتيح الرؤية من جانب واحد ألقوا نظرة على ديني الجالس بمفرده والذي بدا ضجراً.

قال مكروجر لمارك: «لقد قبضنا على صديقك، أمسكنا به في فلوريدا».

قال بيتروشييلي: «حسناً؟».

«حسناً، نحن لدينا ثلاثة منكم، الثلاثة الذين كانوا داخل مكتبة فايرستون.

هل رأيت ما يكفي؟».

أجاب دريسكول: «نعم».

ابتعدوا عن النافذة، ثم دخلوا غرفة استجواب أخرى. عندما جلسوا إلى طاولة صغيرة، قال مكروجر: «لا نعلم من هم المتورطون الآخرون، لكن ما نحن متأكدون منه وجود شخص خارج الجامعة قام بالتمويه بينما كنتم ثلاثكم في الداخل، كما اخترق شخص آخر منظومة الجامعة الأمنية بالإضافة إلى

شبكتها الكهربائية. ويمكن أن يكون هناك مزيد من الأشخاص، أنت فقط تستطيع أن تخبرنا. نحن نقترّب من المخطوطات، وقريباً سيكون لدينا مجموعة جديدة من لوائح الاتهام. إنني أُرغب بتقديم أفضل الصفقات لك يا سيد دريسكول. أعطِ ما لديك من معلومات ودلائل فتحصل على حرّيتك، أخبرنا بكل شيء وستنسى كل لائحة اتهاماتك، وستدخل برنامج حماية الشهود، وتكون في مكان جميل بهوية جديدة وعمل جيد، مهما يكن ما تريده. في حال كان هناك محاكمة، سيتوجب عليك العودة والشهادة، لكن بصراحة أشك بحدوث ذلك».

ثمانية أشهر في السجن كانت كافية بالنسبة إلى مارك، فديني هو الأكثر خطورة، وبما أنه حُيّد الآن، فقد تضاعل خطر الانتقام بشكل كبير. لم يكن تري من النوع العنيف وهو يعيش هارباً على أية حال، وفي حال أعطى مارك اسم تري الحقيقي ربما يُقبض عليه قريباً، أما أحمد مهووس الكومبيوتر فهو جبان ويخاف من ظله، وفكرة أنه قد يسعى للانتقام كانت بعيدة تماماً.

قال مارك: «أعطني بعض الوقت».

قال بيتروشييلي: «سنتحدث بالأمر».

«حسناً، اليوم هو الجمعة. لديك عطلة نهاية الأسبوع كي تأخذ قرارك. سأعود صباح الاثنين. وبعد ذلك، كل العروض ستسحب».

يوم الاثنين، وافق مارك على الصفقة.

5

الثلاثاء 19 تموز، سافر بروس كابل بالطائرة من جاكسونفيل إلى أتلانتا، ثم صعد على متن طائرة الخطوط الفرنسية في رحلة مباشرة إلى باريس، وبعدها ضيّع ساعتين من الوقت قبل صعوده إلى طائرة أخرى متجهة إلى

نيس، ووصل عند الساعة الثامنة صباحاً، واستقل سيارة أجرة إلى فندق لا بيروز، وهو فندق فخم وعصري يقع عند شاطئ البحر، مكان اكتشافه هو ونويل خلال رحلتها الأولى إلى فرنسا قبل عشر سنوات. كانت تقف في الردهة بانتظاره، وبدأت فرنسية جداً بفستانها الأبيض القصير وقبعتها العريضة الناعمة. تبادلوا القبل، وتعانقا، وكأنه مرّ على آخر لقاء بينهما سنوات، ثم مشيا يداً بيد إلى التراس بجانب المسبح، حيث احتسبا الشراب، وتبادلوا القبل مرة أخرى. قال بروس إنه جائع، فذهبا إلى غرفتهما في الطابق الثالث، وطلبا خدمة الغرف. تناولوا الطعام على التراس وأخذوا حماماً شمسياً. كان الشاطئ يمتد لأميال تحتهما، ومن خلفه يتوهج الكوت دازور تحت أشعة شمس الصباح. لم يكن بروس قد أخذ إجازة منذ أشهر وهو مستعد لراحة حقيقية. بعد قيلولة طويلة، اختفى تأثير إرهاق السفر فذهبا إلى المسبح.

كالعادة سأل عن جان لوك فقلت نويل إنه بخير، وسألته عن ميرسر، فأخبرها بروس بالقصة كاملة. لقد شكّ بأنهما لن يرياها مرة أخرى.

غادرا الفندق في ساعة متأخرة من بعد الظهر، ومشيا خمس دقائق داخل البلدة القديمة، وهي جزء مثلث الشكل يعود تاريخها لقرون، وتُعدّ مركز الجذب الرئيسي في المدينة. سارا مع الناس، وتفّرّجا على الأسواق المزدهمة والشوارع الطويلة والضيقة جداً حيث لا تستطيع السيارات السير فيها، ثم تناولوا آيس كريم وقهوة في أحد مقاهي الهواء الطلق الكثيرة. تمشيا في الأزقة، وضاعا أكثر من مرة، لكن ليس لفترة طويلة أبداً. كان البحر مرئياً دائماً وقريباً جداً.

نام بروس ونويل في وقت متأخر من يوم الخميس، وتناولوا الفطور على

التراس، ثم استحما وارتديا ثيابهما، وعادا إلى المدينة القديمة. تمشياً في أسواق الورود، وتعجبا من الأصناف الأخاذة، التي كان العديد منها مجهولاً حتى بالنسبة إلى نويل. شربا بعض الإسبريسو في مقهى آخر وراقبا الحشود حول الكاتدرائية المنحوتة في بالاس روسيتي. ومع حلول الظهيرة، ذهبوا إلى أطراف البلدة القديمة، إلى أحد الشوارع الذي كان أكثر عرضاً بقليل وفيه بعض السيارات. دخلا أحد متاجر الأنتيكات، حيث تحدثت نويل إلى المالك. قادهما أحد الحرفيين إلى الجزء الخلفي من المتجر، إلى ورشة صغيرة مليئة بالطاولات والخزائن الخشبية، وأشار إلى أحد الصناديق الخشبية، وأخبر نويل أنه وصل للتو. تفحصت أوراق الشحن المعلقة على إحدى زواياه، وطلبت من الحرفي فتح الصندوق. حمل مثقبه وأخذ يفك البراغي التي تُثبّت الغطاء العلوي. عمل ببطء وبطريقة منهجية، وبدا من الواضح أنه يقوم بهذا الأمر منذ سنوات، راقبه بروس عن كثب، في حين كانت نويل مهتمة بطاولة أخرى قديمة. أخيراً، عندما انتهى رفع وبروس غطاء الصندوق ووضعاه جانباً.

قالت نويل شيئاً ما للحرفي فذهب، عندها أخرج بروس الإسفنج السميك الذي يحيط بالطرد من الصندوق، وفجأة بدأ ونويل يحدقان إلى طاولة الكتابة الخاصة بميرسر، لقد أزيلت جواريرها الثلاث من أجل إيجاد مساحة مخفية. فتح بروس الغطاء الخارجي بلطف. كان هناك خمسة صناديق متشابهة من خشب الأرز، مصنوعة خصيصاً حسب مواصفاته من قبل أحد صانعي الخزائن في جزيرة كامينو.

غاتسبي وأصدقاؤه.

عُقد الاجتماع في تمام الساعة 9:00 صباحاً، وأعطى انطباعاً حقيقياً بأنه

سيكون ماراثونياً. كانت الطاولة الطويلة مغطاة بمستندات مبعثرة مسبقاً، وكأنهم كانوا يعملون منذ ساعات. وُضعت شاشة كبيرة في الطرف البعيد من الطاولة، وبجانبها طبق من الدونات وإبريقان من القهوة. جلس العميل مكروجر وثلاثة آخرون من مكتب التحقيقات الفيدرالي على أحد جانبي الطاولة، بينما جلس كارلتون، مساعد النائب العام، إلى الجانب الآخر، محاطاً بحاشيته المكونة من شبان واجمين يرتدون بذلات سوداء. جلس مارك دريسكول في الطرف الآخر وإلى يساره محاميه الوفي، بيتروشيلى.

بدا أن مارك وضع نفسه بأجواء رغد العيش خارج جدر السجن وأنه مستعد للكلام.

بدأ مكروجر أولاً فقال: «دعنا نبدأ بالفريق. كان هناك ثلاثة في الداخل، صحيح؟».

«هذا صحيح. أنا وجيري ستينجاردن وديني دوربان».

«والآخرون؟».

«حسناً، هناك في الخارج تيم مالدانادو، المعروف باسم تري. لست متأكداً من مسقط رأسه لأنه عاش معظم حياته هارباً. أمه امرأة تُدعى آيريس جرين وهي تعيش في باكستر رود في ميونسي، إنديانا. بإمكانك الذهاب ورؤيتها، لكنني أشك في أنها رأت ابنها منذ سنوات. لقد هرب تري من أحد السجون الفيدرالية في أوهايو قبل سنتين».

سأل مكروجر: «لماذا تعرف مكان إقامة أمه؟».

«هذا كله جزء من الخطة. لقد حفظنا عن ظهر قلب عدة أشياء تافهة كي نقتع أنفسنا بالبقاء صامتين في حال قبض على أحدنا. إنه التهديد بالانتقام،

الذي بدا أمراً حازقاً في ذلك الوقت».

«ومتى كانت آخر مرة رأيت فيها تري؟».

«12 تشرين الثاني الماضي، اليوم الذي غادرنا فيه وجيري الشاليه وقدنا السيارة إلى روشستر. لقد تركناه هناك مع ديني. لا فكرة لديّ عن مكانه».

ظهرت صورة على الشاشة وكان فيها تيري مبتسماً، فقال مارك: «هذا هو».

«وماذا كان دوره؟».

«التمويه. لقد أثار الاضطراب بقنابله الدخانية ومفرقاته. اتصل بالرقم 9 وقال إنّ هناك رجلاً يحمل مسدساً ويطلق النار على الطلاب. أنا نفسي أجريت اتصاليين أو ثلاثة من داخل المكتبة».

«حسناً، سنعود إلى ذلك. من الأشخاص الآخرون المتورطون؟».

«كنا خمسة، والخامس أحمد منسور، وهو أمريكي متحدر من أصل لبناني يعمل من بوفالو. لم يكن موجوداً في تلك الليلة. إنه هاكر، ومُزوّر، وخبير كومبيوتر. لديه مسيرة مهنية طويلة مع الاستخبارات الحكومية قبل أن يُعتقل ويتحول إلى الجريمة. إنه بعمر الخمسين تقريباً وهو مطلق ويعيش مع امرأة في 662 شارع وشبورن في بوفالو. وعلى حد علمي، ليس لديه سجل إجرامي».

بالرغم من أن الجلسة كانت مصورة صوتاً وصورة، إلا أنّ عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالي الأربعة بالإضافة إلى الشبان الواجمين من مكتب النائب العام كانوا يشخبطون بغضب وكأنّ ملحوظاتهم مهمة.

قال مكروجر: «حسناً، في حال كان هناك خمسة فقط، إذاً من هو هذا الرجل؟». ظهر وجه برايان باير على الشاشة.

«لم يسبق لي أن رأيته».

قال بيتروشييلي: «ذلك هو الرجل الذي اعتدى عليّ في موقف السيارات قبل بضعة أسابيع. لقد حدّثني كي أقول لموكلي أن يُبقي فمه مغلقاً».

قال مكروجر: «لقد أمسكنا به مع ديني في فلوريدا. إنه مجرم محترف اسمه برايان باير لكنه يُعرف باسم روكر».

قال مارك: «لا أعرفه. لم يكن جزءاً من فريقنا. لا بدّ وأنه شخص استخدمه ديني كي يبحث عن المخطوطات».

قال مكروجر: «نحن لا نعرف كثيراً عنه وهو لا يتكلم».

قال مارك: «لم يكن أحد الوسطاء».

«سنعود إلى الفريق. أخبرنا عن الخطة. كيف بدأت».

ابتسم مارك وتراخى في مقعده، أخذ رشفة من القهوة وبدأ روايته.

8

في عمق الضفة اليسرى لباريس، وفي قلب الدائرة السادسة في شارع سانت سيبليليس، كان السيد جاستون شابيل يدير متجر كتباً صغيراً وأنيق لم يتغير سوى قليلاً خلال ثمانية وعشرين عاماً. هناك كثير من هذه المتاجر مبعثرة في مركز المدينة، وكل منها باختصاص مختلف. اختصاص متجر السيد شابيل هو الروايات الأمريكية والفرنسية والإسبانية النادرة من القرن التاسع عشر والعشرين. هناك أحد الأصدقاء على بعد مبنين، يتعامل فقط بالخرائط

والمجلات الجغرافية القديمة. وإلى جواره، هناك آخر يتاجر بالمطبوعات القديمة والرسائل التي كتبها شخصيات تاريخية. بشكل عام، هناك حركة قليلة من تلك المتاجر وإليها، فالمعروضات كثيرة ولكن الزبائن قلائل، فزبائن هذه المتاجر من جامعي الكتب والمطبوعات الهامين من كل أرجاء العالم، وليسوا السواح الذين يبحثون عن شيء ما ليقرأوه.

عند الساعة 11:00 صباح الاثنين 25 تموز، أقفل السيد شابيل متجره، واستقل إحدى سيارات الأجرة التي كانت بانتظاره. توقف بعد عشرين دقيقة أمام أحد مباني المكاتب في جادة مونتايين، في الدائرة الثامنة، وخرج. نظر بحذر إلى الشارع خلفه، عندما دخل المبنى، بالرغم من أنه لم يتوقع رؤية شيء غير عادي. لم يكن هناك شيء غير قانوني في مهمته، على الأقل ليس بموجب القانون الفرنسي.

تحدث إلى موظفة الاستقبال الجميلة، وانتظر بينما أجرت الاتصال بالطابق العلوي. تمشى قليلاً في الردهة، وأبدى إعجابه باللوحات الفنية الموجودة على الجدران، وفكّر بإمعان باتساع طموح المؤسسة القانونية. الحروف البرونزية الضخمة تعلن عن مؤسسة سكلي أند بيرشينج، التي لديها مكاتب، في أربع وأربعين مدينة في معظم البلدان المهمة وبعض البلدان الأقل أهمية. لقد أمضى بعض الوقت يستطلع موقعها الإلكتروني، وعرف أنّ مؤسسة سكلي تتفاخر بأن لديها ثلاثة آلاف محامٍ وأنها المؤسسة الأكبر في العالم.

ما إن سُمح بدخوله، أذنت موظفة الاستقبال له بالذهاب إلى الطابق الثالث. صعد السلالم وسرعان ما وجد مكتب المدعو توماس كيندريك، وهو أحد الشركاء رفيعي المستوى الذين اختيروا فقط بسبب شهادتهم الجامعية من برينستون. وأتبع شهادته باثنتين الأولى من كولومبيا والثانية من السوربون.

كان السيد كيندريك في الثامنة والأربعين من عمره، ويتحدّر من فيرمونت في الأصل لكن الآن لديه جنسية مزدوجة. متزوج من امرأة فرنسية، ولم يغادر باريس أبداً بعد حصوله على الشهادة من السوربون. إنه مختص في الدعاوى القضائية المعقدة ذات الطبيعة الدولية وبدا، على الأقل عبر الهاتف، متردداً في تحديد موعد لمالك متجر كتب متواضع. لكنّ السيد شاويل كان مصراً.

تحدّثا بالفرنسية، وبعد تخطي الشكليات الرسمية القاسية نوعاً ما، قال كيندريك: «كيف يمكنني خدمتك؟».

أجاب السيد: «لديك علاقات وثيقة مع جامعة برينستون، بما أنك خدمت مرةً في مجلس أمنائها. أفترض أنك تعرف رئيسها، الدكتور. كارلايل».

«نعم أنا معني جداً بجامعتي. هل لي أن أسأل لماذا هذا الأمر مهم؟».

«إنه مهم جداً. عندي صديق، أحد معارفه يعرف الرجل الذي يمتلك مخطوطات فيتزجيرالد. يود الرجل إعادتها إلى جامعة برينستون، لقاء أجر بالطبع».

اختفت مهنية كيندريك عندما تراخى فكه قليلاً، وجحظت عيناه، وبدا كأنه تلقى ركلة على أحشائه.

تابع شاويل كلامه: «أنا مجرد وسيط، مثلك تماماً. نحن بحاجة إلى مساعدتك».

كان آخر ما يحتاج إليه السيد كيندريك مهمة أخرى، وبصورة خاصة، أنها مهمة لن تدر عليه أي أرباح وستستهلك وقته الثمين. لكنّ جاذبية الاشتراك في مثل هذه الصفقة الفريدة بروعتها تكاد تكون غامرة. إذا أمكن تصديق هذا الرجل، فإنه، أي كيندريك، سيلعب دوراً حيويّاً في إعادة جائزة تعزّز بها جامعته

المحبوبة أكثر من أي جائزة أخرى. تتحنح وقال: «المخطوطات آمنة ولا تزال معاً».

«أنا أقبل بهذه المهمة».

«حقاً».

ابتسم كيندرريك والأفكار تدور في رأسه ثم قال: «أين ستحصل عملية التسليم؟».

«هنا. في باريس. سيخطط لعملية التسليم بعناية كما يجب الانصياع للتعليمات بحذافيرها. من الواضح يا سيد كيندرريك أننا نتعامل مع مجرم يستحوذ على ممتلكات لا تُقدر بثمن، ويُفضّل ألا يُمسك به. إنه ذكي وماكر جداً، وما أن يرى أي دليل على متاعب، ستختفي المخطوطات للأبد. ستحظى جامعة برينستون بهذه الفرصة فقط لاستعادة الأوراق. سيكون إخطار الشرطة خطأً فادحاً».

«لست متأكداً من أنّ جامعة برينستون ستخترط في الأمر من دون إعلام مكتب التحقيقات الفيدرالي. أنا بالطبع لا أعرف ذلك».

«حسناً، لن يكون هناك صفقة. لن ترى جامعة برينستون المخطوطات مرة أخرى أبداً».

وقف كيندرريك، ومشى إلى إحدى النوافذ، ثم نظر إلى الخارج بلا هدف وقال: «ما هو الثمن؟».

«ثروة».

«بالطبع. ينبغي عليّ أن أعطيهم فكرة ما».

«أربعة ملايين عن كل مخطوط. وهذا غير قابل للتفاوض».

بالنسبة إلى محترف يتصارع في دعاوى قضائية قيمتها بلايين، لم تؤثر قيمة الفدية بكيندريك. ولكنها بكل تأكيد ستجعل جامعة برينستون تقلق. شكّ بأن تمتلك جامعتة هذا القدر من المال، لكن ثمة صندوق منح بقيمة خمسة وعشرين مليون دولار وآلاف الخريجين الأثرياء.

ابتعد كيندريك عن النافذة وقال: «أظنك تدرك أنه يجب عليّ إجراء بعض الاتصالات. متى نلتقي مرة أخرى؟».

وقف شابيل وقال: «غداً. وأنا أحذرك مرة أخرى يا سيد كيندريك، أي تدخل للشرطة الفرنسية أو الأميركية ستكون عواقبه وخيمة».

«أفهمك. أشكر حضورك سيد شابيل». تصافحا وقالوا وداعاً.

عند الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي، توقفت سيارة مرسيدس سيدان في رو دو فوجيرار أمام حدائق لوكسمبورغ. ترجل توماس كيندريك من المقعد الخلفي وأخذ يمشي على الرصيف. دخل الحديقة المشهورة عبر إحدى البوابات الحديدية، وسار مع مجموعة من السواح إلى البحيرة ذات الثمانية الأضلاع حيث يتواجد المئات من الباريسييين والسواح في الصباح، يجلسون ويقروون ويستمتعون بالشمس، بينما يتسابق الأطفال بألعابهم التي على شكل قوارب فوق مياه البحيرة، كما يتمدد العشاق الشبان حول حافة البحيرة الإسمنتية قليلة الارتفاع، ويركض بعض العدائين حولها مثرثرين ضاحكين. انضم جاستون شابيل إلى كيندريك بجانب نُصب ديلاكروا من دون أي سلام، وبيده حقيبة صغيرة. مشياً ببطء في الممرات العريضة وابتعدا عن البحيرة.

سأل كيندريك: «هل أنا مراقب؟».

«يوجد شركاء للرجل الذي يستحوذ على المخطوطات. وهل أنا مراقب؟»
«كلا. أوكد لك ذلك».

«جيد. أفترض بأن محادثتك سارت على ما يُرام».

«سأسافر إلى الولايات المتحدة بعد ساعتين. وأجتمع غداً مع الرفاق في جامعة برينستون. وضعتهم بصورة الشروط، وكما يمكنك أن تتوقع سيد شابيل، إنهم يرغبون بإثبات».

أخرج شابيل مغلفاً من حقيبته دون أن يتوقف عن المشي وقال: «هذا يفني بالعرض».

أخذه كيندرريك وهما يمشيان ثم قال: «هل لي بأن أسأل ماذا يوجد في داخله؟».

ابتسم شابيل بمكر وقال: «إنها الصفحة الأولى من الفصل الثالث لرواية غاتسبي العظيم. وعلى حد علمي، إنها أصلية».

توقف كيندرريك في مكانه وتمتم قائلاً: «يا إلهي».

9

كان الدكتور جيفري براون يركض تقريباً عبر حرم جامعة برينستون، لكنه توقف عند الدرجات الأمامية لقاعة ناسو، في المبنى الإداري. كونه مدير إدارة قسم المخطوطات في مكتبة فايرستون، بالكاد يتذكر آخر زيارة له إلى مكتب الرئيس. وهو يعلم علم اليقين أنه لم يسبق له أن استدعي إلى اجتماع طارئ فوظيفته لم تستدع هذا النوع من الإثارة.

كانت السكرتيرة بانتظاره، فراففته إلى المكتب الكبير الخاص بالرئيس

كارلايل الذي كان أيضاً واقفاً وبانتظاره. فُدم الدكتور براون على عجل إلى مستشار الجامعة الخاص، ريتشارد فيرلي، وإلى توماس كيندريك. بالنسبة إلى براون على الأقل، كان التوتر في الغرفة واضحاً.

جمع كارلايل الأربعة حول طاولة اجتماع صغيرة وقال لبراون: «آسف على إخطارك المتأخر، لكننا تسلمنا شيئاً يحتاج أن تتحقق منه. لقد تسلم السيد كيندريك يوم البارحة في باريس، صفحة واحدة من الورق قيل إنها الصفحة الأولى من الفصل الثالث لمخطوط ف. سكوت فيتزجيرالد الأصلي لرواية غاتسبي العظيم. ألق نظرة عليها».

فتح براون المغلف ونظر إلى الصفحة وشهق، ثم لمس برفق الزاوية العلوية اليمنى ودفن وجهه بين يديه.

10

بعد ساعتين، عقد الرئيس كارلايل اجتماعاً آخر حول الطاولة نفسها. استُبعد الدكتور براون، وجلست إيلين شيلبي على كرسيه، وإلى جانبها جاك لانس، عميلها والرئيس التنفيذي لشركة التأمين صاحبة الخمسة والعشرين مليون التي على المحك. كانت تشعر بالألم من مخططها الرائع والفاشل في النيل من بروس كابل، لكنها أيضاً تتعافى بسرعة مع التلميح إلى إمكانية عودة المخطوطات إلى مكانها. لقد عرفت أنّ كابل غير موجود في جزيرة كامينو لكنها لم تكن تعلم أنه في فرنسا. عرف مكتب التحقيقات الفيدرالي أنه سافر إلى نيس لكنهم لم يتبعوه. كما أنهم لم يشاركوا إيلين هذه المعلومة.

جلس توماس كيندريك وريتشارد فيرلي مقابل إيلين ولانس. سلم الرئيس كارلايل المغلف وقال: «لقد تسلمنا هذا البارحة في باريس. إنها عينة من

غاتسبي ولقد تحققنا من أنها أصلية». فتحت إيلين المغلف وألقت نظرة عليها. كذلك فعل لانس لكن لم يُبدِ أحد أي ردة فعل. أخبرهم كيندرريك قصة اللقاء مع جاستون ثم حدّد شروط الصفقة.

عندما أنهى كلامه، قال كارلايل: «من الواضح أنّ أولويتنا هي استرجاع المخطوطات. سيكون الإمساك بالسارق أمراً جيداً، لكن الآن هذا غير ذي أهمية حقيقةً».

قالت إيلين: «حسناً، لن ندخل مكتب التحقيقات الفيدرالي في الأمر؟».

قال فيرلي: «لسنا مجبرين على ذلك من الناحية القانونية، وليس هناك خطأ في عقد صفة خاصة، لكننا نود سماع أفكارك. أنت تعرفينهم أكثر منا».

دفعت إيلين بالمغلف بضعة إنشات، وفكرت بردها. تكلمت ببطء وهي تزن كل كلمة: «لقد تحدثت مع لامار برادشو قبل يومين. الرجال الثلاثة الذين سرقوا المخطوطات هم رهن الاعتقال وأحدهم عقد اتفاقاً معهم، لم يتم إيجاد المتورطين الآخرين لكن لدى مكتب التحقيقات الفيدرالي اسميهما والبحث جارٍ. بالنسبة إلى مكتب التحقيقات الفيدرالي، الجريمة حُلّت. لن تعجبهم مثل هكذا صفقات خاصة لكنهم سيتفهمون الوضع. بصراحة، سيشعرون بالراحة في حال عادت المخطوطات».

سأل كارلايل: «هل فعلتِ هذا من قبل؟».

«أوه نعم، عدة مرات. تُدفع الفدية بشكل سري. وتعود البضاعة. الجميع سعداء وبالأخص المالك. وأعتقد السارق أيضاً».

قال كارلايل: «لستُ أدري. لدينا علاقات قوية مع مكتب التحقيقات الفيدرالي. كانوا رائعين منذ البداية. لا يبدو أمر استبعادهم صائباً في هذه

المرحلة».

أجابت إيلين: «لكن ليس لديهم أي سلطة في فرنسا. سيُجبرون على إعلام السلطات هناك وسنفقد القدرة على التحكم بالوضع، سيتدخل كثير من الناس ويمكن أن تسوء الأمور. خطأ صغير واحد، شيء قد لا يستطيع أحد توقعه مسبقاً، وتُصبح المخطوطات في خبر كان».

سأل فيرلي: «لنفترض أننا استرجعناها، كيف ستكون ردة فعل مكتب التحقيقات الفيدرالي عندما ينتهي الأمر؟».

ابتسمت وقالت: «أنا أعرف لامار برادشو جيداً. في حال أُخفيت المخطوطات بأمان في مكتبك وأصبح اللصوص في السجن، سيكون في غاية السعادة، سيُبقي التحقيق مفتوحاً لبضعة أشهر وربما يقوم السارق بخطأ ما، لكن عما قريب سأشرب وإياه كأساً في واشنطن وسنضحك معاً».

نظر كارلايل إلى فيرلي وكيندرريك ثم قال أخيراً: «حسناً. دعنا نواصل من دونهم. السؤال الصعب الآن هو عن النقود. سيد لانس؟».

تنحى المدير التنفيذي وقال: «حسناً، نحن مسؤولون عن دفع خمسة وعشرين مليوناً في حال فقدت المخطوطات بشكل كامل، ولكن الوضع الحالي مختلف تماماً».

قال كارلايل وهو يبتسم: «إنه حقاً كذلك. بافتراض أن السارق لديه المخطوطات الخمسة، يكون الحساب سهلاً. كم تود أن تدفع من العشرين مليون؟».

قال لانس من دون تردد: «سندفع النصف ولا شيء آخر».

كان النصف أكثر مما يأمل كارلايل به، وكونه أكاديمياً، شعر بأنه غير

مستعد للتفاوض مع مدير تنفيذي متشدد لإحدى شركات التأمين. نظر إلى فيرلي وقال: «حضر النصف الآخر».

11

يقع فندق بروس على الجانب الآخر لشارع سانت سيلبيس، وعلى بعد أقل من أربعين قدماً من الباب الرئيسي لمكتبة جاستون شابل، وهو مكان قديم وجذاب يتكون من أربعة طوابق بغرف ضيقة ومصعد واحد بالكاد يتسع لراشد واحد مع أمتعته. استخدم بروس جواز سفر كندياً مزيفاً، ودفع نقداً إيجار غرفة في الطابق الثالث. وضع على النافذة كاميرا صغيرة ووجهها على واجهة متجر جاستون. كان يشاهد الصور مباشرة على الآي فون الخاص به من غرفته في فندق ديلاكروا، المجاور لنهر السين. وكانت نويل تشاهدها أيضاً من غرفتها في فندق بونايرت، حيث المخطوطات الخمسة موجودة على سريرها وكل منها بحقيبة من نوع مختلف.

غادرت غرفتها عند الساعة 11:00 صباحاً مع حقيبة تسوق، وذهبت إلى الردهة حيث طلبت من مكتب الاستقبال عدم دخول الخدم إلى غرفتها لأن زوجها نائم. غادرت الفندق، وعبرت الشارع، ثم توقفت أمام واجهة أحد محلات الثياب. مرّ بروس بجانبها، وأخذ الحقيبة دون أن يتوقف، عادت إلى فندقها من أجل حماية المخطوطات الباقية، ولترقب ما يحدث في متجر جاستون أيضاً.

أمضى بروس حوالي الساعة وهو يتمشى بجانب النافورة أمام كنيسة سانت سيلبيس، محاولاً الاختلاط مع السواح الآخرين كي يحضر نفسه لما هو قادم. ستغير الساعات القليلة القادمة حياته بشكل دراماتيكي. في حال كان متوجهاً نحو فخ ما، فقد يُجرّ إلى بلاده وهو مقيد ويُسجن لسنوات. لكن في

حال خرج من هذه المعمة، سيصبح رجلاً غنياً ولن يعرف ذلك أحد سوى نويل. مشى في عدة أحياء، وكان يعود دائماً ليُخفي آثاره. أخيراً، حان الوقت للبدء بعملية التسليم.

دخل متجر الكتب فوجد جاستون يتفحص إحدى الخرائط القديمة، متظاهراً أنه مشغول، لكنه في حقيقة الأمر كان يراقب الشارع. لم يكن هناك زبائن، وكان موظفه في إجازة اليوم. دخلا مكتبه الفوضوي في الجزء الخلفي من المتجر، فأخرج بروس صندوقاً مصنوعاً من خشب الأرز، فتحه ثم فتح صندوق تخزين المحفوظات الذي داخله وقال: «المخطوط الأول، هذا الجانب من الجنة». لمس جاستون الورقة العليا وقال بالإنكليزية: «يبدو جيداً بالنسبة إليّ».

تركه بروس هناك. فتح الباب الرئيسي ثم أغلقه، نظر إلى بداية الشارع الضيق ونهايته، ثم مشى بلا مبالاة قدر الإمكان. راقبت نويل الفيديو من الكاميرا الموجودة في فندق بروس ولم ترَ أي شيء غير عادي.

اتصل جاستون عبر خط مسبق الدفع بأحد أرقام بنك الائتمان السويسري في جنيف وأبلغ الشخص الذي يعرفه بأنّ عملية التسليم الأولى قد تمت. وبحسب تعليمات بروس، كان صندوق الفدية المالي موجود في أحد البنوك في زيوريخ. وبحسب التعليمات، حوّلت الدفعة الأولى إلى أحد الحسابات المُدرجة في بنك AGL في زيوريخ، ولدى وصولها حوّلت إلى حساب مُدرج آخر في أحد البنوك في لوكسمبورغ.

تلقى بروس الجالس أمام كومبيوتره المحمول في غرفة فندقه إيميل يؤكّد استلام كلتا الحوالتين.

توقفت سيارة مرسيديس سوداء أمام متجر جاستون وخرج منها توماس كيندرريك. دخل وخرج خلال أقل من دقيقة، ثم غادر وبحوزته المخطوط. ذهب مباشرةً إلى مكتبه حيث كان الدكتور جيفري براون بانتظاره بالإضافة إلى أمين مكتبة آخر من جامعة برينستون. فتحا الصناديق وتعجبا لرؤية الجائزة.

الصبر مطلوب لكن الانتظار مليء بالقلق. بدّل بروس ملابسه وذهب في جولة طويلة. وفي إحدى مقاهي الأرصفة في شارع ديزيكول ضمن الحي اللاتيني، تناول بعض السلطة. وعلى بعد طاولتين منه، كانت نويل جالسة وهي تحتسي القهوة. تجاهلا بعضهما إلى أن غادر المكان وهو يحمل حقيبة ظهر وضعتها على أحد الكراسي. بعد دقائق قليلة من الساعة الواحدة، دخل إلى متجر جاستون مرة أخرى فدهش لرؤيته يرددش مع أحد الزبائن. شقّ طريقه بهدوء إلى الجزء الخلفي من المتجر ووضع حقيبة الظهر على طاولة مكتبه. عندما أنهى جاستون حديثه، فتحا صندوق خشب الأرز الثاني ونظرا إلى توقيع فيتزجيرالد. قال بروس: «الجميلة والملعون. نُشرت في العام 1922».

قال جاستون: «تبدو جيدة بالنسبة إليّ».

قال بروس وهو يغادر: «قم بالاتصال». بعد خمس عشرة دقيقة تم تأكيد استلام الحوالتين المالييتين. بعد وقت قصير من ذلك، توقفت المرسيديس السوداء نفسها في المكان نفسه، وقام توماس كيندرريك بأخذ المخطوط الثاني من جاستون.

كان مخطوط غاتسبي هو الثالث في الترتيب من حيث النشر، لكنّ بروس احتفظ به إلى النهاية. إنّ ثروته تزداد بشكل كبير لكنه قلق من عملية التسليم الأخيرة. وجد نويل وهي تجلس في ظل إحدى أشجار الدردار في حدائق

لوكسمبورغ وبجانباها كيس ورق عليه اسم أحد المخابزين. وعلى سبيل الاحتياط، كان طرف الخبز يبرز من أعلى الكيس. فأخذ واحدة منها وبدأ يقضمها وهو يمشي باتجاه متجر جاستون. دخل متجر الكتب عند الساعة 2:30 فسلم الكيس وما تبقى من الخبزة بالإضافة لمخطوط لطيف هو الليل إلى صديقه ثم خرج مسرعاً.

ومن أجل خلط الأمور، أرسلت الحوالة الثالثة إلى أحد أفرع البنوك الألمانية في زوريخ ومن ثم إلى حساب مُدرج في أحد بنوك لندن. وعندما تم تأكيد استلام الحوالتين، ازدادت ثروته من سبعة أرقام إلى ثمانية.

ظهر كيندريك مرة أخرى لأخذ المخطوط الثالث. وعندما عاد إلى مكتبه، كان الدكتور جيفري براون سعيداً بزيادة المجموعة.

كان المخطوط الرابع وهو آخر الأثرياء المُتنفذين، مُخبأً في حقيبة نايك رياضية حملتها نويل إلى داخل متجر كتب بولندية في جادة سانت جرمان. وبينما كانت تتجول في المتجر، حملها بروس ومشى مدة أربع دقائق ليصل إلى مكتبة شابيل.

ستغلق البنوك السويسرية في الساعة الخامسة. وعند الرابعة إلا بضع دقائق، اتصل جاستون بتوماس كيندريك وأبلغه بعض الأخبار الكئيبة. بالنسبة إلى مخطوط غاتسبي، يرغب صديقه بأن يحول المبلغ سلفاً. حافظ كيندريك على هدوئه لكنه قال إن هذا ليس مقبولاً. كان لديهم اتفاق، وكلا الطرفين أحسنا التصرف حتى الآن.

قال السيد شابيل بأدب: «هذا صحيح، لكنّ الخطر كما يراه صديقي، هو أن يقوم بعملية التسليم الأخيرة ولا يقوم أولئك الذين من طرفك بتسديد الدفعة

النهائية».

قال كيندرريك: «وماذا إذا حوّلنا الدفعة النهائية وهو قرّر الاحتفاظ بالمخطوط؟».

أجاب جاستون: «أفترض أنه يجب عليك أن تتحمل هذه المخاطرة. إنه مصرّ على ذلك إلى حد ما».

أخذ كيندرريك نفساً عميقاً ونظر إلى وجه الدكتور براون الذي أصابه الفزع ثم قال: «سأتصل بك خلال خمس عشرة دقيقة».

كان الدكتور براون قد اتصل مسبقاً مع جامعة برينستون، حيث لم يغادر الرئيس كارلايل مكتبه طوال الساعات الخمس الماضية. في الواقع، لم يكن هناك شيء لمناقشته. فجامعة برينستون تريد استرجاع غاتسبي أكثر مما يرغب السارق بالحصول على الملايين الأربعة. سيجازفون.

اتصل كيندرريك بشابيل وأبلغه بالأخبار. عندما تأكد من استلام الحوالة عند الساعة 4:45، اتصل شابيل بكيندرريك وأبلغه أنه يحمل مخطوط غاتسبي وهو في المقعد الخلفي لسيارة أجرة تنتظر خارج مبنى مكتبه في جادة مونتاین.

انطلق كيندرريك من مكتبه برفقة الدكتور براون وزميله بسرعة. نزلوا عبر السلالم العريضة وتجاوزوا موظفة الاستقبال المذهولة إلى خارج الباب الرئيسي في الوقت الذي برز فيه جاستون من التاكسي. سلّمه الحقيبة السميقة وقال إنّ غاتسبي كله هنا، ماعدا الصفحة الأولى من الفصل الثالث.

الخاتمة

بين ليلة وضحاها غطى ثلج بسماكة ثمانية إنشات حرم الجامعة، وبحلول

منتصف الصباح أسرع طواقم تحمل مجارف ومحاريت من أجل إزالة الثلج من الممرات والأدراج كي يستمر التدريس في الصفوف. لقد ضيَّع الطلاب الذين يرتدون معاطف سميكة بعض الوقت بين الحصص. كانت درجة الحرارة تحت الصفر والرياح لاسعة. طبقاً للجدول الذي وجدته على النت، يجب عليها أن تكون في غرفة التدريس في قاعة كويجلي، تُدرّس صف الكتابة الإبداعية. وجد المبنى، ووجد الغرفة، وتمكن من الاختباء والبقاء دافئاً في ردهة الطابق الثاني حتى الساعة 10:45. خرج وتسكع على أحد الأرصفة بجانب المبنى، متظاهراً بأنه يتحدث عبر هاتفه الخليوي كي يتجنب إثارة أي شكوك. كان الطقس بارداً لدرجة أنّ أحداً لم يهتم أو ينتبه له، كان من الممكن أن يبدو كأبي طالب آخر بلباسه السميك. خرجت من الباب الرئيسي وتوجهت بعيداً عنه إلى مبنى آخر. تبعها عن بعد، ولاحظ أنّ هناك شاباً برفقتها يحمل حقيبة ظهر. تجولا هنا وهناك وبدا أنهما ذاهبان إلى منطقة ستريب، وهي عبارة عن سلسلة من المحلات والمقاهي والحانات تقع قبالة حرم جامعة جنوب إيلينوي تماماً.

عبرا أحد الشوارع، وبينما هما يفعلان ذلك أمسك رفيقها بمرفقها وكأنه يساعدها، وعندما تابعا المشي بسرعة أكبر، ترك مرفقها. دخلا أحد المقاهي، ودخل بروس الحانة المجاورة. وضع قفازيه في أحد جيوب معطفه وطلب قهوة. انتظر خمس عشرة دقيقة، وقت كافٍ ليشرع بالدفء، ثم ذهب إلى المقهى. كانت ميرسر وصديقها يجلسان إلى طاولة صغيرة، والمعاطف والأوشحة ملقاة على كرسييهما، ثمة إسبريسو فاخرة أمامهما، وهما مستغرقان في الحديث. جلس بروس بجانب الطاولة قبل أن تراه. قال متجاهلاً صديقها: «مرحباً يا ميرسر». أجفنت، حتى أنها دُهلّت، وبدأت على وشك أن تشهق. التفت بروس إلى صديقها وقال: «أنا آسف، لكنني أحتاج للتحدث إليها

لبضع دقائق. لقد أتيتُ من مكان بعيد».

قال الشاب وهو مستعد للمشاجرة: «ما هذا بحق الجحيم؟».

لمستُ يده وقالت: «لا بأس. امنحنا بضع دقائق فقط».

نهض ببطء وأخذ قهوته، وبينما كان يغادرهما، اصطدم ببروس الذي تغاضى عن الأمر. جلس بروس على كرسي الشاب وابتسم لميرسر. «شاب لطيف. أهو أحد طلابك؟».

استجمعت قواها وقالت: «هل أنت جاد؟ هل هذا شيء يخصك؟».

«كلا على الإطلاق. تبدين رائعة يا ميرسر، ماعدا الاسمرار».

«إنه شهر شباط في الغرب الأوسط، الذي يبعد كثيراً عن الشاطئ. ماذا تريد؟».

«أنا بخير، شكراً على السؤال. وكيف حالك؟».

«رائعة. كيف عثر عليّ؟».

«أنت لا تختبئين تماماً. لقد تناول مورت جاسبر الغداء مع وكيل أعمالك الذي سرد القصة الحزينة لموت ووللي ستارك في اليوم الذي تلا عيد الميلاد. إنهم يحتاجون لبديل هذا الربيع من أجل تعيينه ككاتب مقيم، وها أنت هنا. هل تحبين هذا المكان؟».

«لأبأس به. إنه بارد والرياح تهبّ كثيراً». أخذت رشفة من القهوة. لم يُشح أحد منهما بنظره.

سأل وهو يبتسم: «إذاً كيف تسير أمور الرواية؟».

«جيدة. لقد اكتملت جزئياً وأنا أكتب كل يوم».

«وزيلدا وإيرنيست؟».

ابتسمت وبدأت مُستمعة. قالت: «كلا، كانت تلك فكرة حمقاء».

«حمقاء للغاية، لكن بدا أنك أحببتها كما أذكر. إذاً ما هي القصة؟».

أخذت ميرسر نفساً عميقاً، ثم نظرت في أرجاء الغرفة. ابتسمت له وقالت:
«إنها عن تيسا وحياتها على الشاطئ، وعن حفيدتها، وعن علاقتها العاطفية
مع رجل أصغر منها، كلها جميلة ومُتخيّلة».

«بورتر؟».

«شخص يشبهه جداً».

«أحب تلك القصة. هل رأوها في نيويورك؟».

«قرأ وكيل أعمالني النصف الأول وهو متحمس جداً. أظن أنها ستنجح. لا
أستطيع تصديق هذا حقيقةً يا بروس، لكن أنا سعيدة برويتك. الآن وقد بدأت
الصدمة بالتلاشي».

«وأنا سعيد برويتك أيضاً يا ميرسر. لم أكن متأكداً من أنّ هذا سيحدث
أبداً».

«لماذا يحدث الآن؟».

«عمل غير مُنجز».

احتست رشفة من القهوة ثم مسحت شفرتها بمنديل وقالت: «أخبرني يا
بروس، متى شككت بي أول مرة؟».

نظر إلى قهوتها، إنها خليط من اللاتيه مع كثير من الرغوة وما بدا أنه
رشّة من مسحوق الكراميل في الأعلى. سألها وهو يمدّ يده إلى الكوب: «هل

تسمحين لي؟». لم تقل شيئاً بينما كان يأخذ رشفة منه.

قال: «منذ اللحظة التي وصلت فيها. في ذلك الوقت، كنت في حالة تأهب قصوى، وأراقب كل وجه جديد، ولأسباب وجيهة. كان لديك الغطاء والقصة المثالية، واعتقدت أنها ربما تكون حقيقية. وكذلك اعتقدت أنها ربما تكون خطة رائعة دبرها شخص ما. فكرة من كانت تلك يا ميرسر؟».

«أفضل أن لا أقول».

«هذا منصف بما فيه الكفاية. كلما اقتربنا من بعضنا أكثر كلما ازدادت شكوكاً. وفي ذلك الوقت، كان حدسي يُنبئني بأنّ الأشرار يطبقون عليّ. هناك كثير من الوجوه الغريبة في المتجر، وكثير من السواح المزيّفين يحومون حول المكان. لقد أكّدت مخاوفي ولذا قمتُ بخطوتي».

«هروب آمن أليس كذلك؟».

«نعم. كنتُ محظوظاً».

«تهانينا».

«أنتِ عاشقة رائعة يا ميرسر، لكنك جاسوسة فاشلة».

«سأعتبر كلا الأمرين مجاملة».

أخذت رشفة أخرى ثم أعطته الكوب. وعندما أعاده إليها، سألته: «إذاً ما هو العمل غير المُنجز؟».

«كي أسألك لماذا فعلت ذلك. لقد حاولتِ وضعي في السجن لفترة طويلة».

«أليست هذه إحدى المخاطر التي يقبل بها كل المحتالين عندما يقررون التعامل بالبضائع المسروقة؟».

«أنتِ تدعوني بالمحتال؟».

«بالطبع».

«حسناً، أظن أنك فتاة لعينة وماكرة».

ضحكت وقالت: «حسناً نحن متعادلان. هل هناك صفات أخرى تدعوني بها؟».

ضحك أيضاً وقال: «كلا، ليس في الوقت الحالي».

قالت: «أوه، أستطيع التفكير بأشياء كثيرة أدعوك بها يا بروس، لكنّ الجيدة تفوق السيئة».

«شكراً، على ما أعتقد. إذاً، بالعودة إلى السؤال. لماذا فعلت ذلك؟».

أخذت نفساً عميقاً ونظرت حولها مرة أخرى. كان صديقها يجلس عند إحدى الزوايا يتفحص هاتفه. قالت: «المال. كنتُ مُفلسة ومديونة وضعيفة. هناك كثير من الأعذار حقاً. إنه شيء سأندم عليه دائماً يا بروس. أنا آسفة».

ابتسم وقال: «أنا هنا لهذا السبب. هذا ما أردته».

«اعتذار؟».

«نعم. وأنا أقبله. لا ضغائن بيننا».

«أنت شهم للغاية».

قال ثم ضحك كلاهما بشدة: «أستطيع تحمّل أن أكون كذلك».

«لماذا فعلت ذلك يا بروس؟ أعني، بالنظر إلى الماضي، الأمر يستحق ذلك، لكن آنذاك كان مخاطرة مهولة».

«لم يكن الأمر مُخططاً، صدقيني. لقد اشتريتُ وبعثُ بضعة كتب نادرة في

السوق السوداء. أظنّ أنّ هذه الأيام انتهت الآن، لكن في ذلك الوقت كنتُ أهتم بشؤوني الخاصة وحسب عندما تلقيتُ اتصالاً. تطورت الأمور واكتسبت المكيدة زخماً. رأيتُ فرصة فقررْتُ انتهازها، وأصبح لديّ شيء أمتلكه خلال وقت قصير. لكني كنتُ أعمل في الخفاء ولم يكن لديّ فكرة عن مدى قرب الأشرار مني إلى أن أتيت. ما إن أدركتُ أنه لديّ جاسوس في المكان، اضطررتُ للتحرك بسرعة. لقد جعلتِ الأمر ينجح يا ميرسر».

«هل تحاول شكري؟».

«نعم».

«لا عليك. كما نعرف، أنا جاسوسة فاشلة».

استمتعا بالمحادثة وهما يرتشفان القهوة. قالت: «يجب أن أقول لك يا بروس، عندما قرأتُ خبر عودة المخطوطات إلى جامعة برينستون، ضحكتُ كثيراً. شعرتُ بنوع من الحماسة، أن يتم التلاعب بي بهذه الطريقة، لكني قلتُ أيضاً، (أحسن يا بروس)».

«كانت مغامرة رائعة، لكن مرة واحدة وكفى».

«أشك بذلك».

«أقسم لك. اسمعي يا ميرسر، أريدك أن تعودي إلى الجزيرة. ذلك المكان يعني كثيراً بالنسبة إليك. الشاليه والشاطئ والأصدقاء ومتجر الكتب، ونويل وأنا. الباب مفتوح لك دائماً».

«إذا كان هذا رأيك. كيف حال آندي؟ أنا أفكر به طوال الوقت».

«ممتنع عن الكحول، ويحضر اجتماعات المدمنين مرتين في الأسبوع وهو

يكتب كرجل مجنون».

«هذه أخبار رائعة».

«كنت وميرا نتحدث عنك الأسبوع الماضي. ثمة أسئلة كثيرة عن رحيلك المفاجئ، لكن ما من أحد يعرف شيئاً. أنت تنتمين إلى هناك، وأريدك أن لا تترددي في زيارتنا، أنهى روايتك وسنقيم حفلة كبيرة».

«هذا كرم بالغ منك يا بروس، لكنني سأكون دائماً في حالة ارتياب معك. ربما أعود، لكن لا مزيد من الحماقات».

ضغط على يدها ثم وقف وقال: «سنرى». قبلها على جبينها ثم أضاف:
«إلى اللقاء».

راقبته وهو يمشي بهدوء بين الطاولات ويغادر المقهى.

Notes

realpagex0336x ^[1←] الضغفة هي صوت مضغ الطعام